مجلة جامعة البعث

سلسلة العلوم التاريخية والجغرافية والاجتماعية

مجلة علمية محكمة دورية

المجلد 45 . العدد 9

1444 هـ - 2023 م

الأستاذ الدكتور عبد الباسط الخطيب
رئيس جامعة البعث
المدير المسؤول عن المجلة

أ. د. محمود حديد	**رئيس هيئة التحرير**
أ. د. هايل الطالب	**رئيس التحرير**

د. محمد هلال	**عضو هيئة التحرير**
د. فهد شريباتي	**عضو هيئة التحرير**
د. معن سلامة	**عضو هيئة التحرير**
د. جمال العلي	**عضو هيئة التحرير**
د. عباد كاسوحة	**عضو هيئة التحرير**
د. محمود عامر	**عضو هيئة التحرير**
د. أحمد الحسن	**عضو هيئة التحرير**
د. سونيا عطية	**عضو هيئة التحرير**
د. ريم ديب	**عضو هيئة التحرير**
د. حسن مشرقي	**عضو هيئة التحرير**
د. هيثم حسن	**عضو هيئة التحرير**
د. نزار عبشي	**عضو هيئة التحرير**

تهدف المجلة إلى نشر البحوث العلمية الأصيلة، ويمكن للراغبين في طلبها الاتصال بالعنوان التالي:

رئيس تحرير مجلة جامعة البعث

سورية . حمص . جامعة البعث . الإدارة المركزية . ص . ب (77)

. هاتف / فاكس : 2138071 31 963 ++

. موقع الإنترنت : www.albaath-univ.edu.sy

. البريد الالكتروني : magazine@ albaath-univ.edu.sy

ISSN: 1022-467X

شروط النشر في مجلة جامعة البعث

الأوراق المطلوبة:

- 2 نسخة ورقية من البحث بدون اسم الباحث / الكلية / الجامعة) + CD / word من البحث منسق حسب شروط المجلة.
- طابع بحث علمي + طابع نقابة معلمين.
- **اذا كان الباحث طالب دراسات عليا:**

يجب إرفاق قرار تسجيل الدكتوراه / ماجستير + كتاب من الدكتور المشرف بموافقته على النشر في المجلة.

- **اذا كان الباحث عضو هيئة تدريسية:**

يجب إرفاق قرار المجلس المختص بإنجاز البحث أو قرار قسم بالموافقة على اعتماده حسب الحال.

- **اذا كان الباحث عضو هيئة تدريسية من خارج جامعة البعث :**

يجب إحضار كتاب من عمادة كليته تثبت أنه عضو بالهيئة التدريسية و على رأس عمله حتى تاريخه.

- **اذا كان الباحث عضواً في الهيئة الفنية :**

يجب إرفاق كتاب يحدد فيه مكان و زمان إجراء البحث ، وما يثبت صفته وأنه على رأس عمله.

- **يتم ترتيب البحث على النحو الآتي بالنسبة لكليات (العلوم الطبية والهندسية والأساسية والتطبيقية):**

عنوان البحث . . ملخص عربي و إنكليزي (كلمات مفتاحية في نهاية الملخصين).

1- مقدمة

2- هدف البحث

3- مواد وطرق البحث

4- النتائج ومناقشتها .

5- الاستنتاجات والتوصيات .

6- المراجع.

- **يتم ترتيب البحث على النحو الآتي بالنسبة لكليات (الآداب – الاقتصاد– التربية – الحقوق – السياحة – التربية الموسيقية وجميع العلوم الإنسانية):**
- عنوان البحث . . ملخص عربي و إنكليزي (كلمات مفتاحية في نهاية الملخصين).

1. مقدمة.
2. مشكلة البحث وأهميته والجديد فيه.
3. أهداف البحث و أسئلته.
4. فرضيات البحث و حدوده.
5. مصطلحات البحث و تعريفاته الإجرائية.
6. الإطار النظري و الدراسات السابقة.
7. منهج البحث و إجراءاته.
8. عرض البحث و المناقشة والتحليل
9. نتائج البحث.
10. مقترحات البحث إن وجدت.
11. قائمة المصادر والمراجع.

7- يجب اعتماد الإعدادات الآتية أثناء طباعة البحث على الكمبيوتر:

أ- قياس الورق 17.5×25 B5.

ب- هوامش الصفحة: أعلى 2.54- أسفل 2.54 – يمين 2.5- يسار 2.5 سم

ت- رأس الصفحة 1.6 / تذييل الصفحة 1.8

ث- نوع الخط وقياسه: العنوان . Monotype Koufi قياس 20

. كتابة النص Simplified Arabic قياس 13 عادي . العناوين الفرعية Simplified Arabic قياس 13 عريض.

ج . يجب مراعاة أن يكون قياس الصور والجداول المدرجة في البحث لا يتعدى 12سم.

8- في حال عدم إجراء البحث وفقاً لما ورد أعلاه من إشارات فإن البحث سيهمل ولا يرد البحث إلى صاحبه.

9- تقديم أي بحث للنشر في المجلة يدل ضمناً على عدم نشره في أي مكان آخر، وفي حال قبول البحث للنشر في مجلة جامعة البعث يجب عدم نشره في أي مجلة أخرى.

10- الناشر غير مسؤول عن محتوى ما ينشر من مادة الموضوعات التي تنشر في المجلة

11- تكتب المراجع ضمن النص على الشكل التالي: [1] ثم رقم الصفحة ويفضل استخدام التهميش الإلكتروني المعمول به في نظام وورد WORD حيث يشير الرقم إلى رقم المرجع الوارد في قائمة المراجع.

تكتب جميع المراجع باللغة الانكليزية (الأحرف الرومانية) وفق التالي:

آ . إذا كان المرجع أجنبياً:

الكنية بالأحرف الكبيرة . الحرف الأول من الاسم تتبعه فاصلة . سنة النشر . وتتبعها معترضة (–) عنوان الكتاب ويوضع تحته خط وتتبعه نقطة . دار النشر وتتبعها فاصلة . الطبعة (ثانية . ثالثة) . بلد النشر وتتبعها فاصلة . عدد صفحات الكتاب وتتبعها نقطة.

وفيما يلي مثال على ذلك:

–MAVRODEANUS, R1986– **Flame Spectroscopy**. Willy, New York, 373p.

ب . إذا كان المرجع بحثاً منشوراً في مجلة باللغة الأجنبية:

. بعد الكنية والاسم وسنة النشر يضاف عنوان البحث وتتبعه فاصلة، اسم المجلد ويوضع تحته خط وتتبعه فاصلة . المجلد والعدد (كتابة مختزلة) وبعدها فاصلة . أرقام الصفحات الخاصة بالبحث ضمن المجلة.

مثال على ذلك:

BUSSE,E 1980 Organic Brain Diseases **Clinical Psychiatry News** , Vol. 4. 20 – 60

ج. إذا كان المرجع أو البحث منشوراً باللغة العربية فيجب تحويله إلى اللغة الإنكليزية و التقيد

بالبنود (أ و ب) ويكتب في نهاية المراجع العربية: (المراجع In Arabic)

رسوم النشر في مجلة جامعة البعث

1. **دفع رسم نشر (40000) ل.س أربعون ألف ليرة سورية عن كل بحث لكل باحث يريد نشره في مجلة جامعة البعث.**
2. **دفع رسم نشر (100000) ل.س مئة الف ليرة سورية عن كل بحث للباحثين من الجامعة الخاصة والافتراضية .**
3. **دفع رسم نشر (200) مئتا دولار أمريكي فقط للباحثين من خارج القطر العربي السوري .**
4. **دفع مبلغ (6000) ل.س ستة آلاف ليرة سورية رسم موافقة على النشر من كافة الباحثين.**

المحتوى

اسم البحث	اسم الباحث	الصفحة
البغايا في العصر الإمبراطوري الرومانيِّ (27 ق.م- 200م)	د. محسن محمد	66-11
أثر العوامل الاقتصادية والثقافية للأسرة السورية على زواج القاصرات دراسة ميدانية في محافظة دير الزور	هيا عايد د. أميرة عرقسوسي	100-67
تصور النخبة من الحداثة إلى المعاصرة: النخبة في تحولات العالم المعاصر (إسقاطات على المجتمع العربي)	سامر أسعد د. عادل العلي	134-101
السلوك السياسي وضرورات القرار السياسي في فكر ميكافيللي (الأمير بين المهارة والمعرفة)	علي الخطيب د. هلا علي	174-135

البغايا في العصر الإمبراطوري الروماني
(27 ق.م– 200م)

الدكتور: محسن محمد

قسم: التاريخ - كليّة: الآداب - جامعة: البعث

ملخصُ البحث باللغة العربية

يتناولُ هذا البحث بالدراسة طبيعة حياة البغايا ونشاطهنّ في الإمبراطوريّة الرومانيّة خلال الفترة الزمنيّة بين عامي 27 ق.م– 200م. كان البغايا حاضرات بقوّة في الإمبراطوريّة الرومانيّة، فتعدّدت المصطلحات التي استخدمها الرومان للإشارة إليهن، كما تعدّدت فئاتهن ومراتبهنّ، فكان هناك المحظيات اللواتي حققن ثراء كبيراً واختَرن زبائنهنّ من نُخبة المجتمع الروماني. وكان هناك مُومسات بيوت الدعارة اللواتي كُنّ بأغلبهنّ من العبيد فكُن بالتالي مغلوبات على أمرهن، وأخيراً كان هناك بائعات الهوى اللواتي كُنّ بأغلبهنّ من كبار السنّ وحصلن على أجور ضئيلة جداً.

والواقع، أنّ الأسباب التي أدّت إلى دخول بعض النساء في الإمبراطورية الرومانية في مهنة الدعارة كانت متعدّدة، حيث كان أغلب البغايا من النساء اللواتي يُعانين من الفقر وضعف المردود المادّي، كما كان بعضهنّ من طبقة العبيد؛ لذلك مارسن مهنة البغاء مُجبرات، أضف إلى أنّ عدم رغبة بعض الأُسر الرومانيّة بتربية أطفالهم من الإناث والقيام برميهن في الشوارع قد جعل من بيوت البغاء المكان الوحيد الذي يحتضنهن ويتكفل برعايتهن ليعملوا في المستقبل كبغايا. وكما تعددت فئات البغايا، كذلك تعدّدت الأجور التي تتقاضاها كل فئة منهنّ، فتراوحت الأسعار التي تتقاضها البغايا بين مئات

القطع الذهبية والهدايا الفاخرة وصولاً إلى قطعة آس واحدة أو قطعتين.

وتواجد إلى جانب البغايا أشخاص كانوا يتولون إدارة بيوت الدعارة ويتكفلون بدفع الضريبة المفروضة على عمل البغايا، وهؤلاء هم القوادون الذين عَرفهم المجتمع الروماني وأشار إليهم الرومان بأسماء متعددة.

وعلى اعتبار أنّ تجارة البغاء كانت تجارة مُربحة؛ لذلك عملت الحكومة الرومانية على تنظيمها وعلى الحصول على قسم من الأرباح التي تُدرّها عبر فرض ضريبة محددة، تلك الضريبة مُثبتة في الشواهد الأدبيّة والأثريّة.

وبالرغم من الطلب الكبير على البغايا في المجتمع الروماني، إلا أنّ ذلك المجتمع تعامل معهنّ بازدراء ونظر إليهنّ القانون الروماني على أنهنّ نساء شريرات ناقصات الأهليّة، وجرّم الرومان كل امرأة أو رجل ينخرط في تجارة البغاء لدرجة أنهم مُنعوا من الزواج مع المواطنين الأحرار.

كلمات مفتاحية: البغايا، المُومسات، العاهرات، بيوت الدعارة، المحظيات، روما، القوادون، العبيد، الضريبة، النساء، المجتمع الروماني، الأدباء الرومان.

Prostitutes in the Roman Empire (27 B. C- 200 A. D)

The search summary in English

This research studies the nature of the life of prostitutes and their activities in the Roman Empire during the time period between 27 BC - 200 AD. Prostitutes were strongly present in the Roman Empire, so the terms that the Romans used to refer to them multiplied, as did their categories and ranks. There were concubines who achieved great wealth and chose their clients from the elite of Roman society.

There were the brothel prostitutes who were mostly slaves and were therefore powerless, and finally there were the prostitutes who were mostly old and paid very little.

In fact, the reasons that led some women in the Roman Empire to enter the profession of prostitution were multiple, as most of the prostitutes were women who suffered from poverty and poor financial returns, and some of them were from the slave class; Therefore, they practiced the profession of prostitution forcibly, in addition to the unwillingness of some Roman families to raise their female children and to throw them in the streets, which made brothels the only place that embraced them and ensured their care so that they would work in the future as prostitutes.

Just as there were many categories of prostitutes, so were the wages charged by each category of them. The prices charged by prostitutes ranged from hundreds of pieces of gold and luxury gifts to one or two pieces of ace.

In addition to the prostitutes, there were people who ran brothels and paid the tax imposed on the work of prostitutes. These were the pimps that Roman society knew, and the Romans referred to them by several names.

Considering that the prostitution trade was a profitable business; Therefore, the Roman government worked to organize it and to obtain a portion of the profits it generated by imposing a specific tax, that tax is proven in literary and archaeological evidence.

Despite the great demand for prostitutes in Roman society, that society dealt with them with contempt and Roman law viewed them as evil, incompetent women, and the Romans criminalized every woman or man involved in the trade of prostitution to the extent that they were prevented from marrying free citizens

Keywords: prostitutes, prostitutes, prostitutes, brothels, courtesans, Rome, pimps, slaves, tax, women, Roman society, Roman writers.

مُخطّط البحث

مقدمة.

أولاً: التعريف بمصطلح البغايا.

ثانياً: دوافع البغاء في الإمبراطوريّة الرومانيّة.

1 – الرقّ أو العبوديّة.

2– الوضع المادي السيء أو الفقر.

3– التخلّي عن الأطفال.

ثالثاً: فئات البغايا.

1– المحظيات(amicae).

2– مومسات بيوت البغاء(meretrix).

3– بائعات الهوى (Lupa).

رابعاً: أجور البغايا.

خامساً: هيكليّة تجارة البغاء.

1– القوّادون.

2– بيوت البغاء.

سادساً: الضرائب على البغايا.

سابعاً: نظرةُ المجتمعِ الرومانيّ إلى البغاء والبغايا.

– خاتمة.

– قائمة المصادر والمراجع.

مقدّمة:

لا تكتمل الدراسة الحضاريّة للمجتمع الروماني من دون دراسة الجوانب المُظلمة والمهمشة فيه، ومن تلك الجوانب المظلمة كان البغايا اللواتي عانين من تهميش مجتمعي ومؤسساتي، حتى أنّ الإشارات إليهنّ في المصادر الأدبية الرومانية لم يكن المقصود منها إثبات وجودهنّ في المجتمع بقدر ما كان الربط بينهنّ وبين كل رذيلة وانحطاط في الأخلاق الرومانية. إلا أنّ هذا لا ينفي أنّ البغايا كُنّ شريحة مهمّة في المجتمع الروماني، وأهميتهم لا تأتي من أهمية أو قيمة المهنة التي يُمارسنها، فمهنة البغاء أو الدعارة مهنة مرفوضة أخلاقياً ومجتمعياً، وهذه النقطة لا جدال حولها، ولكن أهميتهم تأتي أولاً من انتشارهم بشكل كبير داخل المجتمع الروماني مما يدلّ على طلب كبير من الشعب الروماني على خدماتهنّ بالرغم من الرفض الظاهري لهنّ. وثانياً من تصنيف النخبة الرومانية للبغاء على أنه ضرورة مجتمعيّة تحمي السيدات المُحتشمات من خطر بعض الشبان الساعين لإقامة علاقات جنسية خارج نطاق الزواج.

والواقع، أنّ البغايا تعرضن لظلم كبير في العصر الروماني، فنظر إليهن على أنهنّ سلعة تجارية مباحة لكل من يرغب بهنّ، ولم يراعِ المجتمع الروماني الدوافع والأسباب التي أدّت إلى وقوع هؤلاء النساء في دوامة الدعارة. وعلى اعتبار أنّ أغلب الأدباء والمؤرخين الذين ذكروا البغايا، بصورة أو بأخرى، كانوا من الطبقة الرومانية النبيلة؛ لذلك فإنّهم عزّزوا من النظرة السوداوية تجاه البغايا في الوقت الذي تسامحوا فيه مع مهنة البغاء. وهذا الكيل بمكيالين مع تبيان الظلم الذي تعرض له البغايا في المجتمع الرومانيّ جميعها نقاط سيتمّ توضيحها في مكانها المناسب من هذا البحث.

شمل الإطار الزماني لهذا البحث الفترة الممتدة بين عام 27 ق.م(أي بداية العصر الإمبراطوريّ الرومانيّ) والعام 200م، وتمّ اختيار هذين العامين على اعتبار أنّ الكمّ الأكبر من المعلومات الأكاديمية تعود إلى هذه الفترة، أضف إلى أنّ هذه الفترة شهدت ازدهاراً كبيراً لتجارة البغاء بدليل أنّ الحكومة الرومانية شرَّعت تجارة البغاء خلال هذه الفترة، وأوجبت البغايا بدفع قسم لا بأس به من مدخولهنّ كضرائب إلى الخزينة

الرومانية. وبكل الأحوال، فإنّ دراسة البغايا خلال هذه الفترة يُعطي للباحثين معلومات تُجمل لهم كل ما يريدون معرفته بخصوص البغايا وتجارة البغاء ليس فقط خلال الفترة بين 27 ق.م و200م بل خلال العصر الإمبراطوري الرومانيّ (27 ق.م– 330م) بكامله.

أما الإطار المكانيّ لهذا البحث، فشمل الإمبراطوريّة الرومانيّة بحدودها المعروفة والممتدة من نهر الفرات شرقاً إلى بريطانية غرباً، ومن مصر جنوباً إلى بحر البلطيق شمالاً.

وقُسّم البحث إلى أفكار أساسية حاولت معالجة أهمّ جوانب حياة البغايا ومهنتهنّ من خلال ما قدّمته المصادر الأدبيّة والأثريّة من معلومات بهذا الخصوص.

وتجدر الإشارة هنا، إلى البحث سيستخدم مصطلحات متعددة للإشارة إلى البغايا، مثل المومسات، العاهرات، بائعات الهوى على اعتبار أنّ جميع هذه المصطلحات تُعطي الغاية ذاتها.

إشكالية الدراسة:

تكمن إشكاليّة هذا البحث الأساسية في توضيح طبيعة عمل ونشاط البغايا والخلفيّة الاجتماعيّة التي ينتسبون إليها وموقف المجتمع الروماني منهنّ. هذه الإشكالية تفرض على الباحث طرح جملة من التساؤلات الأكاديميّة ينبغي الإجابة إليها. تلك التساؤلات تتلخّص في: ما هو المقصود بمصطلح البغايا؟ وما هي الأسباب التي أدّت إلى عَمل بعض النساء الرومانيات في مهنة البغاء؟ وماهي أنواع البغايا؟ وهل كان البغايا على مستوى واحد من المكانة والحضور الاجتماعيّ؟ وماهي الأجور التي كانت تحصل عليها المُومس من زبائنها؟ ومن هم الأشخاص الذين أداروا عمل البغايا وتجارة البغاء؟ وما هو موقف الدولة الرومانية من عمل البغايا؟ وكيف نَظر المجتمع الروماني إلى مهنة البغاء والبغايا. وغيرها من التساؤلات التي تحتاج إلى إجابات أكاديمية وافية للوصول إلى بحثٍ علميٍّ متكاملٍ.

أهمية الدراسة:

يُحاول أغلبُ الباحثين تجاهل فئة البغايا لاعتبارات متعدّدة. تلك الاعتبارات لا تصبّ، مهما كانت، في خدمة علم التاريخ الذي حاول ولا يزال يحاول فرض نفسه كعِلم يعتمد، كغيره من العلوم، على الوثائق والأدلة، لا على العواطف، في دراسة جميع مواضيعه.

وعلى اعتبار أنّ معظم الدراسات العربيّة الحديثة تتجه نحو دراسة حضور النساء من النخبة الرومانية، وتُركّز على دراسة الجانب المُشرق من حياة المرأة الرومانية دون الالتفات إلى حقيقة وجود نساء مارسن وامتهنّ مهنة الدعارة؛ لذلك فانّ أهمية هذا البحث تكمن في أنه سيحاول الخروج عن المألوف في الدراسات الحضارية وذلك من خلال تقديم عرض أكاديمي شامل لجانب مهمش من المجتمع الروماني هو البغايا.

هدف الدراسة:

يهدف هذا البحث إلى التعريف بمهنة البغايا في الإمبراطورية الرومانية، وتوضيح حقيقة أنّ قسم كبير من هؤلاء البغايا كُنّ مغلوبات على أمرهنّ ومارسن هذه المهنة المرفوضة أخلاقياً ومجتمعياً مُجبرات لا راغبات. كما يهدف إلى تسليط الضوء على نظرة القانون والمجتمع الروماني إلى مهنة البغاء والنساء اللواتي مارسن هذه المهنة. أمّا الهدف الأسمى لهذا البحث فيتمحور حول تقديم دراسة أكاديمية جديدة تُغني المكتبة العربيّة التي تخلو من أيّة دراسة أكاديمية شاملة تعالج البغايا في العصر الرومانيّ. كما يهدف هذا البحث إلى تقديم مادّة علمية أوليَّة تساعد الباحثين في التاريخ الروماني على تضمين موضوع البغايا في رسالة أو أطروحة أكاديمية شاملة على اعتبار أنّ هذا الموضوع يستحقّ تضمينه في دراسة مُستفيضة تُوسِّع أفق البحث العلمي في التاريخ الروماني.

منهج الدراسة:

عَمد الباحث إلى اعتماد المنهجين التحليلي والوصفي في آنٍ واحد. واعتماد هذين المنهجين جاء بناءً على أنّ جميع المعلومات، التي بُني عليها هذا البحث، مُستمّدة من المصادر الأدبية والأثرية؛ لذلك كان لابدّ من عرض معلومات المصادر الأدبيّة وتحليلها بغية تقديمها بطريقة علميّة مُبسّطة بعيدة عن الركاكة التي تحتويها تلك المصادر أحياناً. كما توجّب دراسة وتحليل المصادر الآثرية التي أشارت إلى فئة البغايا بغية تقديم المعلومات التي احتوتها وجعلها في خدمة هذا البحث.

مصادر الدراسة:

لا يوجد مصدر أدبيّ مُحدد عالج موضوع البغايا، بل توزّعت المعلومات بخصوصهنّ في مختلف المصادر، ويُلاحظ أنّ أغلب المعلومات بخصوص البغايا جاءت في كُتب الشعراء والأدباء الرومان على اعتبار أنهم أوردوا إشارات كثيرة إلى البغايا في سياق نقدهم للانحطاط الأخلاقي في المجتمع الرومانيّ.

وأهمّ المصادر الأدبيّة التي عالجت موضوع البغايا كان الكاتب السوريّ لوقيان السميساطي (Lucian of Samosata) (125- 180م) الذي خصّص عملاً كاملاً من أعماله للمحظيات وهو العمل الموسوم بعنوان" حوار المحظيات (Dialogues of the Courtesans)". والمحظيات كُنّ الفئة الأعلى مكانةً بين أقرانهنّ من البغايا.

المصدر الأدبيّ الثاني الذي اعتمدت عليه هذه الدراسة هو الكاتب المسرحي الروماني بلاوتوس(Plautus) (254- 184 ق.م) الذي ضمّن في مختلف مسرحياته الكوميديّة[1] معلومات مهمة عن البغايا وبيوت الدعارة في روما.

[1] يتوفّر ترجمات عربية لبعض مسرحيات بلاوتوس. وبالرغم من أنّ هذه الترجمات لا تحتوي الأعمال التي أشار فيها بلاوتوس إلى البغايا، إلا أنّها تُقدِّم تعريف أكاديمي مهم لأهم أعمال بلاوتوس وأسلوبه الأدبي. انظر: بلاوتوس: كوميديات بلاوتوس (عن النصّ اللاتيني)، ترجمة: أمين سلامة، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ.؛ بلاوتوس: جرة الذهب، ترجمة وتقديم: عبد المعطي شعراوي، من المسرح العالمي، العدد (369)، كانون الثاني(يناير)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2014م.

أمّا المصدر الأدبي الثالث فهو الشاعر الروماني مارتيال (Martial) (40- 104م) الذي ضمّن في عمله الموسوم بـ " الأشعار (Epigrams)" معلومات مهمّة عن البغايا وحياتهنّ ونظرة المجتمع لهنّ.

بالإضافة إلى ذلك اعتمدت هذه الدراسة على المؤرخ الروماني سويتونيوس(Suetonius) (69- 140م) وعمله الموسوم بـ" سِيَر القياصرة (Lives of the Caesars)". وتميز سويتونيوس، عن غيره من المصادر الرومانية، بأنه قدّم إشارة واضحة إلى الضريبة التي فرضتها الحكومة الرومانية على عمل البغايا.

كما تمّ الاعتماد على كتابات فقيه القانون الروماني أولبيانوس(Ulpianus) (170- 228م) الذي قدّم في معرض تعليقاته على قانون جوليا وبابيا بـ (On the Lex Julia et Papia)[1] معلومات مُهمّة عن تعريف البغايا والقوَّادين والوضع القانونيّ لكل منهم.

أما النوع الثاني من المصادر الذي اعتمدت عليها هذه الدراسة، فهو المصادر الآثرية، إذْ قدّمت الدراسات الآثرية ولاسيما تلك التي تمَّت في مدينة بومبي الإيطالية كمّ

[1] قانون جوليا وبوبيا: أو قانون جوليوس وبابيوس، هو قانون أصدره الإمبراطور أوغسطس(Augustus) (27 ق.م- 14م) بهدف تنظيم الحياة الاجتماعية وإيقاف الفجور والتردي الأخلاقي في المجتمع الروماني؛ لذلك حارب ظاهرة العزوبية، وشجّع الزواج والعفّة، وحارب الزنا، وجعل منه قضية اجتماعية لا قضية شخصية.
والحقيقة، أنّ العلماء تعارفوا على إطلاق اسم" قانون جوليا وبابيا" على هذا القانون مع أنه لم يكن قانون واحد، بل كان قانونين منفصلين لم يصدرا في نفس العام، إذْ أصدر أوغسطس قانون جوليا أو جوليوس في العام 19/ 18 ق.م. أمّا قانون القنصلين ماركوس بابيوس (Marcus Papius) وكوينتوس بابايوس (Quintus Papaeus) فصدر في العام 8/ 9 م. ولكن فقهاء القانون الروماني اللاحقين يُشيرون إليه باسم واحد هو" قانون جوليا وبابيا". هذا الدمج بين القانونين جاء بسبب تمحور القانونين حول نفس الموضوع وهو الحياة الاجتماعية. انظر من المصادر:

Tacitus: Annals, III, 25.
Suetonius: Lives of the Caesars, Augustus, XXXIV.
Dio Cassius: Roman History, LIV, 16, 7.
ومن المراجع، انظر: أنديشة، أحمد محمد والقماطي، حميدة: الأسرة الرومانية زمن الإمبراطور أوغسطس 27ق.م- 14م، العدد الثاني، مجلة كلية الآداب، جامعة مصراته، 2014م، ص190، 191.؛ ددلي، دونالدر: حضارة روما، ترجمة: فاروق فريد وجميل يواقيم الذهبي، مُراجعة: محمد صقر خفاجة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 1979م، ص 207.

كبير من المعلومات عن عمل البغايا والأسعار التي تقاضوها وعن شكل وهيكلية بيوت الدعارة في العصر الروماني.

الدراسات السابقة، وجديد هذه الدراسة:

تزخر الدراسات الأكاديمية الأجنبية بمادة علمية متميزة عن حياة البغايا، ولعلّ أهم العلماء الذين كتبوا عن " البغايا في العصر الروماني" كان الأستاذ توماس ماكجين (Thomas A. J. McGinn) الذي كتب مُؤلَّفَين مُهمين، باللغة الإنكليزية، عن الدعارة واقتصاد الدعارة في العصر الروماني. أمّا باللغة الألمانية فيبقى كتاب (الدعارة في العصر الروماني) للأستاذة بيتينا إيفا ستومب (Bettina Eva Stumpp) هو المرجع العلمي الأفضل.

ولكن من خلال قراءة الدراسات الأكاديمية التي عالجت موضوع البغايا في العصر الروماني[1]، فإنّ المرء يُلاحظ أنها جاءت جميعها باللغات الأجنبية في حين تقف الدراسات العربية صامتة بخصوص موضوع مهم وغامض كهذا الموضوع؛ لذلك فإنّ هذا البحث سيُحاول تقديم دراسة أكاديميّة تُضيف جديداً إلى المكتبة العربية، مع التأكيد على أنّ الباحث لن يألوُ جهداً في تحليل المصادر التاريخية وتقديم ما يمكن تقديمه من استنتاجات بهذا الخصوص.

أولاً: التعريف بمصطلح البغايا:

وردَ في المعجم الوجيز، بخصوص البغايا، ما يلي: '' يُقال بغت المرأة بِغاءً أيّ فجرت وتكسّبت بفجورها، فهي بَغِي، والجمع بغايا''[2]. ومصطلحات البغايا، العاهرات،

[1] للوقوف على التوثيق الكامل للأعمال والدراسات الأكاديمية التي عالجت موضوع البغايا، انظر قائمة المراجع في نهاية هذا البحث.
[2] المعجم الوجيز، معجم اللغة العربية، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، دار التحرير للطباعة والنشر، القاهرة، 1989م، ص57.

المومسات، بائعات الهوى، جميعها تُعطي الغاية نفسها في العصر الروماني، وعُوملن في المجتمع على أنهنّ فئة واحدة مهما اختلف المُسمّيات[1].

عرّفت المصادر القانونية الرومانية العاهرة بأنها'' المرأة التي تَكسب رزقها من خلال بيع جسدها علانيةً '' (quae palam corpore quaestum facit fecerit)''[2]. وبذلك يمكن القول، أنّ القانون الروماني فرّق بين المرأة التي تقوم بالزنا وبين المرأة التي تجعل من الدعارة مهنة لها، فقد حدّد المشرّع الروماني الطريقة التي تبيع بها العاهرة جسدها والهدف منه، فقال'' علانيةً''، وقال'' تكسب المال''.

إلّا أنه وفي الوقت نفسه، عاد وأكّد رجل القانون الروماني، أولبيانوس في معرض تعليقه على قانون جوليا وبابيا، الذي أصدره الإمبراطور أوغسطس بأنه حتى المرأة التي تُقدِّم جسدها للآخرين مجاناً يجب أنْ تُدرج ضمن" البغايا"، فأورد:'' يقول أوكتافيوس(يقصد أوغسطس)، بشكل واضح للغاية، أنه إذا كانت المرأة تُمارس الدعارة علناً دون أن تفعل ذلك من أجل المال، فيجب تصنيفها على أنها عاهرة''[3]. ويبدو أنّ هدف المشرّع الروماني هنا كان الجانب الأخلاقي، فلم يهتمّ سواء أخذت العاهرة أجراً أمْ لم تأخذ، المهمّ هنا أنه لا يمكن تصنيفها بين السيدات المُحتشمات. ولكنه استثنى في هذه الفقرة أيضاً العلاقات الجنسية التي تجري في الخفاء، فنَظر إليها على أنها زنى وليس بغاء منظّم.

وبالرغم من تعدّد المصطلحات التي استخدمها الرومان للإشارة إلى البغايا[4]، إلاّ أنّه وُجد أربعة مصطلحات كانت هي الأكثر شيوعاً. المصطلح الأول، هو مصطلح "

---

[1] Zanuy. Q: La interdicción lingüística en las denominaciones latinas para «prostituta», Revista de Estudios Latinos, Vol. 4. No. 1, 2013, p 120.

[2] Ulpianus: On the Lex Julia et Papia, In The Enactments of Justinian, The Digest or Pandects, XXIII, 2, 43.

[3] Ulpianus: On the Lex Julia et Papia, Book I, In The Enactments of Justinian, The Digest or Pandects, XXIII, 2, 43, 3.

[4] سرد الأستاذ أدامز(Adams) ما يقارب (50) مصطلح لاتيني تمّ استخدامها للإشارة إلى البغايا، ورأى أنّ غنى اللغة اللاتينية بهذه المصطلحات دليل قوي على انتشار الدعارة وحضورها في المجتمع. انظر:

لوبي (Lupae)" ويعني" أنثى الذئب"[1]، وهو أقدم مصطلح روماني يُشير إلى البغايا، وكان يُطلق على أدنى فئات البغايا وأقلهنّ أجراً[2]. هذا المصطلح ذكره المؤرخان تيتوس ليفيوس(Titus Livius)(59 ق.م- 17م) وبلوتارخوس(Plutarch)(45- 125م)، عندما تحدّثا عن أسطورة تأسيس روما، فذكرا أنّ زوجة الراعي فاوستوللوس(Faustollos)، وتُدعى أكا- لارينتيا (Acca- Larentia) التي تولت رعاية الطفلين رومولوس(Romulus) وريموس(Remus) كانت معروفة بين الرعاة في القرية بأنها عاهرة. كما استخدم ليفيوس وبلوتارخوس مصطلح(Lupae) في الإشارة إلى الذئبة التي أرضعت الطفلين، وذكرا صراحةً أنّ اللاتينيين كانوا يُطلقون مصطلح لوبي(Lupae) على الذئب والعاهرة في آنٍ واحد [3]. ومن هذا المصطلح اللاتيني جاء مصطلح آخر وهو "لوبانار(lupanar)" ، ويعني الماخور أو بيت الدعارة، أو وكر الذئاب[4].

المصطلح الثاني هو: ميريتريكس(meretrix) الذي يعني " المرأة التي تكسب أو المرأة المدفوعة الأجر"[5]، وهو مُشتق من ميريري(merere) الذي يعني حرفياً " الذي يستحقّ"، في إشارة إلى أنّ البغايا يتلقين أجراً محدداً لقاء خدماتهن الجسدية. ويدلّ هذا المصطلح بوضوح على الجانب الاقتصادي من عمل البغايا، وأُطلق، في أغلب الأحيان، على البغايا اللواتي يعملن في بيوت الدعارة.

Adams. J. N: Words for Prostitute' in Latin, Rheinisches Museum fur Philologiea, No. 126, 1983, pp 321-
358.

[1] Berg . R, Neudecker. R: The Roman Courtesan, Archaeological reflections of a literary topos, Acta Instituti Romani Finlandiae, Roma, 2018, p 66.

[2] سيتم التطرّق إلى هذا النوع من البغايا اللواتي يُعرفن بعاهرات الشوارع أو بائعات الهوى في فقرة مستقلة من هذا البحث. انظر الصفحات (19، 20) من هذا البحث.

[3] بلوتارك: تاريخ أباطرة وفلاسفة الاغريق، ترجمة: جرجيس فتح الله، المجلد الأول، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2010م، ص 71. ;

Livy: History of Rome, 1, 4, 7.

[4] Mcginn. T. A. J: The Economy of Prostitution in The Roman World, the university of Michigan press, 2004, pp 7- 8.

[5] Berg . R: Neudecker. R; op, cit, p 66.

المصطلح الثالث الذي لاقى رواجاً في العصر الروماني، هو سكورتوم(scortum)، وهو يُفيد معنى المصطلح السابق(ميريتريكس). وبالرغم من صعوبة تحديد أصل هذا المصطلح، إلا أنّه من خلال تتبع وروده في المصادر اللاتينية، فإنه يمكن الاستدلال أنّه كان يُستخدم عند الإشارة إلى الجمع، أي عندما نقول (بغايا أو عاهرات). أما عند الإشارة إلى المُفرد، فإنّ الرومان كانوا يستخدمون المصطلح الأول(ميريتريكس)[1].

أمّا بالنسبة للمصطلح الرابع فكان" أميكا(Amica)"، ويعني الصديقة أو الصاحبة، واستُخدم بكثرة للإشارة إلى المحظيات[2]، وهُنّ الفئة الأولى من البغايا وأرفعهنّ قيمةً ومكانةً في العصر الروماني[3].

ومن الضروري الإشارة هنا، إلى مصطلح(prostituere) اللاتينيّ على اعتبار أنّ مصطلح البغايا أو العاهرات(prostitutes) في اللغات الأوربيّة المُعاصرة اشتُقّ منه. وهو مُشتقّ من الفعل (prostare) أيّ الوقوف في الشارع، وهو يتطابق مع الفعل(prostituere) أيّ الوقوف في الأماكن العامّة[4]. في إشارة واضحة إلى أنّ البغايا هُنّ سلعة مُباحة لكل من يرغب بهنّ دون استثناء. وهذا هو المصطلح الذي استخدمه المؤرخ الروماني سويتونيوس عندما أشار إلى الضريبة التي فرضها الإمبراطور كاليغولا(Caligula)(37- 41م) على البغايا[5].

ومن خلال دراسة هذه المصطلحات، فإنّ المرء يُلاحظ أنها تختلف بحسب أجر العاهرة ومكانتها، ومكان عملها، كما أنها تُركّز على الجانب الاقتصادي من عمل

[1] Lundgren. A. K: The Pastime of Venus, An Archaeological Investegation of Male Sexuality and Prostitution in Pompeii, Master Thesis, Faculty of Humanities, University of Oslo, 2014, p2.

[2] Plautus: Miles Gloriosus, CV, CXIV, CXXII, CCLXVI.

[3] سيتم معالجة فئة المحظيات بالتفصيل في فقرة لاحقة من هذا البحث. انظر الصفحات (16- 18) من هذا البحث.

[4] Stumpp. B. E: Prostitution in der römischen Antike, Akademie Verlag, Berlin, 1998, p 22.

[5] Suetonius: Lives of the Caesars, Caligula, XL.

البغايا، وتتعامل مع العاهرة على أنها تعرض نفسها كسلعة رخيصة، دون الأخذ بعين الاعتبار الظروف العامة والأسباب التي كانت وراء عمل تلك المرأة بمهنة الدعارة. هذه الظروف التي سيتم التطرّق إليها في الفقرة التالية.

ثانياً– دوافع البغاء في الإمبراطورية الرومانية:

تُقدّم المصادر الأدبيّة معلومات مهمّة عن الأسباب التي أدّت إلى وقوع الفتيات في دوامة الدعارة. ومن خلال دراسة تلك المعلومات ومقاطعتها مع المعلومات التي كشفتها الأبحاث الآثرية يُمكن للباحث أنْ يرسم صورة أكاديمية متكاملة عن أبرز تلك الأسباب التي تتمحور حول ما يلي:

1 – الرقّ أو العبودية:

من المعروف أنّ روما شكّلت بيئة خصبة لتجارة العبيد، وتنوَّعت مصادر العبودية عبر تاريخ روما بين الأَسر و الاختطاف و الولادة لأب أو أم من طبقة العبيد[1]. وعلى اعتبار أنّ العبد لا يملك من أمره نفسه شيء؛ لذلك كان الطريق الأكثر ترجيحاً للفتيات اللواتي يتحولن إلى العبودية هو بيوت الدعارة حيث يتولّى القوّاد(leno) دمجهنّ في مهنة البغاء[2].

وتحفظ المصادر الأدبية والآثرية أدلة مهمة على انخراط كبير للتُجَّار في مهنة الدعارة، فيُشير عالِم اللاهوت كليمنت الإسكندري (Clement of Alexandria) (150– 211م) إلى أنّ التجار كانوا يُبحرون حاملين البغايا وكأنهم يحملون الزيت والنبيذ، وآخرون كانوا يُتاجرون بالبغايا كما يُتاجرون بالخبز. ويُهاجم كليمنت هؤلاء التجار الذين نسوا وتناسوا وصية النبي موسى عليه السلام حين قال'' لا تُدنّس ابنتك

[1] حمدان، عبد المجيد: العبيد عند الرومان خلال القرنين الثاني والأوّل قبل الميلاد، مجلّة دراسات تاريخيّة، العددان (117- 118)، كانون الثاني- حزيران، دمشق، 2012م، ص 60- 64.

[2] Fenton. E: Prostitution as Labor in Imperial Roma, Studies in Mediterranean Antiquity and Classics, vol. 1, Iss. 1 Art. 3, 2007, p9.

بتعريضها للزنى لئلا تزني الأرض وتمتلئ الأرض رذيلة''.[1] ومما لا شكّ فيه أنّ هؤلاء البغايا اللواتي حملهنّ التجار معهم كُنّ من العبيد الذين فقدوا حريتهم لسبب أو الآخر.

كما قدّم الخطيب والمؤرخ اليوناني ديو كريسوستوم (Dio Chrysostom) (40- 120م)، دليلاً هاماً على إجبار الأسرى والعبيد على العمل في الدعارة، والانخراط في هذا النوع القذر من الحياة، فيقول: '' في التعامل مع المسؤولين عن بيوت الدعارة وتجارتهم، يجب أن نمنعهم بشدة ونُصرّ على ألا يسعى أحد، سواء كان فقيراً أو غنياً، إلى مثل هذه الأعمال التجارية. هؤلاء الرجال يَجمعون الأفراد معاً من دون حب، ويُمارسون الجِماع بدون مودة، وكل ذلك من أجل الربح القذر.... يجب ألا يأخذوا النساء أو الأطفال المساكين، الذين تم أسرهم في الحرب أو الذين تم شراؤهم بالمال، وفضحهم، علانيةَ، لغايات مخزية في أكشاك قذرة في كل جزء من المدينة.... أنا أقول: يجب أنْ لا تُوضع النساء البرابرة، ولا النساء اليونانيات – الذين كانوا في الأزمنة السابقة أحراراً تقريباً، ولكنهم يعيشون الآن في عبودية مطلقة وكاملة – في مثل هذا القيد المُخزي، حيث يقومون بأعمال فاسدة وقذرة تفوق بقذارتها الأعمال التي يقوم بها مربو الخيول والحمير''[2].

ومن الأهمية بمكان القول، أنّ المصادر الآثرية أكّدت ما جاء في المصادر الأدبية بخصوص العلاقة بين الرقّ ومهنة الدعارة، إذْ عَثر علماء الآثار، في العام 1906م، في موقع بولا ريجيا(Bulla Regia) الأثري شمال غربي تونس، على هيكل عظمي لفتاة تبلغ من العمر حوالي (40) عام، تبيَّن أنَّها عاهرة تنتمي إلى طبقة العبيد، إذْ وُجد حول رقبتها طوق من الرصاص كُتب عليه:

Adultera meretrix. Tene quia fugivi de Bulla R(e)g(ia)

[1] Clement of Alexandria: The Paedagogus, III, 3.
وعن وصية النبي موسى عليه السلام التي أوردها كليمنت الإسكندري، انظر: الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر اللاويين، الإصحاح (9)، الآية (29).

[2] Dio Chrysostom: Discourses, The Euboean Discourse, 133.

'' أنا عاهرة زانية، أمسك بي! لأنني هربت من بولا ريجيا''[1].

ومن خلال دراسة هذا الدليل الأثري، فإنّه يمكن للباحث الوقوف على ثلاثة استنتاجات مهمّة، الاستنتاج الأول هو: أنّ هذه الفتاة الأربعينية المسكينة كانت مُجبرة على ممارسة الدعارة بحُكم انتماءها إلى طبقة العبيد. الاستنتاج الثاني، هو أن هذه الفتاة حاولت الهروب سابقاً، وتمّ الإمساك بها بدليل الكتابة التي جرى حفرها على الطوق الذي كانت تلبسه عندما تمّ دفنها وهو ما يدلّ على حجم الاضطهاد التي كانت تتعرض له وإلا لما جازفت وحاولت الهروب عدّة مرّات. أما الاستنتاج الثالث فهو أنّ الفتاة كانت تعمل في بيت دعارة بدليل أنّ المصطلح الذي استخدم للإشارة إليها كان مصطلح ميريتريكس(meretrix) الذي أُشير إليه سابقاً على أنه كان يستخدم، في الغالب، للإشارة إلى البغايا العاملات في بيوت الدعارة.

وتُقدّم مدينة بومبي، هي الأخرى، دليلاً أثرياً مهماً على نشاط الفتيات من طبقة العبيد في مهنة البغاء، إذْ عُثر على نُصب تذكاري أقامته مالكة بيت دعارة تُدعى" فيبيا كريستا(Vibia Chresta)"، وكُتب على النقش ما يلي:

'' أقامت فيبيا كريستا (Vibia Chresta)، المُحرَّرة من لوكيوس (Lucius)، هذا النُصُب التذكاريّ تكريماً لها وتكريماً لذكرى جايوس روستيوس ثالاسوس (Gaius Rustius Thalassus)، مُحرِّر جايوس، ابنها، وتكريماً لفيبيا كاليبي (Vibia Calybe)، مُحرّرته، ومديرة بيت الدعارة الخاص بها. أقامت كريستا هذا النصب من دخلها الخاص دون الاحتيال على أي شخص''[2].

[1] Merlin. A : Le temple d'Apollon à Bulla Regia. Paris, 1908, p 10.; Trimble. J: The Zoninus Collar and the Archaeology of Roman Slavery, American Journal of Archaeology, Vol. 120, No. 3, July, 2016, p 455.

[2] Corpus Inscriptionum Latinarum, 92029. ; Izquierdo. A. L : La Prostitución En Roma En El Siglo I D.C, Trabajo De Fin De Grado, Supervisor: José Luis Cañizar Palacios, Facultad De Filosofía Y Letras, Universidad De Cádiz, 2021, p 36.

والواقع، أنّ هذا النقش يُقدم معلومات مهمة عن وضع البغايا، إذْ يبدو من خلاله أنّ من أقامته كانت عاهرة سابقة من طبقة العبيد، لكنها كسبت من المال ما مكنها من فتح بيت دعارة خاصّ وإقامة هذا النقش. وعلى الأرجح أنّ الأخيرة كانت عاهرة تعمل في بيت دعارة يملكه سيدها السابق ويُدعى لوكيوس.

كما يُشير هذا النقش إلى نقطة مهمة أخرى وهي نظرة الناس لفئة البغايا، إذْ أرادت صاحبة النقش أنْ توصل فكرة للناس أن المال الذي أقامت به النقش كان من جهدها الشخصيّ ولم يكن نتيجة لأيَّة طريقة غير شرعية؛ لذلك كتبت عبارة '' من دخلها الخاص دون الاحتيال على أي شخص''. كما يُبدو أنّ بعض البغايا كُنّ يلجئن إلى الاحتيال على زبائنهنّ للحصول على المال؛ لذلك حاولت صاحبة النقش تبرئة ساحتها وإقناع الناس أنها ليست من صنف البغايا اللواتي يحتلن على الغير.

2- الوضع المادي السيء أو الفقر:

لمْ يكن جميع الفتيات اللواتي عملن في مهنة الدعارة من طبقة العبيد، بل خرج قسم لا بأس منهنّ من طبقة العامّة التي كانت تُعاني، في كثير من الأحيان، من ظروف قاهرة كالفقر والأوضاع المادية السيئة، الأمر الذي أجبرهنّ على الانخراط في مهنة الدعارة[1].

والحقيقة، أنّه في مجتمع ذكوري كالمجتمع الروماني كان من الطبيعي أنْ تعاني المرأة من ضعف كبير تَرافق مع محدودية مجالات العمل المتاحة لها، وبالتالي وَجد قسم

[1] نافتالي، لويس: الحياة في مصر في العصر الروماني (30 ق.م- 284م)، ترجمة وتعليق: آمال الروبي، مراجعة: محمد حمدي إبراهيم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، 1997م، ص 162.

من الفتيات الرومانيات أنّ بيئة الدعارة تُحقّق لهنّ مدخولاً يفوق المدخول الذي يمكن أنْ يُحققوه من مهن أخرى كغزل النسيج[1] أو العمل كمربية أطفال مثلاً[2].

وتُقدم الشواهد الآثرية دليلاً مهماً على دور الأوضاع المادية السيئة في دفع بعض النساء الرومانيات للعمل في مهنة الدعارة، إذْ عُثر في مصر على قطعة بردي تذكر مثول أحّد أعضاء مجلس مدينة الإسكندرية (عاصمة ولاية مصر الرومانية)، ويُدعى ديوديموس(Diodemos) ، للمحاكمة بتهمة قتله لإحدى بائعات الهوى والتي كثيراً ما كان يتردد عليها. وقبل أنْ تُعلن المحكمة حكمها بإدانته أو إطلاق سراحه، قامت ثيودورا (Theodora) المرأة الضعيفة ووالدة المُومس، وطالبت ديوديموس بأنْ يُحدد لها مصدراً تتعيش منه ليكون بمثابة تعزية بسيطة عن فقدها لابنتها التي كانت مصدر رزقها الوحيد، حيث قالت: '' لأجل هذا السبب وافقت على إعطاء ابنتي للمسؤول عن بيت الدعارة(الماخور)، لكي يكون لدي مصدر للرزق أتعيَّش منه. والآن وقد فقدت مصدر إعاشتي بعد وفاة ابنتي؛ لذلك فإنني أُطالب بأنْ يُخصص لي، وأنا المرأة الفقيرة، مصدر بسيط أتعيش منه''[3].

والحقيقة أنّ الكلام الذي قاله القاضي خلال محاكمة ديوديموس لا يقلّ أهمية بالنسبة لهذا البحث عمّا قالته الأم المسكينة، فقد أكّد القاضي على أنّ الفقر هو الذي دفع العاهرة المقتولة للعمل في مهنة الدعارة، فقال:

'' ديوديموس، لقد قتلت امرأة شوَّهت حياتها وحطّت من قدرها بين الرجال .... وأنا أُشفق على المرأة التعيسة، لأنها عندما كانت على قيد الحياة قُدّمت لكل من رغب بها وكأنها جثة. بسبب فقرها الذي ضغط عليها بشدّة، باعَت جسدها إلى مرتبة قذرة، وشوّهت سمعتها عندما تحولت لعاهرة.... لقد أُمرت، كتطهير لنظام المدينة ومجلسها،

[1] Lucian: Dialogues of the Courtesans, VI.

[2] Knapp. R: invisible romans, Prostitutes, outlaws, slaves, gladiators, ordinary men and women.... the Romans that history forgot, Profile Books Ltd, London, 2011, p 208.; Stumpp. B. E : op, cit, p 39.

[3] نافتالي، لويس: الحياة في مصر في العصر الروماني، ص 162.

بأنْ تُضرب بالسيف كقاتل.... أما ثيودورا ، الأم الفقيرة والمسنة للمرأة الميتة، والتي حرمت ابنتها من الحياء(الشرف) بسبب فقرها المدقع ، والتي قتلتها أيضاً بقتلها لابنتها، فإنها سترث عُشر($\frac{1}{10}$) ممتلكات ديوديموس، القوانين تخولني فعل هذا. والشهامة تَدعم قوة القوانين''[1].

وعلى الرغم من أنّ هذه الحادثة تعود إلى القرن الرابع الميلادي، إلا أنها تعطي صورة عن دور عامل الفقر في دفع بعض النسوة للعمل في مهنة الدعارة، إذْ تشير والدة بائعة المقتولة إلى أنها أعطت ابنتها لبيت الدعارة، بغرض توفير مصدر رزق يعملون منه؛ لذلك فإنها لم تشعر بفقدان ابنتها بقدر ما شعرت بفقدان مصدر دخلها الوحيد. كما تثبت هذه الحادثة أنه لم يكن جميع النساء اللواتي عملن في بيت الدعارة كُنّ من طبقة العبيد، بل كان قسم منهنّ من الأحرار.

أضف إلى ذلك، فإنّ هذه الحادثة تُشير إلى نقطة مهمة أخرى، وهي الاضطهاد والصعوبات التي تعترض طريق البغايا، ذلك أنّ العاهرة التي قتلها ديوديموس كانت تعمل في بيت دعارة؛ لذلك من المفترض أنها كانت تتمتع ببعض الحماية، ومع ذلك قام ديوديموس بقتلها. فإذا كان مصير هذه العاهرة القتل، فإنّ للقارئ الحقّ في تخيّل حجم الاضطهاد المعنوي والجسدي الذي عانى منهم البغايا اللواتي كُنّ يعملن في الشوارع وليس لديهن من يحميهن.

وتُقدّم الشواهد الأدبية دليلاً أخراً على دور الفقر في انخراط بعض الفتيات من مهنة الدعارة، فيُشير الكاتب السوري لوقيان السميساطي إلى أمّ اضطرت إلى دفع ابنتها للدعارة لأنه لمْ يعد لديهم من يُعيلهم بعد موت زوجها، فيقول على لسان أُمّ إحدى المومسات وتُدعى كورينا (Corinna):

'' اسمعي: أريد أن أُعلِّمك كيف يجب أن تتعاملي مع الرجال. افتحي قلبك لكلامي يا ابنتي. لم يعد لدينا وسيلة لنكسب لقمة العيش سوى خدماتك التي تقدميها للرجال (تقصد

[1] Bagnall. R. S: Egypt in Late Antiquity, Princeton University Press, Princeton, New Jersey, 1993, pp 197, 198.

عملها في الدعارة). لا يمكنك أنْ تتخيلي الصعوبة التي واجهناها حتى تأقلمنا منذ وفاة والدك المبارك. لم يكن ينقصنا شيء عندما كان على قيد الحياة. كان يتمتع بسمعة طيبة كحَدَّاد. يقول الناس لن يكون هناك حَدَّاد مثل فيليبينوس(Philipinos). بعد وفاته قُمت ببيع كمّاشته وسندانه ومطرقته مقابل مائتي درهم. عِشنا على ذلك لبعض الوقت. لقد وجدت عملاً في نسج الخيوط وخياطتها، وبالكاد أجني ما يكفي لشراء الخبز. رغم ذلك، لقد قمت بتربيتك يا ابنتي الصغيرة الغالية. أنت الأمل الوحيد الذي بقي لدي''[1].

والواقع، أنّ ما أورده لوقيان يُظهر الوضع المادي الصعب الذي أجبر الأم، وتدعى كروبيل(Crobyle)، على بيع أدوات العمل الخاصة بزوجها بعد موته. وبالرغم من عثور كروبيل على عمل، إلّا أنّ مدخولها لم يكن يكفي لتأمين لقمة عيشهم، الأمر الذي دفعها إلى إقناع ابنتها بالعمل كمومس.

مصدر أدبي أخر يُظهر دور عامل الفقر في دفع بعض الفتيات لبيع أجسادهنّ، هذا المصدر هو العرّاف اليوناني أرتيميدروس (Artemidorus) (القرن الثاني الميلادي) الذي يروي حالة غريبة يقوم فيها رجل روماني بدفع زوجته للعمل في مهنة الدعارة ليجني من وراءها لقمة العيش. هذه الحالة الغريبة يعرضها، فيقول:

'' رجلٌ يحلم أنه أحضر زوجته أمام مذبح ليذبحها ويبيع اللحم المُقطّع منها ويُحقق ربحاً كبيراً. كما حلم أنه سعيد بما فعله..... قاد هذا الرجل زوجته إلى حياة مُخزية كعاهرة، لكسب قوت يومه من عملها. لقد جَلبت له فوائد كبيرة ، لكن مصلحته كانت تقتضي إبقاء الأمر سرّاً ''[2].

3- التخلّي عن الأطفال:

لمْ يَنظر المجتمع اليوناني- الروماني بعين المساواة إلى جميع الأطفال المولودين حديثاً، بل وَضع ذلك المجتمع جُملة من الشروط التي تُحدّد فيما إذا كان

[1] Lucian: Dialogues of the Courtesans, VI.
[2] Artemidorus: The interpretation of dreams, V, 2.

المولود الجديد يستحقّ عناء تربيته أمْ لا[1]؛ لذلك فقد رفض الأباء الرومان، في حالات كثيرة، تربية أطفالهم وتركوهم ليواجهوا مصيرهم[2]. وعلى اعتبار أنّ الإناث كُنّ الحلقة الأضعف؛ لذلك فقد لجأت الكثير من العائلات الفقيرة في المجتمع الروماني إلى التخلّص من الرضيع في حال كان أنثى[3]. ويُشير الشاعر الروماني أوفيد إلى أنّ رجلاً رومانياً أخبر زوجته الحامل بأنه كان يُصلي للآلهة لكي تُخفف عنها آلالام الولادة وأنْ يُرزقوا بمولود ذَكر على اعتبار أنّ أوضاعهم الماديّة لا تسمح لهم بتربية المولود في حال كان أنثى[4].

وتحفظ المصادر الآثرية دليلاً هاماً على رفض بعض الأباء تربية الإناث، إذْ عَثر علماء الآثار في أوكسيرينخوس (Oxyrhynchus)(البهسنا– بالمنيا) في مصر على بُردية تحتوي رسالة كتبها رجل لزوجته الحامل يُوصيها فيها أن تُربّي الطفل، إذا كان صبياً، ولكن إذا كان فتى، فعليها التخلّي عنها[5]. وعلى الأرجح أنّ هذه المولودة، التي جاء ذكرها في قطعة البردي، كان مصيرها العمل في دور البغاء، بسبب معرفتنا المُسبقة أنّه لا بيت يأويها ويتولى إطعامها إلا بيوت الدعارة، مع الأسف.

هذا المصير الذي يمكن أنْ تقع فيه الطفلة التي يتخلى أهلها عنها جرى تأكيده في المصادر الأدبية، إذْ تحفظ تلك المصادر معلومات مهمّة عن تحوّل الإناث اللقيطات

---

[1] محمد، محسن يوسف: رعاية الأطفال الرضع في العصر الروماني (27 ق.م- 200م)، مجلة جامعة العبث، المجلد (44)، العدد (8)، 2022م، ص17، 18.

[2] أرسطوطاليس: السياسة، ترجمه من الإغريقية إلى الفرنسية: بارتلمي سانتهلير، نقله إلى العربية: أحمد لطفي السيّد، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1947م، ص284.؛ فارس، دعاس: مكانة الأطفال في مجتمع بلاد المغرب القديم (من بداية العصور التاريخية إلى نهاية الاحتلال الروماني لبلاد المغرب)، أطروحة دكتوراه، بإشراف: محمد رشدي جرايه، جامعة الشهيد حمّه لخضر الوادي، الجزائر، 2020/ 2021م، ص 83- 186.؛

Gowland. R, and others: On the Brink of Being: Re-evaluating Infanticide and Infant Burial in Roman Britain, Journal of Roman archaeology supplementary series, No. 96, pp 69- 88.

[3] الروبي، آمال محمد: مظاهر الحياة في مصر في العصر الروماني اجتماعياً واقتصادياً وإدارياً، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1975م، ص35.

[4] أوفيد: مسخ الكائنات، نقله إلى العربية وقدّم له: ثروت عكاشة، راجعه عن الأصل اللاتيني: مجدي وهبي، ط3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1992م، ص209.

[5] Stumpp. B. E: op, cit, p31.

إلى بغايا، فيذكر الكاتب المسرحي تيرينيس (Terence) (195- 159 ق.م) في إحدى مسرحياته أنّ إحدى الأمهات الرومانيات وتُدعى سوستراتا (Sostrata) أمرها زوجها بالتخلّي عن طفلتها، لكن الأمّ قامت، سرّاً، بإعطاء الطفلة لمُرضعة لتتولى تربيتها. وما أنْ عَلِم الزوج بذلك حتى قام بتوبيخها، وأوضح لها أنّ الطفلة يُمكن أنْ تتحول إلى عاهرة في المستقبل. ولكنّ الأم، التي اعترفت بما قامت به، أوضحت لزوجها أنّ المرأة التي أعطتها الطفلة، لم تكن امرأة فاسدة أخلاقياً، بل كانت سيدة ذات سمعة طيبة وأخلاق حَسنة[1].

والحقيقة، أنّ خوف الرجل وهواجسه التي ذكرها الكاتب تيرينيس كانت مُبررة، إذْ عمد المسؤولون عن بيوت الدعارة إلى استغلال قضية هجر الأطفال في المجتمع الروماني، فكانوا يقومون بتربية الإناث الذين لا معيل لهم، وتنشئتهم في بيوت الدعارة كبغايا.

ثالثاً: فئات البغايا:

لم تَعرف الإمبراطورية الرومانية نوعاً واحداً من البغايا، بل على العكس تماماً، إذْ وُجد في المجتمع الروماني أنواع شتى من النساء اللواتي اتخذن من البغاء مهنة لهنّ. والحقيقة، أنّ هذا التقسيم بين البغايا كان بناءً على الطبقة الاجتماعية التي ينتمون إليها، وعلى الأساليب التي كانوا يتبعونها في استدراج زبائنهنّ[2]، وعلى نوعية ومكانة الأشخاص الذين يُقدِّمون لهم خدماتهن وعلى الأجور التي يتقاضونها، وعلى الأماكن التي يمارسون فيها مهنة البغاء وعلى استقلاليتهن[3].

بناءً على ذلك، يُمكن القول أنّه وُجد في المجتمع الروماني ثلاث فئات من البغايا هي:

[1] Terence: Heauton Timorumenos, DCXXV.
[2] Adams. J. N : op, cit, p321.
[3] López. R: "El Oficio Más Antiguo Del Mundo". Prostitución Y Explotación Sexual En La Antigua Roma, Revista de Estudios de las Mujeres, Vol. 4, 2016, p 161.

1- المحظيات(amicae):

تأتي المحظية على رأس قائمة البغايا في العصر الروماني، إذْ كانت تُعتبر عاهرة من الدرجة الأولى، فزبائنها من نُخبة المجتمع الروماني، وتتقاضى أعلى أجر بين أقرانها من البغايا[1]. وكان عدد البغايا المنتميات إلى هذه الفئة قليلاً نوعاً ما، إذْ لم يكن بإمكان جميع البغايا الوصول إلى مرتبة المحظية، بل كان لابدّ من توفّر شروط تُؤهِّلها لهذه الصفة، مثل الجمال والأناقة والرُقيّ[2].

كانت المحظية تبحث عن زبائنها بنفسها، وتعمل بشكل مستقلّ، أي من دون شريك يُساعدها(قوّاد)، وخارج بيوت البغاء. أما بالنسبة لزبائنها، فكانت تَحرص على اختيارهم من بين كبار الشخصيات في روما، كالنبلاء وقادة الجيش، وكبار التجار بغرض تحقيق أعلى مستوى من المعيشة[3]، كما أنها كانت تحاول انتقاء زبائنها من شريحة كبار السنّ بهدف تحصيل أكبر فائدة مادية منهم[4].

وتُثبت المصادر الأدبيّة الرومانية وجود المحظيات في المجتمع الروماني وعلاقاتهم المشبوهة مع كبار الشخصيات في الإمبراطورية الرومانية، فقد أفرد الكاتب لوقيان السميساطي عملاً كاملاً تخيّل فيه حواراً بين المحظيات اللواتي يتقاضين أجراً كبيراً من زبائنهنّ[5]. كما كتب المؤرخ الروماني سويتونيوس كتاباً عن" سيرة أو حياة المحظيات الشهيرات"[6]. وبالرغم من أنّ هذا الكتاب، فُقد، مع الأسف، إلا أنّ قيام سويتونيوس بتخصيص كتاب كامل عن هذه الفئة من البغايا يُعتبر دليلاً على مدى انتشارهنّ وحضورهنّ في أوساط الطبقة الرومانية النبيلة، خاصّة أنّ الكتاب الثاني لسويتونيوس كان عن سيرة القياصرة الرومان. أي كَتَبَ المؤرخ الروماني عن الأباطرة

[1] Izquierdo. A. L: op, cit, pp 32, 33.
[2] González. H, Pastor. S: Prostitución y matrimonio en Roma? Uniones de hecho o de derecho?", Iberia, No. 8, 2005, p101.
[3] López. R: op, cit, p161.
[4] Izquierdo. A. L: op, cit, p33.
[5] Lucian: Dialogues of the Courtesans.
[6] Knapp. R: op, cit, p 204.

وعن المحظيات في آنٍ واحد. كما يُشير سويتونيوس إلى أنّ الشاعر الروماني هوراس(Horace)(65- 8 ق.م) كان شهوانياً بقوة وتواجد في منزله المومسات على الدوام[1]. ومن المعروف أنّ هوراس كان من كبار شعراء العصر الروماني ومن المقربين للإمبراطور أوغسطس وحاشيته[2]؛ لذلك فإنّ هؤلاء العاهرات اللواتي ذكرهن سويتونيوس كُنّ من فئة المحظيات ولاشكّ. كما أشار سويتونيوس في معرض سرده لحياة الإمبراطور نيرون(Neron) (54- 68م)، أن هذا الأخير كان يُحب أنْ يتناول عشاءه بين المُومسات[3].

والحقيقة، أنّ علاقة المحظية في روما مع زبائنها كانت علاقة وطيدة، وكانت تلجأ، في بعض الأحيان، إلى التعاقد معهم على تقديم خدماتها لهم لساعات أو لأيام أو لشهور، وأحياناً بصفة دائمة؛ لذلك كثيراً ما أُطلق على المحظية مصطلح (amicae) اللاتيني الذي يعني" الصديقة أو الصاحبة أو رفيقة الفراش"[4].

وعلى اعتبار أنّ علاقة المحظية مع زبائنها يقوم، بالدرجة الأولى، على مقدار المال الذي يملكونه؛ لذلك كانت تلجأ إلى التخلّي عنهم بمجرد إفلاسهم، أو عدم قدرتهم على تقديم ما تطلبه من أموال، لتبدأ بالبحث عن أشخاص جُدد يحققون لها مستوى الرفاهية التي تطمح له[5].

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ المكانة الكبيرة التي نالتها المحظية، مكّنتها من الانخراط بقوّة في الحياة الاجتماعية للطبقة الراقية، فكانت تحضر المآدب الفاخرة، والحفلات، والمهرجانات، لا بلْ كان بإمكانها التدخّل في النقاشات التي كانت تجري بين الرومان من أصحاب المراتب الرفيعة. وهذه المكانة والميزات التي حصلت عليها

[1] Suetonius: The Life of Horace.

[2] عن حياة هوراس، ومكانته في روما، انظر: هوراس: فنّ الشعر، ترجمة: لويس عوض، ط3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1988م، ص 6- 21.

[3] Suetonius: Lives of the Caesars, Neron, XXVII, 2.

[4] Adams. J. N: op, cit, p384.

[5] Stumpp. B. E: op, cit, p 53.

المحظية كانت ممنوعة على حتى على السيدات الرومانيات أنفسهنّ، بالإضافة إلى أنها كانت ممنوعة على الفئات الأخرى من البغايا[1].

2- مومسات بيوت البغاء(meretrix):

من الصعب إيجاد مصطلح مُحدَّد لتسمية هذه الفئة من البغايا، فهنّ في درجة متوسطة بين المحظيات وبين بائعات الهوى في الشوارع؛ لذلك عَمَدَ الباحثُ إلى تسمية هذه الفئة بـ" مومسات بيوت البغاء"، انطلاقاً من حقيقة أنّ هذا النوع من البغايا لم يكونوا يعملون بشكل مستقلّ كما هو الحال مع المحظيات، بل كُنّ يعملن لصالح بيوت مخصصة للدعارة أو ما يُعرف باسم ماخور، وتحت إشراف المسؤول عن بيت الدعارة أو القوّاد[2].

ومن الأهمية بمكان القول، أنّ معظم بغايا هذه الفئة كُنّ من طبقة العبيد[3]، كما كُنّ الأكثر انتشاراً في المجتمع الروماني لسببين: السبب الأول، هو الأجر الرخيص الذي كانوا يتلقونه من زبائنهنّ؛ لذلك لجأت شريحة واسعة من الرومان إلى بيوت الدعارة التي كانت تحتضن بغايا هذه الفئة. أمّا السبب الثاني، فهو الانتشار الكبير لبغايا هذه الفئة، إذْ لم يكن المواطن الروماني بحاجة للبحث عنهنّ كثيراً فهُنّ منتشرات بشكل واسع[4].

وتُشير المصادر الأدبية الرومانية إلى هذا النوع من البغايا، فيُقدّم الشاعر بلاوتوس وصفاً لمشهد يصطفّ فيه البغايا والقوادون في بعض أسواق روما، فيقول الشاعر الروماني: '' في الوقت الحاليّ يصطفّ القوّادون والبغايا كل يوم.... لديَّ قناعةٌ بأنّ عدد البغايا هناك أكبر من عدد موازين العملات المعدنية ''[5]. كما أشار الخطيب

[1] Izquierdo. A. L: op, cit, p33.
[2] Knapp. R: op, cit, p 208. ; Fenton. E: op, cit, pp 1- 4.
[3] Strong. A: Prostitutes and Matrons in the Roman World. Cambridge: Cambridge University Press, 2016, p 60.
[4] Izquierdo. A. L: op, cit, p 35.
[5] Plautus: Truculentus, LXIV- LXVIII.

اليوناني ديو كريسوستوم إلى العبيد العاملين في بيوت الدعارة، وإجبارهم على القيام بأعمال الدعارة القبيحة[1].

والحقيقة، أنّ المصادر الآثرية أكّدت وجود هذا النوع البغايا، وجرت الإشارة في فقرة سابقة[2] إلى الطوق الرصاصي الذي عُثر عليه في موقع بولا ريجيا الأثري، ذلك الطوق الذي ذكر العاهرة التي كانت ترتديه بأنها(meretrix) [3] أي من بغايا بيوت الدعارة موضع البحث في هذه الفقرة.

وتجدر الإشارة هنا، إلى أنّ الانتشار الواسع لهذا النوع من البغايا هو الذي حدا بالحكومة الرومانية لسنّ قوانين ضريبية تُحدد مقدار الضرائب الواجب على بيوت الدعارة دفعها للخزينة الرومانية. وهذا دليل آخر على انتشار هذا النوع من البغايا، ذلك أنّ انتشارهم وارتفاع مدخولهم هو الذي فتح شهية الحكومة الرومانية لأخذ نصيبها من الأموال التي يجنوها، وسيتمّ التطرّق إلى الضرائب التي فرضتها الحكومة الرومانية على البغايا في فقرة مستقلة من هذا البحث[4].

3- بائعات الهوى (Lupae):

تأتي هذه الفئة في نهاية ترتيب البغايا، إذْ اعتبرهم الرومان أكثر البغايا انحطاطاً، لذلك أطلقوا عليهنّ مُصطلح(Publicae) أي " عام" ، في إشارة إلى أنهنّ لم يكونوا ملكاً لأحّد، بل مُباحات لكل من يرغب بهنّ[5]. وعُثر في مدينة بومبي على نقش يُقدّم هذه الفكرة نفسها ، فيقول كاتب النقش: '' الفتاة التي أكتب إليها وتقبل رسالتي على الفور هي فتاتي بشكل صحيح، ولكن إذا أردت بثمن، فهي ليست فتاتي، ولكنها للجميع''[6].

[1] Dio Chrysostom: Discourses, The Euboean Discourse, 133.

[2] راجع الصفحة (11) من هذا البحث.

[3] Merlin. A: op, cit, p 10.; Trimble. J: op, cit, p 455.

[4] انظر الصفحات (28- 31) من هذا البحث.

[5] Stumpp. B. E: op, cit, p22.

[6] Corpus Inscriptionum Latinarum, 41860.

وتُشير المصادر الأدبية إلى تميّز بائعات الهوى عن غيرهنّ من البغايا، لذلك وصفهنّ الشاعر الروماني بلاوتوس بـ" العاهرات القذرات"[1]. كما عبّر المجتمع الروماني عن مستوى هذا النوع من البغايا، فأطلق عليهن مصطلح" لوبي(Lupae)" أيّ عاهرة رخيصة[2].

والواقع، أنّه ثمّة صفات وخصائص في هذا النوع من البغايا هو الذي دفع الباحث إلى وضعهنّ في فئة مستقلّة، وفي نهاية تصنيف البغايا. أُولى هذه الخصائص أنهنّ كُنّ مستقلّات، أيّ يعملن بشكل منفرد خارج بيوت البغاء[3]، وفي هذه النقطة يتشابهن مع المحظيات. ولكنّ الخلاف بينهن وبين المحظيات هو أنّ زبائنهنّ من أدنى فئات المجتمع الروماني. أيّ لا مشكلة لديهنّ بإقامة علاقة جنسية مع أي شخص بغض النظر عن طبقته الاجتماعية، بعكس المحظيات اللواتي كُن يخترن زبائنهنّ من الطبقة الراقية في المجتمع الرومانيّ.

الخاصية الثانية التي تفرد بها هذا النوع من البغايا هي انخفاض أجورهنّ مقارنةً مع المحظيات ومع عاهرات بيوت البغاء[4].

الخاصية الثالثة هي أنّ هذه الفئة جعلت من البغاء مهنة دائمة لها، أي كانت تُمارس البغاء بشكل طوعي، ومن دون أنْ يساورها أي ندم بهذا الخصوص.

الخاصية الرابعة هي أنّ معظم، إنْ لم يكن جميع، بغايا هذه الفئة لم يكنّ يحملن صفات الجمال أو النضارة، بل كُنّ من النساء القبيحات والمُسنّات اللواتي لم يعدْ يرغب بهنّ سوى المتسوِّلون والعبيد[5].

أمّا عن الأماكن التي كانت تمارس فيها هذه الفئة البغاء، فإنها لم تكن محددة، حيث مارسن مهنتهنّ في أي مكان، سواء في الشوارع داخل المدن، أو على الطرق خارج

1 Plautus : Epidicus, CDIII.
2 Stumpp. B. E: op, cit, p18.
3 Fenton. E : op, cit, p 13. ; López. R: op, cit, p163.
4 Knapp. R: op, cit, p 221.
5 Stumpp. B. E; op, cit, p 219.

المدن، لا بل حتى في المقابر لا مشكلة لديهم؛ لذلك فقد نَظر إليهنّ الشاعر الروماني مارتيال على أنهنّ كائنات قذرة مثيرة للاشمئزاز [1].

والحقيقة، أنّ هذا النوع من البغايا كُنّ الأكثر اضطهاداً في المجتمع الروماني، إذْ، وعلى اعتبار أنهنّ كُنّ مستقلات عن بيوت الدعارة؛ لذلك لم يكن لديهنّ من يحميهن، فكانوا بالتالي عرضة للمضايقة وللأذى الجسدي[2].

ومن الأهمية بمكان القول، أنه وُجد في المجتمع الروماني نساء مارسن مهنة البغايا، ولكنهنّ لم يكنّ يندرجن ضمن أية فئة من الفئات التي جرى عرضها سالفاً، فكان بعضهن نادلات يعملن في الحانات أو أماكن استراحة المسافرين أو حتى في الحمامات[3] التي وُجد فيها غُرف خاصّة لممارسة البغاء[4]. والبعض الآخر كُن يعملن مغنيات أو ممثلات على المسرح[5]. وقد أشار الشاعر الروماني هوراس إلى هذا الترابط بين مهنة الدعارة من جهة والحانة والغناء والتمثيل من جهة أخرى[6].

كما أشارت المصادر القانونية الرومانية إلى هذا الترابط، فأورد أولبيانوس ما يلي: '' نحن نعتقد أن المرأة تمارس الدعارة علانيةً، ليس فقط عندما تفعل ذلك في منزل سيئ الشهرة(بيت دعارة) ، ولكن أيضاً إذا كانت مُعتادة على القيام بذلك في الحانات، أو في أماكن أخرى لا تُبدي فيها أي احتشام.''[7].

وأشار المؤرخ أميانوس مارسيلينوس (Ammianus Marcellinus) (حوالي 330– 391م) إلى تواجد البغايا في الحمامات العمومية، فقال ساخراً من بعض الرجال

---

[1] Martial: Epigrams, I, 34, 8.

[2] López. R : op, cit, p160.

[3] Ammianus Marcellinus: History, XXVIII, 4, 9.

[4] زاهية، مضوي: المرأة في بلاد المغرب القديم منذ بداية العصور التاريخية إلى غاية نهاية الاحتلال الروماني، أطروحة دكتوراه بإشراف: عليلي محمد وقفاف البشير، جامعة ابن خلدون- تيارت-، الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، 2023م، ص 138.

[5] Chinchilla. G. M: op, cit, p 153.

[6] Horace: The Epistles, I, 14.

[7] Ulpianus: On the Lex Julia et Papia, In The Enactments of Justinian, The Digest Digest or Pandects, XXIII, 2, 43.

الذين ينتمون إلى نخبة المجتمع: '' مِثل هؤلاء الرجال، في الوقت الذي يتبعهم فيه خمسون خادماً، يدخلون الحمامات، ويصرخون مهددين: "أين الناس؟" ولكنهم إذا اكتشفوا فجأة وجود أية جارية مجهولة، أو أية مومسة عجوز كانت منذ فترة طويلة خانعة لملذات سكان المدينة، فإنهم يركضون، كما لو كانوا يفوزون في سباق، ويربتون عليها ويداعبونها باشمئزاز، ويمدحونها، كما قد يمدح البارثيون سميراميس، أو المصريون كليوباترة''[1].

وتُؤكّد الشواهد الأثرية وجود هذا النوع المُستقلّ من البغايا، إذْ عثر على نقش جنائزي لاتيني في منطقة إيزيرينا(Isernia) جنوبي إيطالية يُشير إلى وجود هذا النوع من البغايا على الطُرق خارج روما. والنقش عبارة قائمة أسعار مُترتبة على أحّد المسافرين الذين نزلوا في محطة استراحة، فذكر أنّه توجب على ذلك المسافر دفع مبلغ (8) آس[2] للعاملة في الخان مقابل الخدمات التي قدمتها له. وفيما يلي صورة للنقش يَظهر فيه شخص يمدّ يده وخلفه حصان، مما يشير إلى أنَّه مُسافِر، ويقف أمامه رجل يبدو وكأنه يعطيه شيء ما قد يكون فائض عن حساب جرى دفعه من قِبل المُسافِر[3].

[1] Ammianus Marcellinus: History, XXVIII, 4, 9.

[2] الآس: عملة رومانية كانت تُسكّ من البرونز، وهي أصغر فئات العملة الرومانية. وللوقوف على أهم العملات الرومانية، وما تساويه كل منها مقابل الأخرى، انظر: كيوان، خالد: الديناريوس الروماني (نشأة وتطوراً)، مجلة جامعة دمشق، المجلد (43)، العدد الأول، 2018م، ص 181.؛
Bunson. M: Encyclopedia of the Roman Empire, New York, 2002, pp 131- 135.

[3] Izquierdo. A. L: op, cit, p 39.

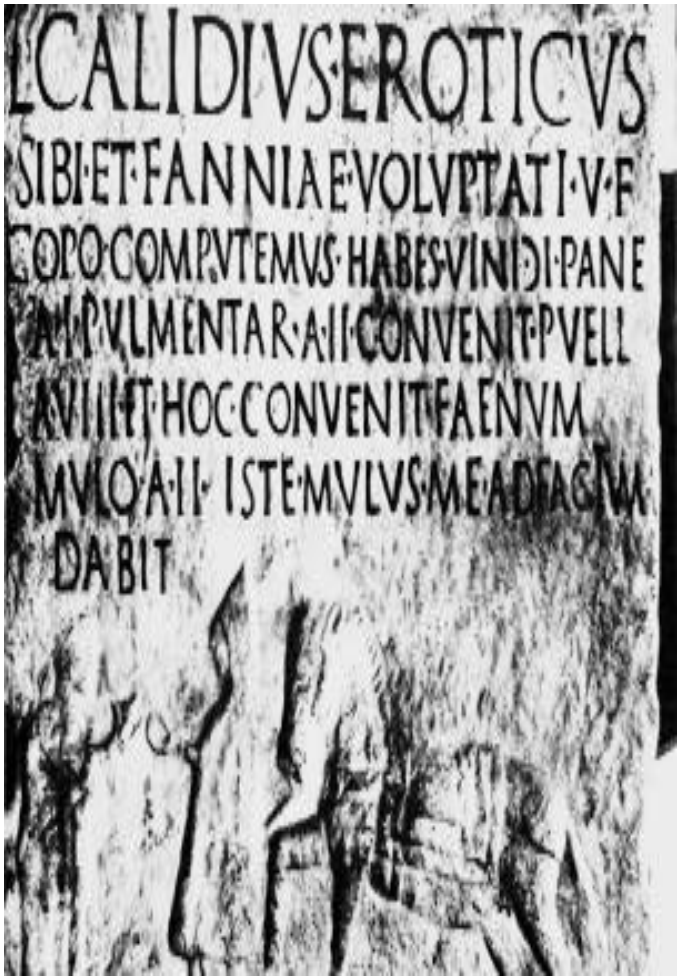

والواقع، أنّ هذا النوع من النساء لم يكونوا يعتمدون على الدعارة كمصدر للعيش، بل كانوا يمارسون الدعارة كمهنة ثانوية إلى جانب أعمالهنّ الأساسية، فكُنّ، مثلاً، يُقدمن المشروبات والطعام للأشخاص الذين يترددون على الحانة أو الخان، وفي الوقت نفسه يُقدمن لهم خدمات جنسية في حال طُلب منهنّ ذلك[1].

[1] Naselli. D. G: Prácticas sexuales en el Imperio Romano: amantes y clientes, Huellas de la Historia, núm. 34, año. 3, Julio, 2012, p 12.

رابعاً: أُجور البغايا:

تختلف الأُجور التي كان البغايا في العصر الروماني يتقاضونها مقابل الخدمات التي كُنّ يقدمنها لزبائهن. تلك الأسعار كانت تخضع لمكانة العاهرة وعُمرها، وجمالها والمكان التي تمارس فيه مهنتها[1]. وجرت الإشارة في الفقرة الخاصّة بفئات البغايا، إلى أنّ الأجرَ التي تتقاضاها العاهرة كان من بين المُحدّدات في تصنيف مكانتها بين أقرانها. وتُساعد المصادر الأدبية، بالموازاة مع قائمة الأسعار الموجودة على جدران بعض بيوت البغاء في مدينة بومبي، في رسم صورة أكاديمية لا بأس بها عن أسعار الخدمات الجنسية للبغايا في العصر الروماني.

ومن البديهي القول، أنّ المحظية كانت تنال أعلى أجر بين أقرانها، وهذا شيء يبدو طبيعياً في ضوء ما جرى ذكره سابقاً من أنّ زبائنها كانوا من نخبة المجتمع. ويُمكن الاستدلال على الأجر الكبير الذي كانت تحصل عليه المحظية من زبائنها من مقطع للشاعر الروماني مارتيال أشار فيه إلى أنّ أحّد الأشخاص دفع لمحظية تُدعى ليدا(Leda) مبلغ(100 ألف) سيستريس[2] لقاء خدماتها الجنسية[3]. ويُورد لوقيان السميساطي، في إحدى حواراته، أنّ إحدى المحظيات وتدعى كورينا(Corinna) حصلت

[1] Evans. K; War, woman and children in ancient Rome. London: Routledge, 1991, p 138.; Varone. A: Erotica pompeiana: love inscriptions on the walls of Pompeii. Translation by Ria P. Berg. Rome, 2002, p 144.

[2] السيستريس: أو السستار عملة رومانية كانت تُسكّ من البرونز. انظر: دقماق، لمى: النقود البيزنطية في سورية (330- 634م)، أطروحة دكتوراه، بإشراف: عبد المجيد حمدان، جامعة دمشق، 2009م، ص 75.

[3] يُعتبر مبلغ (100 ألف) سيستريس مبلغ ضخم جداً في الفترة التي عاش وكتب فيها مارتيال (عاش مارتيال بين عامي 40- 104م)، إذْ يُشير في فقرة أخرى إلى أنّ رجل روماني يُدعى أموينوس (Amoenus) اشترى منزل فخم بمبلغ (100 ألف) سيستريس، أضف إلى أنّ هذا المبلغ كان يعادل أجرة عشرات العمال المهرة في القرن الأول الميلادي؛ لذلك فإنّ للقارئ الحقّ في تخيل مدى ارتفاع مدخول بعض المحظيات في العصر الإمبراطوري الروماني. انظر:
Martial: Epigrams, XII, 66.; McLaughlin. R: The Roman Empire and the Indian Ocean, Pen & Sword Military, Great Britain, South Yorkshire, 2010, p 178.

على مبلغ(100) دراخمة دفعة واحدة مقابل إقامتها علاقة جسدية مع أحّد الرجال الأثرياء ويُدعى إيوكريتوس(Eucritos)[1].

ومن الأهمية بمكان القول، أنّ المحظية لم تكن تحصل على مبالغ نقديّة فقط، بل كانت تحصل، في كثير من الأحيان على هدايا فاخرة، من الأشخاص الذين تُصادقهم[2]، بالإضافة إلى قيام زبائنها في حالات عديدة بدفع أجار البيوت اللواتي كُن يسكنَّ فيها[3].

ويبدو أنّ بعض المحظيات تمكَّن نتيجة علاقاتهنّ من الوصول إلى درجة كبيرة من الثراء مما جعلهنّ موضع حَسَد من النساء في مجتمعهن، فذكر لوقيان نموذجاً لإحدى هؤلاء المحظيات الثريات وتُدعى دافنيس (Daphnis)، فأورد: '' لماذا يا كورينا! لماذا تبكين ألا ترين كم عدد المحظيات، وكيف يتم البحث عنهن جميعاً، وكيف يكسبون جميعاً المال؟! كنت أعرف دافنيس عندما كانت في حالة من الخمول والغباء. كان ذلك قبل أن تُفكِّر جيداً في كيفية الاستفادة من جسدها. انظري إليها الآن! إنها تتمايل مثل الملكة، وكُلها مرصعة بالذهب، وفساتين فاخرة ، وخلفها ما لا يقل عن أربعة عبيد''[4].

أمّا البغايا اللواتي كُنّ يعملن في بيوت البغاء، فلم يكن بإمكانهنّ تحديد السعر الواجب على زبائنهن دفعه، إذْ كانت مهمة تحديد السعر تقع على عاتق القواد أو مدير(ة) بيت الدعارة الذي يعملن فيه. ولكن يمكن القول أنّ الأسعار التي تقاضاها بيت البغاء كانت تتراوح بين قطعتين (آس) كحدّ أدنى، أي ربع دينار، وصولاً إلى (23) قطعة(آس) كحدّ أعلى[5]، مع الإشارة إلى أنّ المبلغ الأخير لم يظهر سوى مرّة واحدة في نقوش مدينة بومبي، أيّ أنه لم يكن مقياس، وأُعطي، على الأغلب، لعاهرة تحمل صفات الجمال والشباب.

1 Lucian: Dialogues of the Courtesans, VI.
2 Martial: Epigrams, II, 39.
3 Naselli. D. G: op, cit, p 10.
4 Lucian: Dialogues of the Courtesans, VI.
5 McGinn, T. A. J: op, cit, pp 295- 302.

والحقيقة، أنّ هذه المبالغ كانت تُعتبر مبالغ زهيدة في مقياس العملات الرومانية في العصر الإمبراطوري. فهي لا تكفي، أحياناً، لشراء كأس نبيذ واحدة. كما أنها كانت مُتاحة لشرائح كثيرة من المجتمع الروماني[1].

وتجدر الإشارة هنا، إلى أنّ البغايا اللواتي كُنّ يعملن في بيوت الدعارة، كّن مجبرات على إعطاء القسم الأكبر من دخلهم لمدير بيت الدعارة أو القوّاد مقابل تحمل تكاليف حياتهم من مأكل ومشرب، والسماح لهنّ بالمبيت في غرف مخصصة لهنّ في بيت البغاء[2].

أما الفئة الثالثة من البغايا، أيّ بائعات الهوى، فكانت أجورهنّ ضئيلة جداً، بل لا تكاد تُذكر بالمقارنة مع الفئات السابقة[3]، فلم تكن تزيد أحياناً على رُبع آس؛ لذلك أطلق عليهم الرومان مصطلح(quadrantaria) أيّ ربعيةً[4]، في إشارة إلى انخفاض مدخولهنّ وانحطاط قدرهنّ. ويبدو أنّ هذا الأجر المنخفض أجبر بائعات الهوى على إقامة عدّة علاقات جسدية في اليوم الواحد حتّى يتسنّى لهنّ جمع ما يكفي من المال لسدّ احتياجاتهنّ اليومية.

وفيما يلي جدول توضيحي لأنواع البغايا، وأماكن ممارستهنّ لمهنة الدعارة، والأسعار التي كانوا يتقاضونها:

نوع المُومس	المبلغ الذي تتقاضاه	المكان الذي تُمارس فيه مهنتها
المحظية	مبلغ كبير قد يصل إلى (100 ألف) سيستريس. بالإضافة إلى هدايا قيمة	البيوت الفخمة التابعة لكبار رجال المجتمع الرومانيّ، أو بيوت فخمة يملكنها
مُومس بيوت البغاء	مبالغ متوسطة تتراوح بين قطعتين آس إلى (20) قطعة آس	بيوت الدعارة في أغلب الأحيان
بائعة الهوى	مبالغ ضئيلة جداً قد لا تتجاوز ربع آس فقط	جميع الأحياء الفقيرة، وضواحي المدن، حتى في المقابر

[1] Richardson. S. L: The Brothel of Pompeii Sex, Class, And Gender at The Margins of Roman Society, Cambridge University Press, Cambridge, 2009, p 99.
[2] Fenton. E: op, cit, p1.
[3] Stumpp. B. E: op, cit, p 20.
[4] Knapp. R: op, cit, p 221.

سادساً: هيكلية تجارة البغاء:

كان لمهنة البغاء المُنظّمة في العصر الروماني هيكلية شبه واضحة، تشمل مجموعة من الأشخاص يقومون بمهمة إدارة عمل البغايا، وهؤلاء هم القوادون. كما شملت تلك الهيكلية بيوت الدعارة المنتشرة في مختلف أرجاء الإمبراطورية الرومانية.

والواقع، أنّ هذه الهيكلية تنطبق، بشكل أساسي، على البغايا اللواتي يمارسن عملهنّ في بيوت البغاء، أمّا المحظيات وبائعات الهوى، فلم يكن يخضعن لهذه الهيكلية على اعتبار أنهنّ كُنّ يمارسن البغاء بشكل مستقلّ.

1- القوَّادون:

كان القوّاد أحّد العناصر الرئيسية في مهنة الدعارة المنظمة في العصر الروماني، وكانت القوادة مُنتشرة بشكل كبير في المجتمع الروماني بدليل تعدّد الإشارات إليها في المصادر الرومانية.

عرّف المُشرّع الروماني القوّاد بعبارات واضحة حين أورد أولبيانوس: '' يكون الإنسان قوّادًا إذا كان لديه عبيد يُحقق الربح من بغائهم. ولكن إذا حصل أيّ شخص على مثل هذا الربح عن طريق أشخاص أحرار، فإنه يُصنّف في الفئة نفسها. بالإضافة إلى ذلك، يُعامل المرء المعاملة نفسها (أي يُوضع في خانة القوادين) سواء أكانت هذه مهنته الأساسية أو مارسها إلى جانب مهن أخرى كأنْ يكون، على سبيل المثال، مالك حانة أو إسطبل، وكان لديه عبيد يعتنون بالغرباء، وحصلوا على المال بهذه الطريقة(يقصد البغاء)، أو إذا كان صاحب حمّام، كما يحدث في بعض الولايات، حيث يكون لديه عبيد للاهتمام الملابس التي يتركها الناس ولكنهم في الوقت نفسه يَعرضون الجنس في أماكن عملهم''[1].

[1] Ulpianus: On the Lex Julia et Papia, Book VI, In The Enactments of Justinian, The Digest or Pandects, III, 2, 4, 2.

والحقيقة، أنّه وُجد في المجتمع الروماني العديد من المصطلحات التي تُشير إلى القوّاد، إلا أنّ المصطلح الأكثر انتشاراً كان" لينو(leno)"، واستُخدم للإشارة إلى القوادين من فئة الذكور. في حين استُخدم مصطلح" ليني(lenae) للإشارة إلى القوادين من فئة الإناث.

كما استخُدم مُصطلح" كونشيلياتريكس(conciliatrix)"، ويعني المُقرِّب. أمّا الشعراء الرومان فاستخدموا مصطلح" فينيفيكا(venefica)" للإشارة إلى القوادين من فئة الإناث. ويعني هذا المصطلح حرفيَّاً" الساحرة أو المُسمّمة"[1]. كنايةً عن دورها في بثّ السُمّ في المجتمع.

وكان القواد، في كثير من الأحيان، يملك بيت دعارة خاصّ به، إلا أنه كان من الممكن، أحياناً، أنْ يكون مالكاً لحانة أو خان أو حمّام، وفي هذه الحالة كان يُوظّف العاملات لديه في تصريف شؤون الخان وفي الوقت نفسه يُقدمن خدماتهن الجنسية لمن يرغب بها. وفي كل الأحوال كانت الأرباح تذهب إليه[2].

والواقع، أنّه يُمكن إجمال المهام التي يقوم بها القوّاد في إطار تهيئة البيئة المناسبة للبغايا لممارسة مهنتهن فيما يلي:

أ- كان يقوم بتجهيز بيت الدعارة، فيقوم بتأثيثه وتجهيزه بما يحتاجه من أثاث ومرافق ضرورية.

ب- يقوم بجمع عدد من البغايا في دور البغاء ويُعطيهن التوجيهات الضرورية لممارسة نشاطهنّ بصورة لا تُسبّب له أية مشاكل. ويُشير الشاعر الروماني جوفينال(Juvenal)(55م - القرن الثاني الميلادي) في إحدى هجائياته التي يُهاجم فيها الإمبراطورة ميسالينا(Messalina)(20- 48 م) زوجة الإمبراطور كلاوديوس (Claudius)

[1] Stumpp. B. E; op, cit, p 192.
[2] Fenton. E : op, cit, p1.

(41- 54 م) إلى أنّ القوّاد هو الذي كان يُحدد المَوعد الذي يتم فيه إغلاق بيت الدعارة الخاص به[1].

ج- يقوم بوضع لوائح بالأسعار التي تتقاضاها كل عاهرة من اللواتي يعملن لصالحه في بيت الدعارة.

د- كان القوّاد مسؤول بشكل مباشر أمام الحكومة الرومانيّة، وفكان يتوجّب عليه الحصول على الترخيص الضروري من الحكومة الرومانية بهدف ممارسة نشاطه من دون عوائق، كما كان مسؤولاً عن دفع الضرائب التي تفرضها السلطات على عمل بيت الدعارة الخاصّ به[2].

هـ- كان القوّاد مسؤول عن حماية البغايا اللواتي يعملن لصالحه، كما كان مسؤول عن إطعامهن وكسوتهن[3].

ومن الأهمية بمكان القول أنه، ونتيجة السمعة الاجتماعية السيئة للقوادين، قام بعض المواطنين الرومان بإدارة بيوت الدعارة الخاصة بهم دون الإفصاح عن مُليكتهم لها، وأوكلوا إدارتها إلى عبيد أو مُحررين يرتبطون بهم[4].

2- بيوت البغاء:

شكّلت بيوت البغاء مِفصلاً أساسياً في مهنة البغاء المُنظَّمة، فهي المكان الذي يتوجّه إليه الرومان الباحثون عن المتعة بأجر منخفض، كما كانت تحتضن الكمّ الأكبر من البغايا الذين قَدّر العلماء المحدثون عددهم في مدينة روما وحدها بحوالي(32 ألف) مُومس[5].

[1] Juvenal: The Satires, VI, 114- 135.
[2] Stumpp. B. E; op, cit, p 194.
[3] Knapp. R: op, cit, p 208.
[4] Stumpp. B. E; op, cit, p 210.
[5] López. R : op, cit, p 157.

استخدم الرومان مصطلح لوبانور(lupanar) اللاتيني" بشكل واسع للإشارة إلى بيت الدعارة او الماخور. وهذا المصطلح يعني حرفياً " وكر الذئاب"[1]. ومن المحتمل أنّ الرومان ربطوا بين الذئب والمُومس على اعتبار أنّ كلاهما يُلاحق فريسته ويُغريها حتى يتمكن من الإيقاع بها؛ لذلك قرنوا العاهرة بالذئب، وبيت الدعارة بوكر الذئاب في إشارة إلى سمعة وخطر كل منهما[2].

والحقيقة، أنّ بيوت البغاء كانت تنتشر في روما انتشاراً كبيراً الأمر الذي يُفسّر حضورها الكبير في المصادر الأدبية والآثرية على حدّ سواء. فأشار الخطيب اليوناني ديو كريسوستوم إلى أنّ بيوت الدعارة كانت موجودة في كل أجزاء روما، وذكر أنّه كان بإمكان المرء مُشاهدتها في الأسواق وبالقرب من منازل القضاة، وحتى قُرب المعابد؛ لذلك أَطلق تحذيراً من خطر هذا الانتشار، وطالب بإيقاف تجارة البغاء[3].

كما أشار المؤرخ الروماني سويتونيوس إلى وجود بيوت الدعارة في العاصمة روما، فأورد أنّ الإمبراطور كاليغولا وصل به الفجور والانحطاط إلى إقامة بيوت دعارة على تل البالاتين وأمر بتجهيز غُرفها وتأثيثها لتليق بمكانة الرجال والنساء الذين يترددون إليها، فأورد: '' من أجل عدم ترك أيِّ نوعٍ من الكسب دون تجربة، فتح(يقصد كاليغولا) بيوت دعارة في البالاتين، مع عدد من الغرف، مُؤثَّثة بشكل مناسب تليق بالمكان، حيث كانت النساء المُتزوِّجات والشباب الأحرار جاهزين لاستقبال الزوار. كما أرسل مبعوثيه إلى الأسواق والساحات، لدعوة الناس من جميع الأعمار، كباراً وصغاراً، إلى بيت الدعارة الخاص به، للحضور وإشباع شهواتهم، وكان على استعداد لإقراض زبائنه أموالاً بفائدة. وكان يُحضر الكَتَبَة لتدوين أسمائهم علناً باعتبارهم أشخاص ساهموا في إيرادات الإمبراطور.... لقد تفاخر بأنه لم يَسبق له أن حقق نجاحًا أفضل في حياته[4].

[1] McGinn. T. A. G: op, cit, pp 7- 8.
[2] Stumpp. B. E: op, cit, pp 21, 22.
[3] Dio Chrysostom: Discourses, The Euboean Discourse, 133.
[4] Suetonius: Lives of the Caesars, Caligula, XLI.

كما أشار الشاعر جوفينال إلى وجود بيوت الدعارة في روما عندما ذكر أنّ الإمبراطورة ميساليا كانت تنتظر نوم زوجها الإمبراطور كلاوديوس لتُغادر مُتنكرة إلى أحّد بيوت الدعارة حيث كان لديها هناك غرفة خاصة بها، وتبقى هناك حتى يقوم القوّاد بإقفال بيت الدعارة لتعود إلى القصر الإمبراطوري وهي غير قانعة بما ارتكبته من فواحش[1].

ويبدو من خلال المقطع الذي أورده جوفينال أنّ بيت الدعارة كان فيه العديد من الغرف بدليل أنّ الإمبراطورة ميساليا كان لها غرفة خاصة. كما يمكن الاستنتاج أنّ بيت الدعارة لم يكن يبعد مسافة كبيرة عن القصر الإمبراطوري بدليل أنّ ميساليا كانت قادرة على الذهاب إليه والعودة إلى القصر خلال وقت قصير.

وبالرغم من الإشارات الأدبية المُتفرّقة لبيوت الدعارة في روما ولا سيما في ضواحيها[2]، فإنّ مدينة بومبي الإيطالية ونتائج الأبحاث الآثرية التي تمّت فيها تبقى هي المصدر الأهم لدراسة تلك البيوت، إذْ كشف علماء الآثار عن كمّ كبير من البيوت التي ثُبُتَ أنها كانت مُخصّصة للبغاء. وقدّر علماء الآثار عدد بيوت البغاء في بومبي وحدها بـ (35) بيت، وهو عدد مُرتفع جدّا انطلاقاً من أنّ العلماء قدّروا مجمل عدد سكّان بومبي بحوالي (12) ألف نسمة. تلك البيوت المُكتشفة تحمل سمات ومعالم تجعل من السهل الحُكم على وظيفتها. من تلك السمات وجود قوائم بأسعار الخدمات التي تقدمها البغايا اللواتي كُنّ موجودات في تلك البيوت، بالإضافة إلى لوحات يُعطي بعضها إيحاءات جنسية وبعضها الآخر يُمثِّل مشاهد فاضحة. أضف إلى وجود غُرف متعددة، وفي كل غرفة سرير مصنوع إمّا من الخشب أو من الحجر[3].

[1] Juvenal: The Satires, VI, 114- 135.
[2] Petronius: The Satyricon, I. 7.; VII, 4.; Juvenal: The Satires, VI, 114- 135.
[3] Richardson. S. L: op, cit, pp 4, 5.

سابعاً: الضرائب على البغايا:

حقَّقت تجارة الدعارة وبيوت دعارة وبعض البغايا مداخيل ماليّة كبيرة فتحت شهية الحكومة الرومانيّة لنيل حصتها منها عن طريق فرض ضرائب على تلك المداخيل. ويُمكن القول، أنّ تجارة البغاء وفّرت للدولة الرومانية مداخيل عالية ظلّت مستمرة طوال عصر الإمبراطورية الرومانية[1].

والواقع، أنّ الضرائب على البغايا مُهمّة لناحية أنّها كانت الطريقة الوحيدة التي تدخلت بها الدولة الرومانية في عملهنّ، حيث أنهنّ تُركن يمارسن مهنتهن بحرية بشرط دفع ما يتوجّب عليهنّ من أموال للخزينة الرومانية[2].

لقد ألزمت الحكومة الرومانية جميع بيوت البغاء بالتسجيل لدى القُضاة ودفع ضريبة تُعرف باسم "ضريبة البغاء"(vectigalia meretricum) من أجل الحصول على رخصة عُرفت باسم" رخصة البغايا(meretricum licentia)" التي تسمح لهم بمزاولة مهنتهم بحُريّة[3]. وأوُكلت مهمة تحصيل هذه الضريبة إلى جباة الضرائب أو إلى موظفين عموميين، وأحياناً تولّى بعض الجنود هذه المهمة[4].

تحفظ المصادر الأدبية والآثرية معلومات مهمة بخصوص الضرائب التي فرضتها الحكومة الرومانية على البغايا في مختلف أرجاء الإمبراطورية الرومانية. فأشار المؤرخ الروماني سويتونيوس إلى أنّ الإمبراطور كاليغولا فرض ضريبة على المومسات والقوادين، فأورد: '' لقد فَرَضَ (يقصد كاليغولا) ضرائب جديدة.... لقد كان يتقاضى من مكاسب البغايا، مقدار يساوي ما يحصلون عليه في المُعاشرة الواحدة. كان هناك بند في

[1] Historia Augusta: The Life of Severus Alexander, XXIV, 3.;
أحمد، أسامة فايز استقلال: السقوط في الوحل نجاة من قسوة الحرمان (البغاء بدافع الفقر في العصر البيزنطي الباكر)، مجلة وقائع تاريخية، عدد (34)، الجزء الأول، كانون الثاني (يناير)، 2021م، ص54.

[2] López. R : op, cit, p169.

[3] Viñuelas. P. S : Marginadas: la realidad de ser prostituta y esclava en la Roma Imperial, Texas A&M University, 2017, p4.

[4] López. R : op, cit, p168.

القانون يفرض على جميع القوادين الذين يحتفظون بالنساء من أجل الدعارة أو البيع، أنْ يدفعوا ضريبة. حتى لو تزوجوا فلا يجب إعفائهم من دفع الضريبة''[1].

وهذه الفقرة التي أوردها سويتونيوس في معرض سيرة كاليغولا، تُعتبر فقرة مهمة لسببين، السبب الأول أنّها تُعطي قيمة الضريبة التي يتوجب على المُومس دفعها، وهي تعادل قيمة المُعاشرة الواحدة التي تقوم بها، أي إذا تقاضت المومس مبلغ (5) آس على المُعاشرة الواحدة، فيجب أنْ تَدفع على مُجمل عملها مبلغ (5) آس، وإذا تقاضت دينار يوس واحد على المُعاشرة الواحدة، فجيب أنْ تدفع على مُجمل عملها مبلغ دينار يوس واحد. أما السبب الثاني فهو أنها تُشير إلى أنّ القوادين كانوا يدفعون ضريبة أيضاً، أضف إلى أنّه أشار إلى أنّ القانون لم يستثنِ المُومسات اللواتي يتزوجن من دفع الضريبة. أيّ أن مصطلح مومس والضريبة المرافقة له يستمر مع المرأة حتى لو تزوجت.

ولكن، ومع الأسف، لا يشير سويتونيوس إلى طريقة تحصيل الضريبة إذا أكان يومي أمْ شهري أمْ أسبوعي. ولكن على الأرجح، منطقياً، أنّ التحصيل كان شهري. كما لا يُشير سويتونيوس إلى مقدار الضريبة التي كان يدفعها القوادون للحكومة الرومانية.

وتُقدم ولاية مصر الرومانية شاهداً مهماً على فرض الضرائب على البغايا، إذْ عَثر علماء الآثار على نقش شهير، يُعرف، اليوم، باسم " تعرفة كوبتوس"[2]، يُؤرّخ هذا النقش بالعام 90م[3]، فهو ينتهي بالقول: '' في السنة التاسعة(أيّ في العام 90م) من حكم الإمبراطور قيصر (دومتيانوس)(81– 96م) أوغسطس (جرمانيكوس)'' [4].

[1] Suetonius: Lives of the Caesars, Caligula, XL.

[2] محمد، محسن يوسف: التجارة الرومانيّة مع اليمن والهند والصين في العصر الإمبراطوري (27 ق.م- 330م)، أطروحة دكتوراه بإشراف: عبد المجيد حمدان، جامعة دمشق، 2018م، ص357- 360.

[3] نافتالي، لويس: الحياة في مصر في العصر الروماني، ص156.

[4] Young, G. K: Rome's Eastern Trade: International Commerce and Imperial Policy 31 BC– AD 305. London: Routledge, 2001, p43.

ويَظهر في هذه التعرفة أنواع عديدة من مُستخدمي الطريق بين كوبتوس(قفط) والبحر الأحمر مذكورة بالتوازي مع الضرائب المُخصّصة لكلّ صنف يستخدم الطريق. ومن الفئات التي ذكرتها تعرفة كوبتوس كان البغايا.

والحقيقة، أنّ قيمة الضريبة التي فُرضت على هؤلاء البغايا اللواتي كُنّ يعبرن بوابة قفط كان مرتفع جداً فبلغت(108) دراخمة[1]، مما يدلّ على أنّ عمل البغايا كان مربحاً بدرجة عالية، لذلك فُرضت عليهن تعرفة أعلى[2]، خاصّة أنّ منطقة عملهنّ كانت منطقة صحراوية ينشغل فيها الرجال بالعمل وبحراسة الطرق الصحراوية في الوقت الذي كان فيه قليل منهم يصطحب زوجاته معه، مما جعل من الخدمات التي تقدمها البغايا موضع طلب كبير[3].

وبلغ من شدّة الرقابة الحكومية الرومانية على عمل البغايا أنْ أعطت تراخيص يومية تسمح للعاهرة بالعمل ليوم واحد فقط، إذْ عُثر على ورقة بردي في صعيد مصر تحتوي تصريح أصدره اثنان من جباة الضرائب كُتب فيه: '' بيلياس (Pelaias) وسكراتون(Sokraton)، جُباة الضرائب، إلى العاهرة ثينابديلا(Thinabdella)، تحياتنا: نمنحك الإذن بممارسة الجنس مع من ترغبين في هذا المكان في اليوم الموضح أدناه. السنة (19)، اليوم الثالث من شهر فاوفي(Phaophi) (المُوافق لـ 11 تشرين الأول– 10 تشرين الثاني). سوكراتون بين سيمون(Simon)'' [4].

وفي الوقت الذي لا يذكر فيه هذا التصريح تاريخ أو مقدارها الضريبة التي يتوجَّب على المومس دفعها، فإنّ إيصال آخر يعود إلى مدينة طبية، يُؤرّخ بالسنة الأولى من حكم الإمبراطور نيرون، أي العام 54 م، يذكر أنّ مقدار الضريبة على البغايا كان (4) قطع دراخمة، فيُورد هذا الإيصال: '' باسيميس(Pasemis)، إلى سينبينمونثيس (Senpsenmonthes) أخت باسيميس، تحياتي: لقد تلقيت منك ضريبة على البغايا

[1] نافتالي، لويس: الحياة في مصر في العصر الروماني، ص157.

[2] Wallace-Hadrill. A: Rome's Cultural Revolution, Cambridge University Press, 2008, p 274.

[3] نافتالي، لويس: الحياة في مصر في العصر الروماني، ص161

[4] Knapp. R: op, cit, p 207.

في ميمنونيا(Memnonia)(طيبة) للسنة الأولى للإمبراطور نيرون، أربعة دراخمات. بتاريخ الخامس عشر من شهر فارموثي(Pharmouthi)(الموافق لـ 9 نيسان– 8 أيار)[1].

وفي دليل أثري أخر على الضرائب المفروضة على البغايا، يُورد قانون التعرفة الجمركية التدمرية، الذي يعود إلى العام 137 م أي إلى عهد الإمبراطور هادريان(Hadrian)(117– 138)[2]، فقرة تُشير إلى الضريبة المفروضة على المومسات، الذين وردن، في النصّ الآرامي من القانون تحت اسم" ز ن ي ت ا" أي الزانيات[3]. وحدّد النص الضريبي مقدار الضريبة بحسب الأجر التي تتقاضاها المومس، فإذا كانت تتقاضى على المعاشرة الواحدة مبلغ دينارِيوس أو أكثر، فإنها تدفع على مجموع عملها مبلغ دينارِيوس واحد. أما إذا كانت تتقاضى مبلغ (8) قطع آس، فإنها تدفع على مجموع عملها مبلغ (8) قطع آس، وإذا كانت تتقاضى مبلغ (6) قطع آس، فإنها تدفع على مجموع عملها مبلغ (6) قطع آس. ومع الأسف فإنّ القانون لا يُجدد إذا كانت هذه الضريبة على العمل اليومي أو الأسبوعي أو الشهري للمومس[4].

ويُلاحظ من خلال التعرفة الجمركية التدمرية أنّ الأسعار التي كانت تتقاضها البغايا لم تكن موحّدة بل كانت تبدأ بـ (6) قطع آس وتنتهي بدينار وقد يكون أكثر. وهذا يعتبر شاهد أخر على عدم تساوي البغايا في القيمة والمرتبة. كما يُلاحظ أنّ مقدار الضريبة الواردة في هذه التعرفة يتطابق مع ما أورده المؤرخ سويتونيوس بخصوص الضريبة التي فرضها الإمبراطور كاليغولا على البغايا[5].

---

[1] Knapp. R: op, cit, p 207.

[2] Mcginn. T. A. J: Prostitution, Sexuality and the Law in the Ancient Rome, Oxford University Press, Oxford, 1998, pp 282, 283.

[3] أحمد، علي صقر: القانون الضريبي في تدمر القديمة (دراسة لغوية- تاريخية)، مجلة جامعة البعث، المجلد (44)، العدد (4)، 2022م، ص 121.

[4] Matthews J. F: The Tax Law of Palmyra: Evidence for Economic History in a City of the Roman East, Journal of Roman Studies, No. 74, 1984, p 177.

[5] Suetonius: Lives of the Caesars, Caligula, XL.

ومن الأهمية بمكان القول، أنّ البغايا المستقلات شكّلن مُشكلة لجُباة الضرائب مُقارنةً بمن يمارسون الدعارة في بيوت الدعارة، ذلك أنّ هذه الأخيرة كان من السهل تسجيلها وفرض الضريبة عليها خاصّة أنّ مدير بيت الدعارة كان هو المسؤول عن دفع الضريبة وليس المُومس نفسها، في حين أنّ البغايا المستقلات كان بإمكانهم، في كثير من الأحيان الإفلات من دفع الضريبة[1].

ثامناً: نظرة المجتمع الروماني إلى البغاء والبغايا:

تطوي نظرة المجتمع الروماني إلى البغاء والبغايا الكثير من الظُلم الذي عانى منه فئة البغايا، لأنّ تلك النظرة كانت تكيل بمكيالين، إذْ أنه وفي الوقت الذي نظرت فيه بعض النخب السياسية والثقافية الرومانية إلى البغاء على أنّه ضرورة ونافع للمجتمع على اعتبار أنّه يُساهم في ضمان عفّة السيدات الرومانيات من خطر الوقوع في الزنا وفي حماية الشباب الروماني من الرذيلة، فإنّه وفي الوقت نفسه، قد نُظر إلى البغايا وكل من يعمل بتجارة البغاء كالقوادين على أنّهم فئة مُنحطّة لا يصلحون للقيام بأي عمل نظيف داخل المجتمع.

وتتجلى النظرة الإيجابية للمجتمع الروماني تجاه مهنة البغاء وممارسة الجنس خارج الزواج في مقطع أورده الشاعر هوراس نقلاً عن لسان السياسي الروماني كاتو الأكبر (Cato the Elder) (234- 149 ق.م) فرأى كاتو أنه لا يوجد سبب يمنع الشباب من التردد على بيوت البغاء طالما أنهم بعيدون عن النساء المُحصّنات. فأورد مُخاطباً أحد الشباب الذي صادفه وهو يخرج من بيت الدعارة: '' أحسنت يا سيدي. فبمُجرَّد أن تتضخَّم عروق الشهوة الكريهة، فمن الصواب أن يأتي الشباب إلى هنا(يقصد إلى بيت الدعارة)، وألا يحتكوا بزوجات الرجال الآخرين''[2].

ولكن يبدو أنّ الشاب أخذته نصيحة كاتو فكان من المُداومين على بيوت الدعارة، حيث صادفه كاتو وهو يخرج من بين الدعارة مرة أخرى؛ لذلك أنّبه بطريقة لا تخلو من

[1] Stumpp. B. E: op, cit, p 71.
[2] Horace: satires, I, 2, 31- 35.

الفكاهة، فقال له: '' أيُّها الشاب! لقد أثنيت عليك على أساس أنك تأتي إلى هنا من حين لآخر وليس على أساس أنك تعيش هنا''[1].

مصدر أدبي أخر يعكس هذه النظرة الإيجابية إلى مهنة البغاء، هو الشاعر بلاوتوس الذي شرّع للشباب الروماني ممارسة البغاء شريطة الابتعاد عن النساء المُحتشمات فأورد: '' لا أحد يدفعك بعيداً عن هناك (يقصد عن بيوت الدعارة)، ولا أحد يمنعك، إذا كان لديك المال، من شراء ما يُباع علناً (يقصد البغايا). لا أحد يمنع أي شخص من السير في الطريق العام(كنايةً عن البغايا)، طالما أنه لا يشقّ طريقه عبر الحقل المُسوَّج حوله، ما دُمت تُبقي نفسك بعيداً عن الزوجة والأرملة والعذراء والشباب والأطفال الأحرار، أَحِبَّ ما يحلو لك''[2].

وشارك أرتيميدروس أقرانه من المثقفين الرومان في نظرتهم إلى تردّد الشباب على بيوت الدعارة، فقال: '' ممارسة الجنس مع امرأة تعمل كعاهرة في بيت دعارة لا يعني إلا وصمة عار طفيفة ونفقات قليلة جداً''[3].

ونظر القانون الروماني بصورة إيجابية إلى مهنة البغاء، ذلك أن الدعارة لم تكن جريمة يُعاقب عليها القانون الروماني؛ لذلك جرى تشريعها وتنظيمها[4]، ونُظر إليه على أنه مهنة قانونية لا بل ضرورة مجتمعية[5]؛ لذللك وعلى الرغم من تهميش البغايا قانونياً إلا أنّ القانون الروماني لم يعاقبهنّ على ممارسة الدعارة[6].

وبالرغم من العدد الكبير للبغايا في المجتمع الرومانيّ، إلا أنّ الرومان نظروا إليهنّ من وجهة نظر اقتصادية بحتة، وجردوهنّ من كل المشاعر والأحاسيس، فلم يكونوا

[1] Horace: satires, I, 2, 31- 32.
[2] Plautus: Curculio, XXXII- XXXVII.
[3] Artemidorus: The interpretation of dreams, I, 78.
[4] مؤمن، علي مؤمن إدريس: الحياة الاجتماعية الرومانية خلال العهد الجمهوري (133- 27 ق.م)، رسالة ماجستير، بإشراف: عبد السلام محمد شلوف، جامعة بنغازي، 2010م، ص 60.
[5] Lundgren. A. K : op, cit, p24.
[6] López. R: op, cit, p166.

بنظر المجتمع والقانون أكثر من سلعة معروضة لكل من يرغب بها، وهذه النظرة تبدو بوضوح في كل الشواهد الأدبية سواء أكانت نصوص أدبية أمْ قانونية.

كانت نظرة المجتمع الروماني إلى البغايا والقوادين نظرة سلبية بل سوداء[1]، فكانوا في عيون المصادر الأدبية الرومانية كائنات شريرة وقذرة[2]. وعدّوا البغايا نساء متغطرسات ومتعجرفات[3]، وجشعات لا يهمهم إلا جمع المال من زبائنهنّ حتى لو كان بالاحتيال[4]. كما عدّ القانون الروماني البغايا نساء مُباحات لكل من يرغب بهنّ[5]؛ لذلك لذلك لم يكن يُسمح لهنّ بإبرام عقود زواج[6]، كما لم يُسمح لهنّ بالزواج من المواطنين الأحرار[7]، أو كتابة وصية أو الحصول على ميراث، ونُظر إليهم على أنهم سلعة عامّة[8]، وأنّ الضوابط المجتمعية من حب ومودة وأخلاق كانت أمور لا قيمة لها بالنسبة بالنسبة إليهم[9].

والواقع، أن المجتمع الروماني قَرَنَ بين البغايا وصِفة " العار"، هذه الصِفة التي ألصقها الرومان بكل من عمل في تجارة البغاء، ووضعوهم في خانة واحدة مع المصارعين والممثلين والموسيقيين والفنانين[10]. وعلى اعتبار أنّ كل من عمل

[1] Richardson. S. L: op, cit, p 2.
[2] Martial: Epigrams, I, 34, 8.
[3] Plautus: Truculentus, CLVII.
[4] Izquierdo. A. L : op, cit, p 36.
راجع كذلك الصفحة (12) من هذا البحث.
[5] Plautus: Curculio, XXXII- XXXVII.
[6] Mcginn. T. A. J; Prostitution, Sexuality and the Law in the Ancient Rome, op, cit, pp 93- 94.
[7] أحمد، أسامة فايز استقلال: البغاء بدافع الفقر في العصر البيزنطي الباكر، ص 54.
[8] Historia Augusta: The Life of Severus Alexander, XXXIV, 4.
[9] Mcginn. T. A. J; Prostitution, Sexuality and the Law in the Ancient Rome, op, cit, p 18.
[10] الهواري، رويدا عليوه: ألعاب الأطفال والموسيقى والرقص في شمال أفريقيا في العصر الروماني، مجلة كلية الآداب، جامعة الزقازيق، المجلد(47)، العدد(100)، 2022م، ص 397.

بالمصارعة في العصر الروماني كان من طبقة العبيد؛ لذلك فقد نظر الرومان إلى البغايا نظرتهم إلى العبيد، ونظروا إلى القوّاد على أنّه تاجر عبيد[1].

ومن الأهمية بمكان القول، أنّه لتمييز البغايا داخل المجتمع الروماني، فإنّه لم يكن يُسمح لهم بارتداء الملابس التي كان يرتديها النساء المُحترمات وربّات المنازل، بل كُنّ ملزمات بارتداء لباس خاصّ بهنّ كان غالباً لباساً شفافاً أو لباساً بألوانٍ لافتةٍ للنظر. ويُقدم الشاعر مارتيال شاهداً مهماً على نظرة الازدراء الروماني تجاه البغايا، فقال: '' أنت تعطي الفساتين القرمزية والبنفسجية لعاهرة سيئة السمعة. هل تودُّ أن تهديها هدية تستحقها؟! إذن أرسل لها توغا'' [2].

خاتمة:

تناول هذا البحث، بالدراسة، فئة مهمّة من فئات المجتمع الروماني، وهي فئة البغايا. ومن خلال الدراسة الأكاديميّة لمختلف جوانب حياة هؤلاء البغايا وطبيعة عملهنّ ومكانتهنّ، فإنّ هذا البحث المُتواضع، قد خَلُصَ إلى جُملة من النتائج أهمّها:

1- كانت مهنة البغاء من أكثر المهن انتشاراً في المجتمع الروماني، ذلك الانتشار مُثبت في المصادر الأدبية والآثرية.

2- تعدّدت المصطلحات التي استخدمها الرومان للإشارة إلى البغايا، تلك المصطلحات توافقت في أغلب الأحيان مع مكانة المُومس وحظوتها.

3- من الظلم القول أنّ كل البغايا مارسن مهنة البغاء بصورة طوعيّة، إذْ أثبتت المصادر أنّ هناك أسباب متعددة دفعت بعض النساء في العصر الروماني للعمل في مهنة البغاء،

[1] López. R : op, cit, p159.

[2] Martial: Epigrams, II, 39.

والتوغا التي ذكرها مارتيال هي عباءة بيضاء صوفية فضفاضة كان يرتديها مختلف طبقات المجتمع الروماني، وكان يتمّ تمييز الأشخاص حسب طبقاتهم في ارتداء التوغا من خلال الشرائط الملونة. انظر: زاهية، مضوي: المرأة في بلاد المغرب القديم، ص 300.

تلك الأسباب تراوحت بين فقر بعضهنّ وانتماء بعضهن الأخر إلى طبقة العبيد، أو لأنّ بعضهنّ وجدن أنفسهنّ مرميات في الشوارع منذ اللحظة الأولى لولادتهنّ.

4- لم يَعرف المجتمع الروماني نوعاً واحداً من البغايا، بل وُجد فئات مختلفة منهنّ. فوُجد المحظيات، ومومسات بيوت الدعارة، وبائعات الهوى وهنّ أدنى فئات البغايا. هذا التنوع في فئات البغايا كان بسبب اختلاف مكانتهنّ والمكان الذي يمارسن فيه مهنة البغاء والأجور التي يتقاضونها وغير ذلك من المعايير.

5- كان لمهنة البغاء في العصر الروماني، كغيرها من المهنّ، هيكلية وإدارة تضمن تحقيق تجارة منظّمة تُدر أرباحاً كبيرة. تلك الإدارة كان يقوم بالدور الأول فيها القوادون أو المشرفون على بيوت الدعارة. تلك البيوت التي كانت تنتشر انتشاراً كبيراً مما يدلّ على أنّ خدمات البغايا كانت مَوضع طلب كبير في المجتمع الروماني.

6- أدركت الحكومة الرومانية كمّ الأرباح الذي تحققه تجارة البغاء؛ لذلك سعت إلى تنظيمها من خلال فرض ضرائب على عمل البغايا. تلك الضرائب كانت، في أغلب الأحيان، تتوافق مع مقدار الأجر الذي تتقاضاه المومس على المُعاشرة الواحدة.

7- نَظَرَ المجتمع الروماني إلى البغايا وعملهنّ نظرة تكيل بمكيالين، ففي الوقت الذي تسامح فيه مع مهنة البغاء ورأى فيها ضرورة مجتمعية، إلا أنّه همّش البغايا وكل المنخرطين في مهنة البغاء، ونَظر إليهم نظرة ملؤها الاحتقار والازدراء.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر المُعرّبة:

1- الكتاب المُقدّس: الطبعة الكاثوليكيّة، دار الكتاب المُقدّس في الشرق الأوسط، بيروت، 1992م.

2- أرسطوطاليس: السياسة، ترجمه من الإغريقية إلى الفرنسية: بارتلمي سانتهلير، نقله إلى العربية: أحمد لطفي السيّد، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1947م.

3- أوفيد: مسخ الكائنات، نقله إلى العربية وقدّم له: ثروت عكاشة، راجعه عن الأصل اللاتيني: مجدي وهبي، ط3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1992م.

4- بلوتارك: تاريخ أباطرة وفلاسفة الاغريق، ترجمة: جرجيس فتح الله، المجلد الأول، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2010م.

5- هوراس: فنّ الشعر، ترجمة: لويس عوض، ط3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1988م.

ثانياً: المصادر الأجنبية:

1- Ammianus Marcellinus; Ammianus History (The Later Roman Empire) (AD 354-378). Translated by; Walter. W, Penguin,1986

2- Artemidorus: The interpretation of dreams, Translated by: Clinton Walker Keyes, Cambridge and London, Loeb Classical Library, 1928.

3- Clement of Alexandria: The Paedagogus, Translated by: Yonge. C. D, London, 1915.

4- Dio Cassius: The Roman History, Translated by: Ian Scott-Kilvert, Penguin Ltd, London, 1987.

5- Dio Chrysostom: Discourses, The Euboean Discours, Translated by: Cohoon. J. W, Cambridge: Harvard University Press, 1961.

6- Historia Augusta: The Life of Severus Alexander, http://penelope.uchicago.edu/Thayer/E/Roman/Texts/Historia_Augusta/, [Accessed 3rd May 2012- 31st March 2013].

7- Horace: Satires, Epistles, Odes, and Ars Poetica, Translated by: H. Rushton F. H, Loeb Classical Library, Cambridge and London, 1926.

8- Juvenal: The Satires, translated by: Kline. A. S.

http://www.poetryintranslation.com/klineasjuvenal.htm, [Accessed 3rd May 2012- 31st March 2013].

9- Livy; History of Rome, Translated by: Foster. B. O, Harvard University Press, Cambridge, 1919.

10- Lucian: The works of Lucian, complete with exceptions specified in the preface, Translated by: Fowler. H. W. and Fowler, F. G, Clarendon Press Oxford, 1949.

11- Martial: Epigrams of Martial, Translated by: Sullivan. J. P and Whigham. P, Berkeley, University of California Press, 1987.

12 - Petronius; Satyricon, Translated by: Heseltine. M, London 1913.

13- Plautus: The works of Plautus, translated by: Hutchinson, G. O, Cambridge University, Cambridge, 2006,

14- Suetonius: The Life of Horace, Translated by: Catharine Edwards, Oxford: Oxford University Press, 2000.

15- Suetonius: Lives of the Caesars, Translated by; Catharine Edwards, Oxford: Oxford University Press, 2000.

16- Tacitus: Annales, Translated by: Sir Peterson. W, revised by: Winterbottom. M, Loeb Classical Library, Cambridge and London,1914.

17- Terence: Heauton Timorumenos, Translated by: Thomas H. Corcoran. Cambridge: Harvard University Press, 1971-1972.

18- Ulpianus: On the Lex Julia et Papia, In The Enactments of Justinian, The Digest or Pandects,

ثالثاً: المراجع العربية:

1- أحمد، أسامة فايز استقلال: السقوط في الوحل نجاة من قسوة الحرمان (البغاء بدافع الفقر في العصر البيزنطي الباكر)، مجلة وقائع تاريخية، عدد (34)، الجزء الأول، كانون الثاني، 2021م.

2- أحمد، علي صقر: القانون الضريبي في تدمر القديمة (دراسة لغوية- تاريخية)، مجلة جامعة البعث، المجلد (44)، العدد (4)، 2022م.

3- أنديشة، أحمد محمد والقماطي، حميدة: الأسرة الرومانية زمن الإمبراطور أوغسطس 27ق.م- 14م، العدد الثاني، مجلة كلية الآداب، جامعة مصراته، 2014م.

4- حمدان، عبد المجيد: العبيد عند الرومان خلال القرنين الثاني والأوّل قبل الميلاد، مجلّة دراسات تاريخيّة، العددان(117- 118)، كانون الثاني- حزيران، دمشق، 2012م.

5- ددلي، دونالدر: حضارة روما، ترجمة: فاروق فريد وجميل يواقيم الذهبي، مراجعة: محمد صقر خفاجة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 1979م.

6- دقماق، لمى: النقود البيزنطية في سورية (330- 634م)، أطروحة دكتوراه، بإشراف: عبد المجيد حمدان، جامعة دمشق، 2009م.

7- الروبي، آمال محمد: مظاهر الحياة في مصر في العصر الروماني اجتماعياً واقتصادياً وإدارياً، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1975م.

8- زاهية، مضوي: المرأة في بلاد المغرب القديم منذ بداية العصور التاريخية إلى غاية نهاية الاحتلال الروماني، أطروحة دكتوراه، بإشراف: عليلي محمد وقفاف البشير، جامعة ابن خلدون- تيارت-، الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، 2023م.

9- فارس، دعاس: مكانة الأطفال في مجتمع بلاد المغرب القديم (من بداية العصور التاريخية إلى نهاية الاحتلال الروماني لبلاد المغرب)، أطروحة دكتوراه، بإشراف: محمد رشدي جرايه، جامعة الشهيد حمّه لخضر الوادي، الجزائر، 2020/ 2021م.

10- كيوان، خالد: الديناريوس الروماني (نشأة وتطوراً)، مجلة جامعة دمشق، المجلد (43)، العدد الأول، 2018م.

11- محمد، محسن يوسف: التجارة الرومانيّة مع اليمن والهند والصين في العصر الإمبراطوري (27 ق.م- 330م)، أطروحة دكتوراه، بإشراف: عبد المجيد حمدان، جامعة دمشق، 2018م.

12- محمد، محسن يوسف: رعاية الأطفال الرُضَّع في العصر الروماني (27 ق.م- 200م)، مجلة جامعة العبث، المجلد (44)، العدد (8)، 2022م.

13- المعجم الوجيز، معجم اللغة العربية، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، دار التحرير للطباعة والنشر، القاهرة، 1989م.

14- مؤمن، علي مؤمن إدريس: الحياة الاجتماعية الرومانية خلال العهد الجمهوري (133- 27 ق.م)، رسالة ماجستير، بإشراف: عبد السلام محمد شلوف، جامعة بنغازي، 2010م.

15- نافتالي، لويس: الحياة في مصر في العصر الروماني (30 ق.م- 284م)، ترجمة وتعليق: آمال الروبي، مراجعة: محمد حمدي إبراهيم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، 1997م.

رابعاً: المراجع الأجنبية:

1- Adams. J. N: Words for Prostitute' in Latin, Rheinisches Museum fur Philologiea, No. 126, 1983.
2- Bagnall. R. S: Egypt in Late Antiquity, Princeton University Press, Princeton, New Jersey, 1993.
3- Berg. R, Neudecker . R: The Roman Courtesan, Archaeological reflections of a literary topos, Acta Instituti Romani Finlandiae, Roma, 2018.
4- Bunson. M: Encyclopedia of the Roman Empire, New York, 2002.
5- Evans. K: War, woman and children in ancient Rome. London: Routledge, 1991.
6- Fenton. E: Prostitution as Labor in Imperial Roma, Studies in Mediterranean Antiquity and Classics, vol. 1, Iss. 1 Art. 3, 2007.
7- González. H, Pastor. S: Prostitución y matrimonio en Roma? Uniones de hecho o de derecho?", Iberia, No. 8, 2005.
8- Gowland. R, and others: On the Brink of Being: Re-evaluating Infanticide and Infant Burial in Roman Britain, Journal of Roman archaeology supplementary series, No. 96.
9- Izquierdo. A. L: La Prostitución En Roma En El Siglo I D.C, Trabajo De Fin De Grado, Supervisor: José Luis Cañizar Palacios, Facultad De Filosofía Y Letras, Universidad De Cádiz, 2021.
10- Knapp. R: invisible romans, Prostitutes, outlaws, slaves, gladiators, ordinary men and women.… the Romans that history forgot, Profile Books Ltd, London, 2011.
11- López. R: "El Oficio Más Antiguo Del Mundo". Prostitución Y Explotación Sexual En La Antigua Roma, Revista de Estudios de las Mujeres, Vol. 4, 2016.
12- Lundgren. A. K: The Pastime of Venus, An Archaeological Investegation Of Male Sexuality And Prostitution In Pompeii, Master Thesis, Faculty Of Humanities, University Of Oslo, 2014.

13- Matthews J. F: The Tax Law of Palmyra: Evidence for Economic History in a City of the Roman East, Journal of Roman Studies, No. 74, 1984.
14- Mcginn. T. A. J: Prostitution, Sexuality and the Law in the Ancient Rome, Oxford University Press, Oxford, 1998.
15- Mcginn. T. A. J: The Economy Of Prostitution In The Roman World, the university of Michigan press, 2004.

16- McLaughlin. R; The Roman Empire and the Indian Ocean, Pen & Sword Military, Great Britain, South Yorkshire, 2010.
17- Merlin. A : Le temple d'Apollon à Bulla Regia. Paris, 1908.
18- Naselli. D. G: Prácticas sexuales en el Imperio Romano: amantes y clientes, Huellas de la Historia, núm. 34, año. 3, Julio, 2012.
19- Richardson. S. L: The Brothel of Pompeii Sex, Class, And Gender at The Margins of Roman Society, Cambridge University Press, Cambridge, 2009.
20- Strong. A: Prostitutes and Matrons in the Roman World. Cambridge: Cambridge University Press, 2016.
21- Stumpp. B. E: Prostitution in der römischen Antike, Akademie Verlag, Berlin, 1998.
22- Trimble. J; The Zoninus Collar and the Archaeology of Roman Slavery, American Journal of Archaeology, Vol. 120, No. 3, July, 2016.
23- Varone, A: Erotica pompeiana: love inscriptions on the walls of Pompeii. Translation by Ria P. Berg. Rome, 2002.
24- Viñuelas. P. S: Marginadas: la realidad de ser prostituta y esclava en la Roma Imperial, Texas A&M University, 2017.
25- Wallace-Hadrill. A: Rome's Cultural Revolution, Cambridge University Press, 2008.
26- Young, G. K: Rome's Eastern Trade: International Commerce and Imperial Policy 31 BC– AD 305. London: Routledge, 2001.
27- Zanuy. Q: La interdicción lingüística en las denominaciones latinas para «prostituta», Revista de Estudios Latinos, Vol. 4. No. 1, 2013.

أثر العوامل الاقتصادية والثقافية للأسرة السورية على زواج القاصرات

دراسة ميدانية في محافظة دير الزور

الطالبة: هيا فواز عايد طالبة دكتوراه

في كلية الآداب قسم علم الاجتماع جامعة دمشق

إشراف الدكتورة: أميرة عرقسوسي أستاذ مساعد في قسم علم الاجتماع

الملخص البحث:

تعد ظاهرة زواج القاصرات من الظواهر الاجتماعية التي يجب مواجهتها لأنها تتعلق بالمرأة التي تعتبر نصف المجتمع لذلك بدأت هذه الظاهرة تشكل خطر عليها وعلى مجتمعها لأنها انتشرت بشكل ملحوظ في أغلب المجتمعات سواء كانت هذه المجتمعات متقدمة أو متخلفة لذلك فإن الهدف الرئيسي للبحث يتمثل في ما أثر العوامل الاقتصادية و الثقافية للأسرة السورية على زواج القاصرات في الريف و المدينة واعتمدت الباحثة على المنهج الوصفي التحليلي، عينة البحث كانت منظمة من قرية صغيرة تسمى(مو حسن) في ريف دير الزور وكذلك من (حي الثورة) المتواجد في مدينة دير الزور وبلغ حجم العينة/٢٠/ فتاة قاصرة متزوجه وتم توزيع الاستبانة عليهن. **وكانت أهم النتائج التي توصل إليها البحث:** 1-إن النسبة الغالبة من أفراد مجتمع البحث هن من أبناء الريف تتراوح أعمارهن ما بين (14-16) سنة. 2-من الأسباب التي دعت إلى زواج القاصرات هو الحاجة المادية لأسرهن بسبب تدني المستوى الاقتصادي للأسرة وعدم قدرتهم على تحمل الأعباء الملقاة على عاتقهم. 3- إن النسبة الغالبة من أفراد مجتمع البحث أكدوا أن للعادات والتقاليد الأسرية كان لها دور في زيادة ظاهرة زواج القاصرات.

كلمات مفتاحية: زواج القاصرات، الأسرة، الريف، المدينة.

Summary:

The phenomenon of underage marriage is one of the social phenomena that must be confronted because it relates to the woman who is considered half of the society. Therefore, this phenomenon began to pose a threat to her and her society because it has spread significantly in most societies, whether these societies are advanced or backward. Therefore, the main objective of the research is represented in the impact of the factors The economic and cultural aspects of the Syrian family depend on the marriage of minors in the countryside and the city, and the researcher relied on the descriptive analytical method. /20/ A married minor girl, and the questionnaire was distributed to them. The most important findings of the research were: 1- The majority of the members of the research community are rural people, whose ages range between (14-16) years. 2- Among the reasons that led to the marriage of minors is the material need of their families due to the low economic level of the family and their inability to bear the burdens placed upon them. 3- The majority of the members of the research community confirmed that family customs and traditions had a role in increasing the phenomenon of marriage.

Keywords: underage marriage, family, rural, city.

مقدمة

للزواج أهمية كبيرة فهو سنة الله في خلقه وهو من أسمى النظم الاجتماعية التي يتحقق به الاستقرار النفسي والاجتماعي فالغاية الأساسية من الزواج هو الاستقرار النفسي والروحي لهذا الرباط المقدس إلا أن الزواج كنظام تعرض لبعض التحولات والتغيرات التي أدت إلى بروز طائفة من الظواهر منها زواج القاصرات التي تمثل مشكلة خطيرة لها آثارها على القاصر نفسها وعلى أسرتها ومجتمعها، فظاهرة زواج القاصرات ليست حديثة وإنما قديمة منذ قدم العصور ولكن التغيرات التي تعرض لها المجتمع السوري فقد أدت إلى بروز تلك الظاهرة بشكل ملحوظ فقد ارتبطت بأسباب مختلفة منها اقتصادية واجتماعية وثقافية ويرجع ذلك إلى أن الزواج بسن صغير لضمان عدم عنوسة الفتاة والحفاظ على شرف الأسرة وسمعة العائلة وكذلك التخفيف من الأعباء المادية وكل ذلك يدل على التخلف وعدم مراعاة القيمة الإنسانية للفتاة التي يجب أن نعطيها الرعاية والاهتمام لتكون مؤهلة لأداء مسؤولية مهمة في بناء الأسرة وهذا الدور المهم تجهله التقاليد العشائرية.

أولًا– مشكلة البحث:

تعد ظاهرة زواج القاصرات من الظواهر الاجتماعية الموجودة في أغلب المجتمعات منذ القدم فقد انتشرت في الآونة الأخيرة بشكل ملحوظ في المجتمع السوري. لذلك فإن دراسة هذه الظاهرة في الوقت الراهن بسبب ارتفاع نسبتها التي تبدء بتدني المستوى الاقتصادي للأسرة وتوقف الموروث الثقافي الذي ينظر إلى الفتاة على إنها هم يسعى المجتمع للتخلص منها، ثم غياب الوعي الناجم عن الأمية و كذلك الفتاوي الدينية التي تشرع لهذا الزواج ولكنهم ليسوا مدركين إلى أن الفتاة القاصر ليست مؤهلة بيولوجياً ونفسياً واجتماعياً لتحمل مسؤولية بيت و زوج و تنشئة أطفال فقد يترتب على ذلك آثار نفسية واجتماعية

وصحية على الفتاة القاصر لأنها لا تصلح أن تكون أماً، وكل ذلك يرجع إلى سوء الأوضاع داخل الأسرة السورية جعل الأهل يضطرون لتزويج بناتهن القاصرات من أي شخص، من أجل الإنفاق عليهن، وذلك عن طريق المحكمة الشرعية أو عرفياُ، خارج المحكمة.

ثانياً-أهمية البحث:

تتمثل أهمية البحث النظرية منها والعملية في الآتي:

1- تتضح أهمية البحث الحالي بأنه يعالج موضوعاً من الموضوعات المهمة في ميادين علم الاجتماع التخصصي وهو علم الاجتماع الأسري.

2- تكمن أهمية البحث الحالي كونه يستهدف شريحة مهمة تمثل ركن من أركان الأسرة في المستقبل والآثار التي يتركها هذا الزواج على الفتاة القاصر و على المجتمع.

3- قد تفيد مخرجات البحث الحالي في وضع برامج علمية مدروسة بشكل دقيق من قبل المؤسسات الاجتماعية المسؤولة عن شؤون الأسرة من أجل زيادة الوعي والمعرفة الكافية لدى الأسرة السورية بأضرار زواج الفتاة القاصر على نفسها و على مجتمعها.

ثالثاً-أهداف البحث:

1- التعرف على الظروف الاقتصادية للأسرة المؤدية إلى انتشار ظاهرة زواج القاصرات في الريف و المدينة.

2- التعرف على المستوى التعليمي للأسرة ودوره في انتشار ظاهرة زواج القاصرات في الريف و المدينة.

3- التعرف على دور العادات والتقاليد في انتشار ظاهرة زواج القاصرات في الريف و المدينة.

رابعاً- أسئلة البحث:

إن جوهر البحث الراهن ينطلق من التساؤل الرئيسي الآتي:

- ما أثر العوامل الاقتصادية و الثقافية للأسرة السورية على زواج القاصرات في الريف و المدينة؟

ويتفرع عن هذا التساؤل عدة تساؤلات فرعية تتمثل في الآتي

1- ما تأثير تدني المستوى الاقتصادي للأسرة في انتشار ظاهرة زواج القاصرات في الريف والمدينة؟

2- ما تأثير تدني المستوى التعليمي للأسرة في انتشار ظاهرة زواج القاصرات في الريف و المدينة؟

3- ما مدى ارتباط العادات والتقاليد في انتشار ظاهرة زواج القاصرات في الريف و المدينة؟

خامساً- حدود البحث:

1- الحدود الزماني: تم إجراء البحث منذ شهر 1/1/2023 ولغاية شهر 1/3/2023

2- الحدود المكاني: تم تطبيق البحث في مدينة دير الزور وريفها: (حي الثورة) المتواجد في مدينة دير الزور وكذلك قرية (مو حسن) المتواجدة في ريف دير الزور.

3- الحدود البشري: تم تطبيق أداة البحث على عينة من الفتيات القاصرات المتزوجات.

سادساً–مصطلحات البحث و تعريفاته الإجرائية:

1–الزواج:

المصطلح اللغوي:

معناه الاقتران والازدواج، يقال زوج الشيء، وزوجه إليه أي قرنه به، و تزوج القوم، تزوج بعضهم بعضاً، والمزاوجة و الازدواج بمعنى واحد[1].

المصطلح الاصطلاحي:

عقد بين رجل و امرأة تحل له شرعاً غايته إنشاء رابطة للحياة الزوجية المشتركة والنسل[2].

2–القاصرات:

المصطلح اللغوي:

بكسر الصاد أي قصر عن الشيء إذا تركه عجزاً، عجز و كف عنه وأيضاً تقاصر عن الأمر، والقاصر الفتاة التي لم تبلغ سن الرشد[3].

المصطلح الاصطلاحي:

بأنه القاصر التي لم تبلغ سن الرشد فتوضع تحت حماية ورعاية وصي[4].

3–زواج القاصرات:

التعرف الإجرائي:

هو زواج الفتيات القاصرات اللواتي لم يبلغن السن القانوني لزواج.

---

[1] مصطفى، إبراهيم: **معجم الوسيط**، مطبعة مصر للنشر والتوزيع، القاهرة، 1960م، ص407.

[2] الصائغ، نبيل: **موسوعة الأحوال الشخصية لجميع المذاهب و الأديان**، دار الفكر لعربي للنشر والتوزيع، القاهرة، 1997م، ص13.

[3] إبراهيم، ناصر: **أسس التربية**، دار عمان للنشر والتوزيع، عمان، 1989م، ص 704..

[4] أحمد، عمر: **معجم الوسيط**، مكتبة الشروق الدولية للنشر والتوزيع، بيروت، 2004م، ص 738.

سابعاً– الإطار النظري للبحث:

أولًا– الزواج المبكر في ضوء التغيرات الاقتصادية:

إن التغيرات الاقتصادية تتحرك في اتجاهات سريعة، لكن التغيرات الاجتماعية بما فيها من عادات وقيم أخلاقية وتقاليد متوارثة لا تتماشى مع التطور الاقتصادي الذي يشهده المجتمع. فحتى الآن نلاحظ بعض الأسر تعطي أهمية للدفاع الاقتصادي لأنه محرض أساسي للزواج المبكر، إذ تسعى الأسر من ورائه لكسب الأيدي العاملة وخاصة في الريف، فتهتم بعض الأسر بتزويج أبنائهم في سن مبكر ليدخلوا إلى أسرهم مورداً جديداً من موارد الرزق. بينما نرى الأمر مختلفاً في مجتمعات المدينة التي اهتمت بالتعليم وخاصة تعليم الإناث والقضاء على الأمية، فلم يكن هناك أهمية للزواج المبكر[5].

ثانياً–العوامل الاقتصادية التي تسهم في تشجيع الزواج المبكر في سورية:

1– الرغبة في الحصول على اليد العاملة: تهتم بعض الأسر في المجتمع العربي السوري بتزويج أبنائها في سن مبكرة لمبررات اقتصادية كالرغبة في تحسين الإنتاج وزيادته بإنجاب اليد العاملة. فكثيراً ما تلجأ بعض الأسر الريفية عند تزويج أبنائها من اختيار الزوجة القادرة على القيام بالأعمال الزراعية إلى جانب أعمالها البيتية، إذ يكون الاختيار قائماً على أساس مصالح المزرعة قبل أن يكون الاختيار قائماً على أساس الحب والاختيار الذاتي لكلا الزوجين[6].

لكن رغم كل التطورات لم تنعدم الرغبة عند بعض الأسر في الزواج المبكر والإنجاب المبكر وخاصة إنجاب الذكور، كي يكونوا مورد رزق لهم، وعاملا هاماً في تحسين الوضع المعيشي للأسرة وإنعاشها.

مما يدل على استمرار في تناقل الإرث القائم على العادات والتقاليدية والمفاهيم القديمة التي تشجع الزواج المبكر على أساس المنفعة المادية، وتحسين الوضع المادي للأسرة.

---

[5] قادري، إسراء: **أثر العوامل الاجتماعية الأسرية في الزواج المبكر ومنعكساته**، رسالة ماجستير، إشراف: أديب عقيل، جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سورية، 2004م، ص27.

[6] مسلم، عدنان: **دراسات في علم الاجتماع الريفي**، دار النهضة العربي للنشر والتوزيع، دمشق، 1988م، ص42.

2- الرغبة في تحسين الوضع المادي: يعمد الكثير من الآباء إلى تزويج فتياتهم وهن في سن مبكرة رغبة بتحقيق مكاسب مالية من خلال الاقتران بشاب ثري. وربما يكون قرينها رلاً هرماً يفوقها في السن أكثر من عشرين سنة، وكثيراً ما تحصل هذه الحالات في كل المجتمعات ولكنها تختلف بشدة ما بين الريف والحضر، وبين مجتمع وآخر.

نستنتج من هذه الحالة أن طمع الآباء وحبهم للمال يجعلهم يضحون ببناتهم البريئات اللواتي لم يكن لهن أية مشاعر حب لأزواجهن. وكثيراً ما يحصل العكس أي نجد الفتاة هي ذاتها تفضل الاقتران برجل كهل ثري تخلصاً من الفقر الذي تعيشه.

3- تخفيف الأعباء المادية: كثيراً ما تلجأ بعض الأسر السورية إلى تزويج بناتها في سن مبكرة للتخفيف من وحدة الأعباء الملقاة على عاتقهم، خاصة إذا كان في الأسرة الواحدة أكثر من ثلاث أو أربع فتيات في سن الزواج، ففي هذه الحالة يكون الأهل أكثر تساهلاً في زواج بناتهم في سن مبكرة.

إن الذين يتميزون بثقافة ووعي متدينين لا يؤمنون كثيراً بتنظيم النسل، وبالتالي فإن هؤلاء يعيلون أسرة كبيرة تثقل كاهلهم متطلبات أطفالهم الحياتية، لذلك نجد الأب و الأم أكثر تساهلاً في تزويج النبات في سن مبكرة[7].

ثالثاً- العلاقة بين الزواج المبكر و التعليم:

لقد لوحظ في الآونة الأخيرة وجود بعض الأسر التي لا تعير أهمية للتعليم لأولادها أو بناتها، ما أثر وبصورة سلبية على حياتهم الاجتماعية و حتى الاقتصادية، حيث أن الأولاد أو البنات الذين لا يكملون دراستهم العلمية في بعض مجالاتها يكونون فاقدين للوعي الفكري، ويعاني من وجود ضعف مادي و معنوي ما أثر في الزواج المبكر، حيث أن الشاب عندما يتزوج في سن مبكرة وهو لم يكمل الثامنة عشرة فهذا يؤثر في حياته المادية والعلمية لكونه وبكل تأكيد لم يكمل حتى الدراسة الإعدادية، وعليه فليس لديه أي وعي فكري أو اجتماعي لبناء الأسرة المتكاملة وخاصة عندما تكون الزوجة تعاني من نفس المشاكل، حيث أنها قاصرة لم تكمل حتى السادسة عشرة وهي في مقتبل الحياة ولم

[7] أبو راس، أحمد يوسف: **الزواج المبكر وأثره في الحياة الزوجية**، رسالة ماجستير، إشراف: عدنان مسلم، جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سورية، 1998م، ص719.

تكمل الدراسة الابتدائية ففي هذه الحالة كيف تستطيع بناء أسرة متكاملة، وتربية أجيال يطورون المجتمع، وذلك بسبب قلة الوعي الحاصل بين الزوج والزوجة لصغر سنهم عند الزواج ما يؤدي إلى حصول تفكك أسري سريع بعد الزواج.

كما لوحظ بأن حالات الانفصال للقاصرات في تزايد مستمر وذلك لوجود ضعف في الوعي، وعدم الانسجام الحاصل بين الشاب والشابة وهم في أعمار مبكرة[8].

رابعاً- سلبيات الزواج المبكر (أضراره):

إن الزواج المبكر يتسبب في العديد من المشكلات والأضرار الكبيرة داخل المجتمع، ومن أهم تلك الأضرار:

1-المشكلات القانونية: تنتج تلك المشكلات من خلال عدم تسجيل الزواج لدى الجهات الرسمية، وذلك بسبب عدم سماح القانون للفتاة بالزواج في عمر صغير، وبالتالي تلجأ الأسر إلى الزواج العرفي.

2- المشكلات النفسية: يتسبب الزواج المبكر في كثير من المشكلات النفسية لدى الفتاة، نتيجة حرمانها من أن تعيش المراحل الطبيعية في حياتها وتحملها مسؤوليات كبيرة، قد لا يكون لديها القدرة على تحمل في هذا السن المبكر.

3- المشكلات الاجتماعية: يتسبب الزواج المبكر في كثير من المشكلات الاجتماعية نتيجة عدم خبرة الفتاة القاصر في تنشة الأطفال، وتلك المشكلات التي تحدث خلل في المجتمع كوجود ظاهرة أطفال الشوارع والأطفال بلا مأوى نتيجة عدم قدرة الأم على تربية أطفالها[9].

4- المشكلات الصحية: يتسبب الزواج المبكر الكثير من الأمراض الجسدية نتيجة عدم الفهم الكامل لمفهوم العلاقات الزوجية، أهمها الإجهاض حيث تكون الزوجة الصغيرة

---

[8] خضر، رزان مهيوب: **الزواج الفتيات المبكر**، رسالة ماجستير، إشراف: هناء برقاوي، جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سورية، 2017م، ص55.

[9] القادري، حسنية: **الزواج المبكر والتنمية**، دار الفكر العربي للنشر والتوزيع، صنعاء، 2005م، ص69.

عرضة للإجهاض و فقدان الحمل حيث يقول الأطباء أن عدم اكتمال النمو الجسمي للصغيرة وعدم قدرة جسمها على حمل الجنين وم اكتمال نمو حوضها تكون أسباباً رئيسية للإجهاض وفقدان الحمل

5- المشاكل الزوجية: قلة خبرة الزوجة الصغيرة وعدم إدراكها لواجبات وأعباء الحياة الزوجية يؤدي إلى مشاكل زوجية دائمة، و لذلك تنتهي الحياة الزوجية غير المستقرة غالباً بالطلاق[10].

ثامناً- الدراسات السابقة:

1-الدراسات المحلية:

دراسة نهلة ناظم ياغي عام (2018)، بعنوان: ظاهرة زواج القاصرات في ظل الأزمة السورية، بحث محكم.

هدف البحث إلى:

1- التعرف على أسباب زواج القاصرات في ظل الأزمة السورية.

2- التعرف على أشكال زواج القاصرات في المجتمع السوري خلال الأزمة السورية.

3- التعرف على الآثار الناجمة عن هذا الزواج على الفتاة القاصر وعلى المجتمع.

4- التعرف على دور المؤسسات والجمعيات المعنية برعاية القاصرات.

كما اعتمدت الباحثة في الإطار المنهجي للبحث على المنهج الوصفي التحليلي و العينة التي اختارها الباحث قصدية تتألف من (62) قاصراً متزوجه والأدوات المستخدمة هي الاستبانة.

وقد توصل البحث إلى مجموعة من النتائج أهمها:

[10] خضر ، مرجع سابق، ص41.

1- إن غالبية الفتيات تزوجن في سن ما بين (12-13) سنة وهذا يعود إلى خوف الأهل على بناتهن من مشاكل تمس الشرف وللتخفيف من الأعباء المادية وبخاصة في العائلات ذات العدد الكبير من الأولاد.

2- إن الفرق العمري بين الزوج والفتاة القاصر أكثر من عشر سنوات ويعود ذلك إلى ضمان الأهل قدرة الزوج على تحمل عبء الإنفاق عليها.

3- زواج القاصرات يؤثر على الحالة الصحية للفتاة فهي تعاني من اضطرابات في النمو ناجمة عن عمليات الحمل والولادة وكذلك آثار نفسية إذ تعاني من القلق والخوف وانعدام الثقة.

4- المستوى التعليمي للفتاة كان أمياً و يعود ذلك إلى فكرة لدى الأهل أن مهمة الفتاة في النهاية هي تربية الأولاد والقيام بالواجبات المنزلية.

2-الدراسات العربية:

دراسة حيدر جواد كاظم المكصوصي عام(2022)، بعنوان: زواج القاصرات في مدينة البصرة، الأسباب، الآثار، بحث محكم.

هدف البحث إلى:

1- التعرف على معدل ظاهرة زواج القاصرات في مدينة البصرة.

2- تحديد أهم الأسباب التي أدت إلى حدوث ظاهرة زواج القاصرات في مجتمع الدراسة.

3- معرفة آثار هذه الظاهرة وتأثيراتها المختلفة على المتزوجات في مجتمع الدراسة.

كما اعتمد الباحث في الإطار المنهجي للبحث على المنهج الوصفي التحليلي و العينة التي اختارها الباحث قصدية تتألف من (634) قاصراً متزوجه والأدوات المستخدمة هي الاستبانة

وقد توصل البحث إلى مجموعة من النتائج أهمها:

1- من أسباب زواج القاصرات فقد تبين أن الأسباب الاجتماعية وتصدر سبب (العادات والتقاليد) في المرتبة الأولى.

2- كان لزواج القاصرات آثار اجتماعية وصحية أثرت على المرأة والمجتمع بصورة واضحة وكبيرة وقد تصدر (العنف) في المرتبة الأولى.

3-الدراسات الأجنبية:

دراسة Uecker, Jeremy, E, .$ stoke Charles (2008)

هدف الدراسة إلى تقييم مستوى انتشار زواج القاصرات في الولايات المتحدة الأمريكية. واستخدمت منهج المسح الاجتماعي، واعتمدت على أداة الاستبيان، وتم التطبيق على عينة من المراهقين. وتوصلت إلى أن 25% من النساء، و16% من الرجال يتزوجون قبل سن ال 18عام وإن هذا الزواج يختلف وفقاً لعدد من السمات الشخصية، وإن الأفراد الذين يتزوجون قبل هذا السن من أسر فقيرة.

التعقيب على الدراسات السابقة:

يتشابه البحث الحالي مع الدراسات السابقة في الآتي:

- يتشابه البحث الحالي في بعض المتغيرات المدروسة كمتغير زواج القاصرات.
- يتشابه البحث الحالي مع معظم الدراسات السابقة من حيث المنهج المعتمد في البحث وهو المنهج الوصفي التحليلي.
- يتشابه البحث الحالي مع الدراسات السابقة من حيث الاداة المستخدمة وهي الاستبانة.

يختلف البحث الحالي عن الدراسات السابقة من خلال الآتي:

- الاختلاف في المجالات الزمانية والمكانية.

تاسعاً– منهج البحث إجراءاته:

1– منهج البحث:

تم الاعتماد في البحث الحالي على المنهج العلمي القائم على الوصف والتحليل، باعتباره يدرس الظاهر كما توجد في الواقع ويهتم بوصفها وصفًا دقيقًا باتباع خطوات منهجية قائمة على طرائق وأدوات علمية من أجل الإجابة عن التساؤلات بمبررات علمية كمية وكيفية وتحقيق أهداف البحث للوصول إلى نتائج دقيقة.

2–طرائق البحث:

تم الاعتماد على طريقة المسح الاجتماعي "هي عبارة عن دراسة للظروف الاجتماعية التي تؤثر في مجتمع معين – سواء كان مجتمع الجيرة أو القرية أو المقاطعة أو الدولة أو الأمة – بقصد الحصول على بيانات و معلومات كافية يمكن الاستفادة منها في وضع وتنفيذ مشروعات للإصلاح الاجتماعي"[(11)].

3–أدوات الدراسة:

أعتمد البحث الحالي على الاستبانة كأداة لجميع البيانات اللازمة عن الظاهرة المدروسة.

وجاءت نتائج اختبار ثبات وصدق أداة الدراسة:

استخدمت الباحثة اختبار (ألفا كرونباخ) لقياس مدى ثبات وصدق أداة الدراسة حيث بلغت قيمة متغيرات الدراسة (a = 0.70)، وهي نسبة جيدة كونها أعلى من النسبة المقبولة (0.60). وجاء صدق أداة الدراسة من الجذر التربيعي لقيمة الثبات (0.84) وهي نسبة مرتفعة للصدق الذاتي لأداة الدراسة. وتؤكد الباحثة كل ما سبق في الجدول رقم (1) بأن مجموع نسبة متغيرات الدراسة لثبات وصدق أداة الدراسة أعلى من النسبة المقبولة. لذلك أداة الدراسة صالحة للتطبيق

[(11)] إبراش، أحمد: **مناهج البحث الاجتماعي**، دار الفكر العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، 2008م.

الجدول (1) اختبار ثبات وصدق أداة الدراسة

رقم السؤال	متغيرات الدراسة	قيمة ثبات ألفا كرونباخ	قيمة صدق ألفا كرونباخ
1	البيانات الأساسية	0.79	0.84
2	الأسباب التي دعت إلى زواجك المبكر	0.69	
3	أثرت العادات والتقاليد الأسرة في زوجك المبكر	0.66	
4	ارتبط تدنى المستوى الاقتصادي للأسرة في زوجك المبكر	0.64	
	مجموع المتغيرات	**0.70**	**0.84**

4- المجتمع الأصلي للبحث والعينة:

تعد الفتيات القاصرات المتزوجات هن المجتمع الأصلي والذي حددت على أساسها عينة البحث.

تم اختيار العينة بطريقة منظمة من قرية صغيرة تسمى(مو حسن) في ريف دير الزور وكذلك من (حي الثورة) المتواجد في مدينة دير الزور وبلغ حجم العينة/٢٠/ فتاة قاصرة متزوجه و الأمر الذي ساعد الباحثة على تمثيل المجتمع الأصلي للبحث بمدينة دير الزور وريفها.

عاشراً- عرض نتائج البحث الميداني وتفسيرها:

1- البيانات الأساسية:

الجدول (2) تصنيف عينة الدراسة حسب متغير مكان الإقامة للزوجة القاصر

المتغير	الفئة	العدد	النسبة المئوية
الإقامة	مدينة	6	%30
	ريف	14	%70
	إجمالي	**20**	**%100**

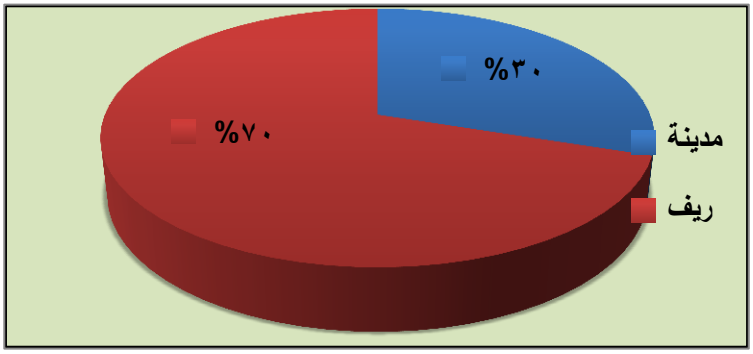

الشكل (1) تصنيف عينة الدراسة حسب متغير مكان الإقامة للزوجة القاصر

تلاحظ الباحثة من الجدول(2) والشكل (1) لمتغير مكان الإقامة فقد تضمنت عينة الريف (14)، مفردة من أفراد عينة الدراسة نظراً لنسبة تواجدهم الأعلى في الريف من نسبة الزوجات القاصرات وجاءت النسبة المئوية من إجمالي عينة الدراسة لفئة الريف (70%). وتضمنت عينة المدينة (6) مفردات من أفراد عينة الدراسة نظراً لنسبة تواجدهم الأدنى في المدينة من نسبة الريف وجاءت النسبة المئوية من إجمالي عينة الدراسة لفئة الزوجات القاصرات (30%).

وكل ذلك يدل بأن الأسر في ريف مدينة ديرالزور يزوجوا الفتيات القاصرات بنسبة أعلى من مدينة ديرالزور وذلك يعود للعادات والتقاليد في الريف.

الجدول (3) تصنيف عينة الدراسة حسب العمر للزوجة القاصر

كم كان عمرك عندما تزوجتي		الإقامة		الإجمالي
		مدينة	ريف	
13 عام	ك	0	2	2
	%	%0	%14.29	%10
14 عام	ك	0	3	3
	%	%0	%21.43	%15
15 عام	ك	1	4	5
	%	%16.67	%28.56	%25
16 عام	ك	1	5	6
	%	%16.67	%35.72	%30
17 عام	ك	4	0	4
	%	%66.66	%0	%20
الإجمالي	ك	6	14	20
	%	%100	%100	%100

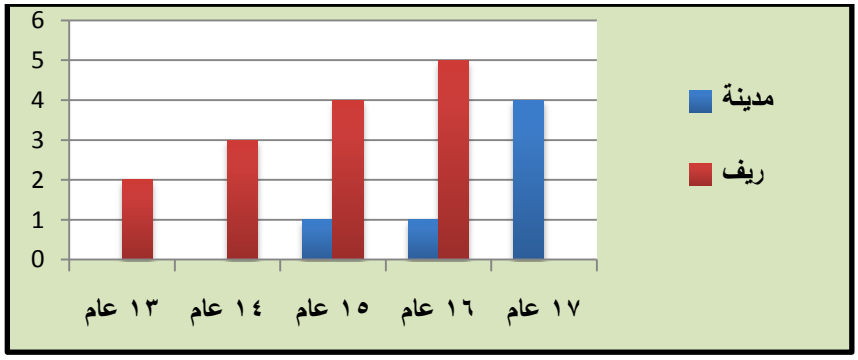

الشكل (2) تصنيف عينة الدراسة حسب العمر للزوجة القاصر

تلاحظ الباحثة من الجدول (3) والشكل (2) لمتغير العمر فقد تضمنت عينة المدينة (4) زوجات قاصرات من عمر (17) سنة وكانت نسبتها الأعلى وجاءت في المرتبة الأولى بنسبة مئوية بلغت (66.66%) وشكلت غالبية عينة المدينة، وجاء عمر (15) و(16) سنة للزوجات القاصرات في المدينة كلاهما في المرتبة الثانية من عينة المدينة وعددهم (1) لكل عمر منهما وبنسبة مئوية بلغت(16.67%). وجاء متغير العمر لعينة الريف (5) زوجات قاصرات من فئة العمر (16) وكانت نسبتها الأعلى وجاءت في المرتبة الأولى بنسبة مئوية بلغت (35.72%) وشكلت غالبية عينة الريف، وجاءت فئة العمر من (15) في المرتبة الثانية من عينة الريف وعددهن (4) وبنسبة مئوية بلغت (28.56%)، وجاءت فئة العمر (14) في المرتبة الثالثة من عينة الريف وجاء عددهن (3) وكانت هي في المرتبة الثالثة من عينة الزوجات القاصرات بنسبة مئوية بلغت (21.43%). وجاءت فئة العمر (13) في المرتبة الرابعة من عينة الريف وجاء عددهن (2) وكانت هي في المرتبة الرابعة من عينة الزوجات القاصرات بنسبة مئوية بلغت (14.29%).

وأيضًا تلاحظ الباحثة من الجدول (3) والشكل (2) لمتغير العمر فقد تضمنت إجمالي عينة الدراسة (6) مفردة من فئة العمر (16) وكانت نسبتها الأعلى وجاءت في المرتبة الأولى بنسبة مئوية بلغت (30%) وشكلت غالبية عينة الدراسة. وجاءت فئة العمر (15) في المرتبة الثانية بنسبة مئوية بلغت (25%)، وجاءت فئة العمر من (17) في المرتبة الثالثة بنسبة مئوية بلغت (20%). وجاءت فئة العمر(14) في المرتبة الرابعة بنسبة مئوية بلغت (15%). وجاءت فئة العمر(13) في المرتبة الأخيرة بنسبة مئوية بلغت (10%).

الجدول (4) تصنيف عينة الدراسة حسب المستوى التعليمي للزوجة القاصر

ما هو مستوى التعليمي لديك		الإقامة		الإجمالي
		مدينة	ريف	
أمي	ك	0	0	0
	%	%0	%0	%0
ملم	ك	0	4	4
	%	%0	%28.57	%20
ابتدائي	ك	0	3	3
	%	%0	%21.43	%15
إعدادي	ك	2	7	9
	%	%33.33	%50	%45
ثانوي	ك	4	0	4
	%	%66.67	%0	%20
الإجمالي	ك	6	14	20
	%	%100	%100	%100

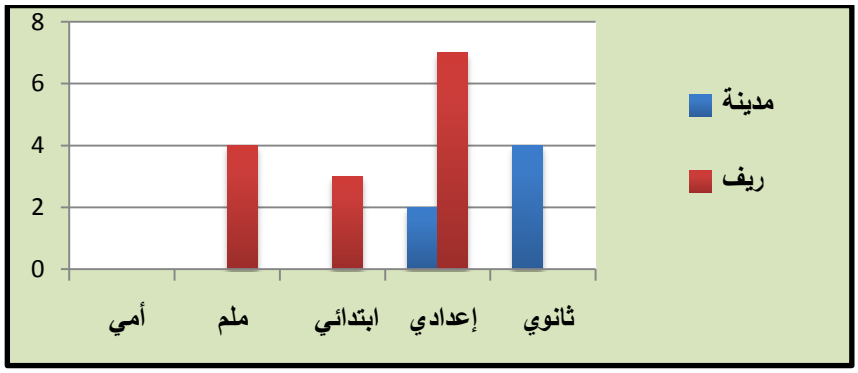

الشكل (3) تصنيف عينة الدراسة حسب المستوى التعليمي للزوجة القاصر

تلاحظ الباحثة من الجدول (4) والشكل (3) للمستوى التعليمي فقد تضمنت عينة الدراسة لديها (5) مفردة تعليمية وكان المستوى التعليمي للزوجة القاصر في الريف إعدادي وكانت نسبتها الأعلى وجاءت في المرتبة الأولى بنسبة مئوية بلغت (50%) وشكلت غالبية عينة الدراسة، وجاء المستوى التعليمي للزوجات القاصرات الملم بالقراءة والكتابة في المرتبة الثانية من عينة الريف وبنسبة مئوية بلغت(57 28%) كما جاء المستوى التعليمي ابتدائي للزوجات القاصرات في المرتبة الثالثة من عينة الريف وبنسبة مئوية بلغت (21,43%) وأما للمستويات الأمي والثانوي لم يتواجدوا بعينة الريف وكلهم متساوين بنسبة (0%)، كذلك المستوى التعليمي بين عينةالمدينة الثانوي للزوجة القاصر نسبتها الأعلى وجاءت في المرتبة الأولى بنسبة مئوية بلغت(66,67%)، وجاء المستوى التعليمي إعدادي في المرتبة الثانية من عينة المدينة وبنسبة مئوية بلغت (33,33%)، وأما للمستويات أمي والملم والابتدائي لم يتواجدوا بعينة المدينة كلهم متساوين بنسبة (0%).

وأيضًا تلاحظ الباحثة من الجدول (4) والشكل (3) للمستوى التعليمي فقد تضمنت إجمالي عينة الدراسة (9) مفردة من المستوى التعليمي إعدادي وكانت نسبتها الأعلى وجاءت في المرتبة الأولى بنسبة مئوية بلغت (45%) وشكلت غالبية عينة الدراسة. وجاء المستوى التعليمي الملم والثانوي في المرتبة الثانية بنسبة مئوية بلغت كلاهما (20%)، وجاء المستوى التعليمي ابتدائي في المرتبة الثالثة بنسبة مئوية بلغت (15%). وأما للمستوى التعليمي أمي لم تتواجد بعينة الدراسة وبنسبة مئوية (0%).

وكل ذلك يدل بأن الأسر في مدينة دير الزور وريفها لم يكون لديهم أهتمام بالتعليم ونشر الثقافية والعلم وبالتالي تدني المستوى التعليمي لدى أبنائهم.

الجدول (5) تصنيف عينة الدراسة حسب المستوى التعليمي لوالد الزوجة القاصر

ما هو مستوى التعليمي لوالدك		الإقامة		الإجمالي
		مدينة	ريف	
أمي	ك	0	5	5
	%	%0	%35.71	%25
ملم	ك	0	2	2
	%	%0	%14.29	%10
ابتدائي	ك	0	4	4
	%	%0	%28.57	%20
إعدادي	ك	3	3	6
	%	%50	%21.43	%30
ثانوي	ك	3	0	3
	%	%50	%0	%15
الإجمالي	ك	6	14	20
	%	%100	%100	%100

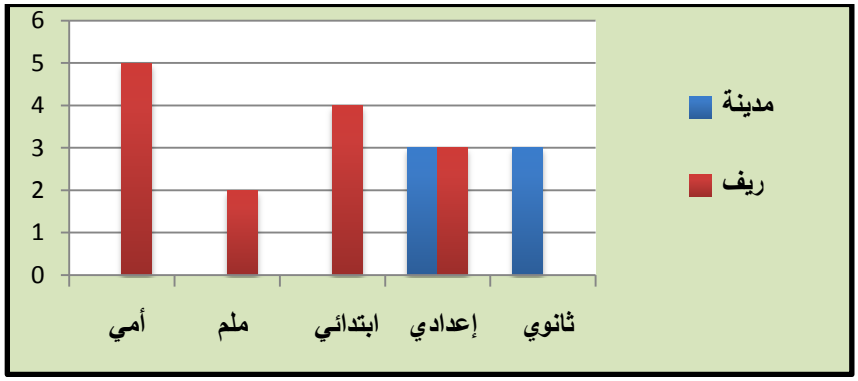

الشكل (4) تصنيف عينة الدراسة حسب المستوى التعليمي لوالد الزوجة القاصر

تلاحظ الباحثة من الجدول (5) والشكل (4) للمستوى التعليمي فقد تضمنت عينة الدراسة لديها (5) مفردة تعليمية وكان المستوى التعليمي لوالد الزوجات القاصرات في الريف أمي وكانت نسبته الأعلى وجاء في المرتبة الأولى بنسبة مئوية بلغ (35،71%) وشكلت غالبية عينة الدراسة، وجاء المستوى التعليمي لوالد الزوجات القاصرات ابتدائي في المرتبة الثانية من عينة الريف وبنسبة مئوية بلغت (28,57%)كما جاء المستوى التعليمي إعدادي لوالد الزوجات القاصرات في المرتبة الثالثة من عينة الريف وبنسبة مئوية بلغت (21,43%) كذلك جاء المستوى التعليمي ملم لوالد الزوجات القاصرات في المرتبة الرابعة من عينة الريف وبنسبة مئوية بلغت (14,29%) وأما المستوى الثانوي لم يتواجدوا بعينة الريف بنسبة (0%)، كذلك المستوى التعليمي بين عينةالمدينة اعدادي وثانوي لوالد الزوجات القاصرات نسبتها الأعلى وجاءت في المرتبة الأولى بنسبة مئوية متساوية بلغت(50%)، وأما للمستويات أمي وملم وابتدائي لم يتواجدوا بعينة المدينة بنسبة (0%). وأيضًا تلاحظ الباحثة من الجدول (5) والشكل (4) للمستوى التعليمي لوالد الزوجات القاصرات فقد تضمنت إجمالي عينة الدراسة (6) مفردة من المستوى التعليمي إعدادي وكان نسبته الأعلى وجاء في المرتبة الأولى بنسبة مئوية بلغت (30%) وشكلت غالبية عينة الدراسة. وجاء المستوى التعليمي أمي في المرتبة الثانية بنسبة مئوية بلغت (25%)، وجاء المستوى التعليمي ابتدائي في المرتبة الثالثة بنسبة مئوية بلغت (20%). كذلك جاء المستوى التعليمي ثانوي في المرتبة الرابعة بنسبة مئوية بلغت (15%) كما جاء المستوى التعليمي ملم في المرتبة الأخيرة بنسبة مئوية بلغت (10%).

الجدول (6) تصنيف عينة الدراسة حسب المستوى التعليمي لوالدة الزوجة القاصر

ما هو مستوى التعليمي لوالدتك		الإقامة		الإجمالي
		مدينة	ريف	
أمي	ك	2	9	**11**
	%	%33.33	%64.29	**%55**
ملم	ك	0	2	**2**
	%	%0	%14.29	**%10**
ابتدائي	ك	4	3	**7**
	%	%66.67	%21.42	**%35**
إعدادي	ك	0	0	**0**
	%	%0	%0	**%0**
ثانوي	ك	0	0	**0**
	%	%0	%0	**%0**
الإجمالي	ك	6	14	**20**
	%	%100	%100	**%100**

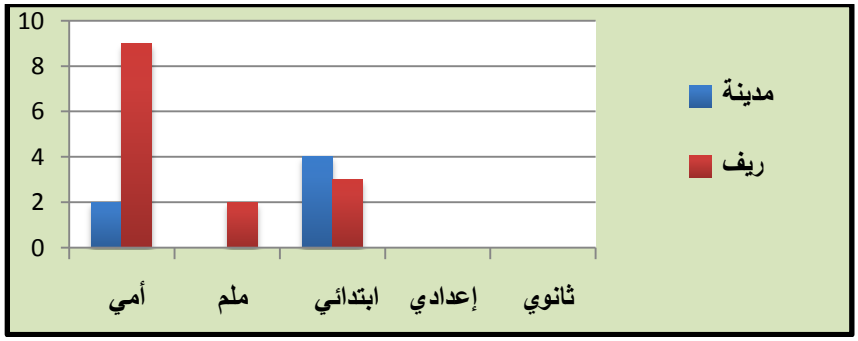

الشكل (5) تصنيف عينة الدراسة حسب المستوى التعليمي لوالدة الزوجة القاصر

تلاحظ الباحثة من الجدول (6) والشكل (5) للمستوى التعليمي فقد تضمنت عينة الدراسة لديها (5) مفردة تعليمية وكان المستوى التعليمي لوالدة الزوجات القاصرات في الريف أمي وكانت نسبتها الأعلى وجاءت في المرتبة الأولى بنسبة مئوية بلغ (64,29%) وشكلت غالبية عينة الدراسة، وجاء المستوى التعليمي لوالدة الزوجات القاصرات ابتدائي في المرتبة الثانية من عينة الريف وبنسبة مئوية بلغت (21,42%)كما جاء المستوى التعليمي ملم لوالدة الزوجات القاصرات في المرتبة الثالثة من عينة الريف وبنسبة مئوية بلغت (14,29%) وأما للمستويات إعدادي وثانوي لم يتواجدوا بعينة الريف بنسبة (0%)،

كذلك المستوى التعليمي بين عينةالمدينة ابتدائي لوالدة الزوجات القاصرات نسبتها الأعلى وجاءت في المرتبة الأولى بنسبة مئوية بلغت(66,67%)، وجاء المستوى التعليمي لوالدة الزوجات القاصرات أمي في المرتبة الثانية من عينة المدينة بنسبة مئوية بلغت (33,33%)وأما للمستويات ملم وإعدادي و ثانوي لم يتواجدوا بعينة المدينة بنسبة (0%).

وأيضًا تلاحظ الباحثة من الجدول (6) والشكل (5) للمستوى التعليمي لوالدة الزوجات القاصرات فقد تضمنت إجمالي عينة الدراسة (11) مفردة من المستوى التعليمي أمي وكان نسبته الأعلى وجاء في المرتبة الأولى بنسبة مئوية بلغت (55%) وشكلت غالبية عينة الدراسة. وجاء المستوى التعليمي إبتدائي في المرتبة الثانية بنسبة مئوية بلغت (35%)، وجاء المستوى التعليمي ملم في المرتبة الثالثة بنسبة مئوية بلغت (10%).
وأما للمستويات التعليمية إعدادي وثانوي لم تتواجد بعينة الدراسة وبنسبة مئوية (0%).
وكل ذلك يدل بأن الأسر في مدينة دير الزور وريفها لم يكون لديهم أهتمام بالتعليم ونشر الثقافية والعلم وبالتالي تدني المستوى التعليمي لديهم.

وفي الجداول التالية تستخدم الباحثة الإحصاء الوصفي ومقياس درجة الموافقة:

وتستخرج الباحثة من عمليات الإحصاء الوصفي النسبة المئوية والمتوسط الحسابي والانحراف المعياري وإخراج الفروق بين المجموعتين بطريقة كاي سكوير والدلالة الإحصائية ودرجة الحرية، لوصف إجابات عينة الدراسة نحو الفقرات أدناه، وحيث أن الباحثة اعتمدت المقياس التالي لتحدد درجة الموافقة.

الجدول (7) مقياس درجة الموافقة لفقرات الاستبانة

الفئة	المستوى
1 – 2.33	ضعيف
2.34 – 3.66	متوسط
3.67 – 5	مرتفع

2- الأسباب التي دعت إلى زواجك المبكر:

الجدول (8) الأسباب التي دعت إلى زواجك المبكر

السؤال	الإجابة		الإقامة		المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	كا^2	SIG	الدلالة	درجة الحرية
			مدينة	ريف						
ما هي الأسباب التي دعت إلى زواجك المبكر	العادات والتقاليد السائدة	ك	0	5	2.70	1.081	3.117[a]	0.210	لا يوجد دلالة	2
		%	%0	%35.72						
	كثرة عدد الإناث	ك	0	0						
		%	%0	%0						
	الحاجة لدعم الأسرة مادياً	ك	4	7						
		%	%66.67	%50						
	كون الزوج من الأقارب	ك	2	2						
		%	%33.33	%14.28						
	كل ما سبق	ك	0	0						
		%	%0	%0						
الإجمالي		ك	6	14				0.05		
		%	%100	%100						

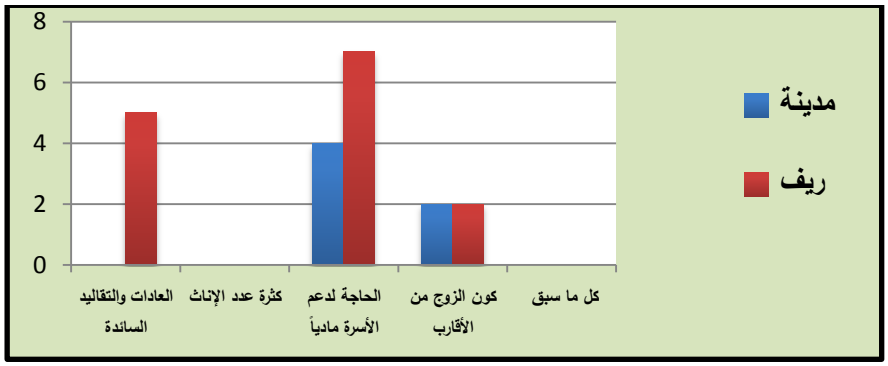

الشكل (6) الأسباب التي دعت إلى زواجك المبكر

تلاحظ الباحثة من الجدول (8) والشكل (6) بأن اتجاهات عينة الدراسة مرتفعة نحو الأسئلة أعلاه؛ ذلك لأن المتوسط الحسابي أكبر من متوسط أداة القياس (2.34)، كما أن المتوسط لسؤال الأسباب التي دعت إلى زواجك المبكر (2,70)يعكس ارتفاع درجة الموافقة على المتغير أعلاه، وكما تلاحظ الباحثة أيضاً بأن سؤال الأسباب التي دعت إلى زواجك المبكر جاءت به أكبر الإجابات موافقة إجابة (الحاجة إلى دعم الأسرة مادياً) بنسبة مئوية من مجموع عينة الريف (50%)، وجاءت أكبر الإجابة لمجموعة المدينة موافقة إجابة (الحاجةإلى دعم الأسرة مادياً)بنسبة مئوية (66,67%)وجاء مربع كاي لسؤال الأسباب التي دعت إلى زواجك المبكر وجاءت استجابات مجموعتي عينة الدراسة من الريف والمدينة بدرجة (3.117^{a}) بدلالة إحصائية (0.210) تدل على عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائي بين المجموعتين؛ لأنها أكبر من مستوى الدلالة القياسي (Sig= 0.05).

3- أثرت العادات والتقاليد الأسرية في زواجك المبكر:

الجدول (9) أثرت العادات والتقاليد الأسرية في زواجك المبكر

السؤال	الإجابة		الإقامة		المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	كا^2	SIG	الدلالة	درجة الحرية
			مدينة	ريف						
هل أثرت العادات والتقاليد للأسرة في زواجك المبكر	نعم	ك	4	10	1.60	0.940	0.045[a]	0.831	لا يوجد دلالة	1
		%	%66.67	%71.43						
	لا	ك	0	0						
		%	%0	%0						
	إلى حداً ما	ك	2	4						
		%	%33.33	%28.57						
الإجمالي		ك	6	14				0.05		
		%	%100	%100						

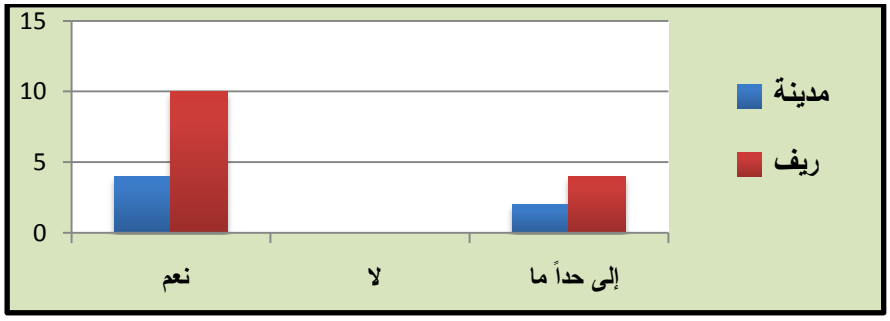

الشكل (7) أثرت العادات والتقاليد الأسرية في زواجك المبكر

تلاحظ الباحثة من الجدول (9) والشكل (7) بأن اتجاهات عينة الدراسة ضعيفة نحو الأسئلة أعلاه؛ ذلك لأن المتوسط الحسابي أقل من متوسط أداة القياس (2.34)، كما أن المتوسط لسؤال أثر العادات والتقاليد الأسرية في زواجك المبكر جاء (1.60) يعكس انخفاض درجة الموافقة على المتغير أعلاه، وكما تلاحظ الباحثة أيضاً بأن سؤال أثرت

العادات والتقاليد الأسرية في زواجك المبكر وجاءت به أكبر الإجابات موافقة إجابة (نعم) بنسبة مئوية من مجموع عينة الريف (71.43%) وكذلك جاءت ذات الإجابة لمجموعة عينة المدينة بنسبة مئوية (66.67%). وجاءت أقل الإجابات موافقة إجابة (إلى حداً ما) لمجموعة عينة الريف بنسبة مئوية (28.57%) وأيضاً لمجموعة عينة المدينة تم الاختيار هذه الإجابة وجاءت بنسبة مئوية (33.33%). وجاء مربع كاي لسؤال أثرت العادات والتقاليد الأسرية في زواجك المبكر وجاءت استجابات مجموعتي عينة الدراسة من الريف والمدينة بدرجة (0.045^a) بدلالة إحصائية (0.831) تدل على عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين المجموعتين؛ لأنها أكبر من مستوى الدلالة القياسي (Sig= 0.05).

4- ارتبط تدني المستوى الاقتصادي للأسرة في زواجك المبكر:

الجدول (10) ارتبط تدني المستوى الاقتصادي للأسرة في زواجك المبكر

السؤال	الإجابة		النوع		المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	كا^2	SIG	الدلالة	درجة الحرية
			مدينة	ريف						
هل ارتبط تدني المستوى الاقتصادي للأسرة في زواجك المبكر	نعم	ك	4	11	1.50	0.889	0.317^a	0.573	لا يوجد دلالة	1
		%	%66.67	%78.58						
	لا	ك	0	0						
		%	%0	%0						
	إلى حداً ما	ك	2	3						
		%	%33.33	%21.42						
الإجمالي		ك	13	7				0.05		
		%	%100	%100						

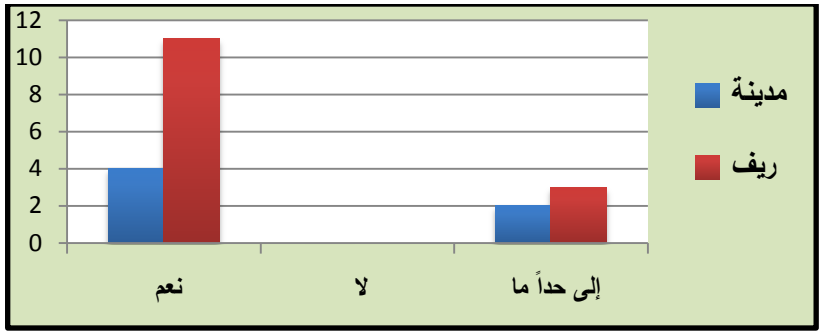

الشكل (8) ارتبط تدني المستوى الاقتصادي للأسرة في زواجك المبكر

تلاحظ الباحثة من الجدول (10) والشكل (8) بأن اتجاهات عينة الدراسة ضعيفة نحو الأسئلة أعلاه؛ ذلك لأن المتوسط الحسابي أقل من متوسط أداة القياس (2.34)، كما أن المتوسط لسؤال ارتبط تدني المستوى الاقتصادي للأسرة في زواجك المبكر جاء (1.50) يعكس انخفاض درجة الموافقة على المتغير أعلاه، وكما تلاحظ الباحثة أيضاً بأن سؤال ارتبط تدني المستوى الاقتصادي للأسرة في زواجك المبكر وجاءت به أكبر الإجابات موافقة إجابة (نعم) بنسبة مئوية من مجموع عينة الريف (78.58%) وكذلك جاءت ذات الإجابة لمجموعة عينة المدينة بنسبة مئوية (66.67%). وجاءت أقل الإجابات موافقة إجابة (إلى حداً ما) لمجموعة عينة الريف بنسبة مئوية (21.42%) وأيضاً لمجموعة عينة المدينة تم اختيار هذه الإجابة وجاءت بنسبة مئوية (33.33%). وجاء مربع كاي لسؤال ارتبط تدني المستوى الاقتصادي للأسرة في زواجك المبكر وجاءت استجابات مجموعتي عينة الدراسة من الريف و المدينة بدرجة (0.317^{a}) بدلالة إحصائية (0.573) تدل على عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين المجموعتين؛ لأنها أكبر من مستوى الدلالة القياسي (Sig= 0.05).

5- خلاصة نتائج البحث الميداني:

- إن النسبة الغالبة من أفراد مجتمع البحث هن من أبناء الريف تتراوح أعمارهن ما بين (14-16) سنة.
- إن النسبة الغالبة من الفتيات القاصرات المتزوجات مستواهن التعليمي متدني ما بين المرحلة التعليمية الأولى والثانية(ابتدائي وإعدادي)وهذا دليل على عدم وجود اهتمام ومتابعة من الناحية العلمية.
- إن النسبة الغالبة من أفراد مجتمع البحث كان المستوى التعليمي لدى أسرهن متدني وهذا دليل على عدم وجود وعي وإدراك تام بمخاطر زواج القاصرات على القاصر نفسها وعلى مجتمعها.
- من الأسباب التي دعت إلى زواج القاصرات هو الحاجة المادية لأسرهن بسبب تدني المستوى الاقتصادي للأسرة وعدم بمقدرتهم على تحمل الأعباء الملقاة على عاتقهم.
- إن النسبة الغالبة من أفراد مجتمع البحث أكدوا أن للعادات والتقاليد الأسرية كان لها دور في زيادة ظاهرة زواج القاصرات.

6-مناقشة نتائج البحث في ضوء التساؤلات:

- **السؤال الأول** والذي ينص على**(ما تأثير تدني المستوى الاقتصادي في انتشار ظاهرة زواج القاصرات في الريف والمدينة؟)**

أكد أفراد مجتمع البحث أن تدني المستوى الاقتصادي للأسرة في الريف والمدينة كان من الأسباب الرئيسية لدفع الأسر إلى تزويج فتياتهم وهن في سن مبكر من أجل دعمهم مادياً.

- **السؤال الثاني** والذي ينص على **(ما تأثير تدني المستوى التعليمي للأسرة في انتشار ظاهرة زواج القاصرات في الريف و المدينة؟)**

أكد أفراد مجتمع البحث أن هناك علاقة بين تدني المستوى التعليمي لدى أولياء الأمور وانتشار ظاهرة زواج القاصرات وذلك لعدم وجود الوعي والمعرفةالكافية بمخاطر تلك الزواج على الفتاة القاصر نفسها وعلى مجتمعها.

- **السؤال الثالث** والذي ينص على **(ما مدى ارتباط العادات والتقاليد في انتشار ظاهرة زواج القاصرات في الريف و المدينة؟)**

أكد أفراد مجتمع البحث أن للعادات والتقاليد الأسرية كان لها دور في زيادة ظاهرة زواج القاصرات لأنه مجتمع عشائري قائم على العادات والتقاليد التي يتوارثها الآباء عن الأجداد.

7-مناقشة نتائج البحث في ضوء الدراسات السابقة:

فبمقارنة نتائج البحث الحالي مع ما تم التوصل إليه في الدراسات السابقة تختلف نتائج البحث الحالي مع دراسة **(نهلة ناظم ياغي 2018)**على أن غالبية الفتيات تزوجن في سن ما بين (12-13) سنة ولكن البحث الحالي اتضح أن الفتيات القاصرات تزوجن في سن ما بين (14-16) سنة كما تتفق نتائج البحث الحالي مع الدراسة نفسها على أن المستوى التعليمي للفتاة القاصر متدني، كما تختلف نتائج البحث الحالي عن دراسة **(حيدر جواد كاظم المكصوصي 2022)** على أن الأسباب التي دعت إلى زواج القاصرات هو العادات والتقاليد في المرتبة الأولى ولكن البحث الحالي أكد أن تدني المستوى الاقتصادي للأسرة والحاجة المادية هي التي دفعت الأسر إلى تزويج فتياتهم وهن قاصرات، أيضاً تختلف نتائج البحث الحالي مع دراسة **(Uecker, Jeremy E, .$ stoke Charles (2008)**على أن 25% من النساء يتزوجن بسن 18سنة ولكن البحث الحالي أتضح أن الفتيات القاصرات يتزوجن في سن ما بين (14-16) سنة كما تتفق نتائج البحث الحالي مع الدراسة نفسها على أن الفقر و تدني المستوى الاقتصادي للأسرة هو الذي يزيد من ظاهرة زواج القاصرات.

مقترحات البحث:

1- إقامة حملات توعية من قبل المؤسسات الحكومية لجميع فئات المجتمع و بوجه خاص الفئات الفقيرة لحمايتهم من الاستغلال عند تزويج ابنتهم القاصر نتيجة تدني مستواهم الاقتصادي.

2- على المؤسسات الحكومية والخاصة إقامة مشاريع ضخمة لتشغيل الأسر الفقيرة لكي يتم الحصول على مردود مادي ثابت والغاية من ذلك تقليل ظاهرة زواج القاصرات.

3- قيام الجهات المتخصصة ولا سيما وزارة الصحة ندوات ومحاضرات لجميع فئات المجتمع من أجل التعرف بالأضرار الصحية التي تتعرض لها الفتاة عند زواجها بسن مبكر.

4- على المؤسسات الحكومية فتح مراكز متخصصة للشباب قبل الزواج لكي يتم توعيتهم بأسس الزواج الناجح وكيفية الاختيار الصح لكلا الزوجين.

خاتمة

لقد كان جوهر البحث الراهن هو أثر العوامل الاقتصادية و الثقافية للأسرة السوريةعلى زواج القاصرات تلك الظاهرة التي انتشرت بشكل ملحوظ وساهمت في انتشارها عوامل مختلفة بالغة التعقيد ومن الخطأ النظر إليها من زاوية معينة فالواجب أن تكون النظرة تكاملية لأن تلك الظاهرة من أعقد الظواهر الاجتماعية التي تواجه المجتمعات وتعيق تطورها وتقدمها نحو الإمام لأنها المرأة هي الخلية الأولى التي يتألف منها جسم المجتمع، وبصلاحها يصلح هذا الجسم، وبفسادها يدب إليه السقم والانحلال حيث اختلفت معايير الزواج باختلاف العادات والتقاليد وأصبح اختيار الزوج على أساس المال أو النسب أو الجاه، واللجوء إلى زواج القاصرات اللواتي لا يعرفون أضرار وانعكاسات تلك الزواج على انفسهن وعلى المجتمع ومن هنا كان لدراسة ظاهرة زواج القاصرات أهمية بالغة ليست فقط لكونها نصف المجتمع فهي أيضاً عماد الأسرة وأساس لبناء المجتمع وتقدمه.

قائمة المصادر والمراجع

أولا–المصادر:

1– أحمد، عمر: **معجم الوسيط**، مكتبة الشروق الدولية للنشر والتوزيع، بيروت، 2004م.

2– الصائغ، نبيل: **موسوعة الأحوال الشخصية لجميع المذاهب و الأديان**، دار الفكر لعربي للنشر والتوزيع، القاهرة، 1997م.

3– مصطفى، إبراهيم: **معجم الوسيط**، مطبعة مصر للنشر والتوزيع، القاهرة، 1960م.

ثانياً–المراجع:

4– إبراهيم، ناصر: **أسس التربية**، دار عمان للنشر والتوزيع، عمان، 1989م.

5–إبراش، أحمد: **مناهج البحث الاجتماعي**، دار الفكر العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، 2008م.

6–القادري، حسنية: **الزواج المبكر والتنمية**، دار الفكر العربي للنشر والتوزيع، صنعاء، 2005م.

7–مسلم، عدنان: **دراسات في علم الاجتماع الريفي**، دار النهضة العربي للنشر والتوزيع، دمشق، 1988م.

ثالثاً–المجلات العلمية:

8– المكصوصي، حيدر جواد كاظم: "**زواج القاصرات في مدينة البصرة، الأسباب، الآثار**"، جامعة البصرة، مجلة جامعة البصرة، العدد 101، 2022م.

9-ناظم ياغي، نهلة: "**ظاهرة زواج القاصرات في ظل الأزمة السورية**"، جامعة تشرين، مجلة جامعة تشرين للبحوث و الدراسات العلمية، العدد3، 2018م.

رابعاً-الرسائل العلمية:

10-أبو راس، أحمد يوسف: **الزواج المبكر وأثره في الحياة الزوجية**، رسالة ماجستير، إشراف: عدنان مسلم، جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سورية، 1998م.

11-خضر، رزان مهيوب: **الزواج الفتيات المبكر**، رسالة ماجستير، إشراف: هناء برقاوي، جامعة دمشق، كلية الآداب الآداب والعلوم الإنسانية، سورية، 2017م.

12- قادري، إسراء: **أثر العوامل الاجتماعية الأسرية في الزواج المبكر ومنعكساته**، رسالة ماجستير، إشراف: أديب عقيل، جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سورية، 2004م.

13- Uecker, Jeremy, E, .$ stoke Charles (2008).

تصور النخبة من الحداثة إلى المعاصرة: النخبة في تحولات العالم المعاصر (إسقاطات على المجتمع العربي)

طالب الدكتوراه: سامر أسعد[1]

إشراف الدكتور: د. عادل دياب العلي[2]

الملخص

تبيّن هذه الورقة البحثية تصور النخبة والتحولات الحالية في المجتمعات المعاصرة التي تتجه نحو اللامركزية وتوسيع الحريات، بما في ذلك لامركزية الثقافة، مما يزعزع وضع النخبة ومكانتها الثقافية والاجتماعية والسياسية. تواجه النخبة المعاصرة حالة من التحول في المجتمعات المعاصرة بناءً على تحول القيم السياسية والثقافية للمجتمع، وظهور قيم جديدة تتجاوز سلطة ومكانة النخبة. هذا الاتجاه موجود في المجتمعات الغربية والعربية على حد سواء. بالإضافة إلى ذلك، في المجتمعات العربية، أدت عاصفة الثورة المعرفية والمجتمع الرقمي التي انتقلت من الغرب عبر وسائل الإعلام وثورة الإنترنت إلى تفكك الموقف المعرفي الذي يميز النخبة عما سواها. وتركز هذه الورقة على المشاكل التي تواجه النخبة الفكرية في المجتمعات العربية، بما في ذلك التحول الثقافي الهائل للجماهير العربية والتغيير الاجتماعي المستمر في المجتمعات العربية. فقد أصبحت قوة وسلطة الفكر العربي في حالة تفكك واضطراب في ظل هذه التحولات الديناميكية التي حدثت وتحدث في العالم العربي. من خلال استكشاف هذه القضايا، يهدف هذا البحث إلى تقديم فهمٍ معاصر لدور ومكانة وأهمية الفكرِ العربي في سياق التغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الحالية.

الكلمات المفتاحية: النخبة – المعاصرة – المجتمع العربي – التحولات الاجتماعية.

[1] طالب دراسات عليا في درجة الدكتوراه، في قسم علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين.
[2] أستاذ في قسم علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين.

Envisioning the Elite from Modernity to Contemporary: The Elite in the Contemporary World

(Projections in Arab Society)

PhD student: Samer Asaad[1]

Supervision: Dr. Adel Diab Al-Ali[2]

Abstract

This paper explores the perception of the elite and current shifts in contemporary political society. Contemporary society is moving towards decentralization and the expansion of freedom, including the decentralization of culture, which destabilizes the status of elites and their cultural, social, and political standing. Contemporary elites are experiencing a state of transformation in contemporary societies based on the changing political and cultural values of society and the emergence of new values that transcend the power and status of the elites. This trend is present in both Western and Arab societies. Additionally, in Arab societies, the knowledge and digital revolution that originated in the West and spread through media and the Internet has led to a decentralization of the cognitive position that distinguished the elites from others. And This paper specifically focuses on the challenges facing intellectual elites in Arab societies, including the significant cultural transformation of the Arab masses and the ongoing social changes in Arab societies. The power and authority of Arab intellectuals have become destabilized and uncertain amidst these dynamic transformations that have occurred and are occurring in the Arab world. By exploring these issues, this research aims to provide a contemporary understanding of the role, position, and significance of Arab thinkers in the context of current social, political, and economic changes.

Keywords: Elite - Contemporary - Arab Society – Social Transformation

[1] Postgraduate Student (PHD), Department of sociology, Faculty of Art and Humanities, Tishreen Universit.

[2] Assistant Professor, Department of sociology, Faculty of Art and Humanities, Tishreen University.

مقدمة:

لعب مفهوم النخبة الاجتماعية ومكانتها دوراً مهماً في المجتمع الحديث. فتقليدياً، تشغل النخبة مناصب السلطة والنفوذ والامتياز بفضل ثروتها وتعليمها وعلاقاتها الاجتماعية وأدوارها المهنية. فتعمل النخب على تلبية الاحتياجات الاجتماعية من خلال قيادتها وتقديمها نماذج ومثلٍ في ظل تحولات المجتمع. ومع ذلك، تطورت الخصائص التي تحدد وضع وتكوين النخبة مع مرور الوقت والتغيرات الاجتماعية. ومع ازدياد تعقيد المجتمع، أصبح التمييز بين النخب الاجتماعية والسياسية والثقافية أقل وضوحاً. يمتد الآن نطاق النخبة عبر مجالات متعددة وتتداخل في شبكاتها الاجتماعية ومجالات نفوذها الكثير من العوامل المتداخلة. فقد أصبحت النخب الفكرية على وجه الخصوص ذات أهمية متزايدة في تشكيل الأفكار والثقافة والأدبيات داخل المجتمع.

مع بلوغ الحداثة ذروتها وظهور موجات العولمة، أدى التغير الاجتماعي السريع إلى تغييرات عميقةٍ في التسلسل الهرمي التقليدي وهياكل السلطة الكلاسيكية التي سادت حتى بداية القرن العشرين، والتي حافظت على وجودها مستقراً حتى بدايات القرن الواحد والعشرين، فيما أتاحت موجات العولمة وما بعد الحداثة فرصاً اقتصادية اجتماعية مهمة للأفراد المتطلعين للانضمام إلى النخبة. وعلى الرغم من أهمية التراكم الرأسمالي الموروث والروابط الاجتماعية التقليدية، إلا أن الكفاءة والمبادرات الاقتصادية والمهارات التقنية والوصول إلى المعلومات أصبحت أيضاً وسائل ضرورية للوصول إلى مصاف النخبة، بما يضاهي العوامل أو الأسباب التقليدية التي كانت تحدد الأفراد المؤهلين لدخول النخب الاجتماعية كجماعات تأثير على المجتمعات الحديثة.

ومع ذلك تبرز في أيامنا هذه أسئلة جديةٌ حول قدرة نخب القرن الحادي والعشرين على مواجهة التحديات المعقدة التي تواجه المجتمعات المعاصرة. وهو ما يثير المخاوف حول زيادة التفاوت وانعدام المساواة وضعف ثقافة التنوع وانقسام منظومة القيم بين مجموعات النخبة المختلفة، والتي قد تهدد شرعيتها وقدرتها على توفير الفوائد المجتمعية.

أولاً– مشكلة البحث وأهميته:

تتحدد مشكلة البحث من خلال مسألة تكيف النخب الاجتماعية مع التحولات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية السياسية الحادة التي يمر بها المجتمع العربي المعاصر خصوصاً، والمجتمعات العالمية عموماً، إذ تعكس التحولات الاجتماعية بمظاهرها المختلفة تغير النمط الثقافي والسياسي والاقتصادي الممثل لمرحلة ما بعد الحداثة، والتي تختتم الحداثة من خلال التفكيك على المستويين الفكري والاجتماعي، مع ظهور موجة[1] من التقدم الثوري في المعرفة والتكنولوجية تجتاح الفضاء الإعلامي والمعلوماتي، وهنا يكون على النخب الاجتماعية أن تتعامل مع احتمالية تراجع دورها، وينبغي دراسة التأثير العميق على شبكة الأدوار في المجتمع، وكيف تجد النخبة الاجتماعية نفسها في إطار تحولات النظام الاجتماعي.

تكمن أهمية هذا البحث في قدرته على تقديم رؤى تفيد القراءة السوسيولوجية لواقع النخب الاجتماعية الحالية والمستقبلية في المنطقة العربية وحدود فعالية دورها الاجتماعي، وفهم التحديات التي تواجهها مجتمعاتها وكيفية التعامل معها. كما يمكن أن يسهم البحث في توجيه السياسات المستقبلية المتعلقة بقضايا هياكل السلطة ومعضلة عدم المساواة والتقسيم الطبقي الاجتماعي المرتبط بالنخبة. وفي النهاية، يوسّع هذا البحث نطاق وجهات النظر حول ظواهر النخبة وأثرها على التغيير الاجتماعي في سياق التحديث السريع والعولمة في العالم العربي.

ثانياً– أهداف البحث وأسئلته:

يهدف هذا البحث إلى تعزيز الفهم العميق لتطور مفهوم النخبة ومكانتها في المجتمعات المعاصرة وبخاصة المجتمعات العربية، وتحليل تحوّل القيم من الحداثة إلى المعاصرة. ومن ثم، يهدف البحث إلى تسليط الضوء على خصائص وأدوار وتأثير مجموعات النخبة (كمجموعات المثقفين والإداريين والاقتصاديين) عبر الفترات التاريخية

[1] مصطلح الموجة الحضارية والمعرفية هو من صياغة المفكر الأمريكي ألفين توفلر صاحب كتاب *الموجة الثالثة*.

المختلفة، وتحديد العوامل الاجتماعية والاقتصادية والتكنولوجية وغيرها التي أدت إلى حدوث تغييرات في مكانة وتكوين النخبة مع مرور الوقت.

ومن أهم الأسئلة التي يتناولها البحث، ما هي التغيرات التي تطرأ على النخب الاجتماعية بمختلف أنواعها في خضم التحولات الاجتماعية المتسارعة في المجتمعات المعاصرة؟ وما هو تأثير ذلك على النخب العربية في بيئة المجتمعات العربية؟ وما هي التحولات الثقافية التي تطرأ على مفهوم النخبة وتصورها من قبل المجتمع؟ وما هي الأدوار الجديدة للنخب وللمثقفين والتي تتشكل في إطار التحولات الاجتماعية التي تتم تحت تأثير العولمة؟

ثالثاً – الدراسات السابقة:

أولاً، بحث للباحثة أمينة علاق، بعنوان "نخبة أم نخب– قراءة في المفهوم، الأدوار والإشكاليات"، أجري في ورقلة في الجزائر[1]:

تتناول هذه الدراسة النخبة وأدوارها وفعاليتها الاجتماعية ومكانتها وارتباطها بمجتمعاتها وطبقات مجتمعها وفئاته، وفي ظل عدم القدرة على تصور مجتمع بشري بدون النخب الاجتماعية التي تعمل على تطوير ورفع سويّة مجتمعاتها، فإنه يفترض في هذه المجتمعات أن تشهد حركية مستمرة، وأن تحولات المجتمع وديناميكياته تؤدي بالضرورة إلى ظهور النخب الاجتماعية الجديدة واختفاء أخرى او انصهارها مع القديمة، وتجد هذه الدراسة ان هذه التحولات هي وضع طبيعي فرضته وتفرضه المستجدات الحاصلة على الساحات السياسية والاجتماعية، وقد تصل في كثير من الأحيان الى خلق نخب جديدة، ومن هنا كانت دراسة دور النخب الاجتماعية والسياسية والثقافية ضرورة ملحة بالنسبة للباحثة، وتؤكد الباحثة على ضرورة وجود العلاقة التكاملية بين مختلف أنواع النخب والتي تضطلع كل واحدة منها بوظيفة معينة تكفل للمجتمع وأفراده الاستقرار

[1] علاق، أمينة. نخبة أم نخب– قراءة في المفهوم، الأدوار والإشكاليات، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 28، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 2017.

والمساهمة في تطويره واستمراريته، وأن هذه النخب ليست نخبا منعزلة أو تعيش في بروج عالية بل هي نخب فاعلة في مجتمعاتها، وتؤكد الباحثة حيوية النخب السياسية بسبب مكانتها ونفوذها الاجتماعي دون اغفال علاقتها بالنخب الأخرى ثقافية كانت أو اقتصادية او غيرها من النخب التي أصبحت اليوم تستفيد من وسائل الاعلام والاتصال الحديثة كضرورة للتواصل والتفاعل مع المجتمع بأطيافه المختلفة.

ثانياً، بحث للباحثين ديرم مراد وبلغيث سلطان، بعنوان: مؤسسات التنشئة الاجتماعية وقيم النخبة السياسية، أجري في ولاية معسكر في الجزائر[1]:

يتوصل الباحثان إلى أن المؤسسات المسؤولة عن التنشئة الاجتماعية حاسمة في تشكيل قيم النخب، سواء كانت سياسية أو اقتصادية. وعلى الرغم من أن النخب قد تمر بمراحل مختلفة من التطور في هذه المؤسسات، إلا أنها لا تزال تلعب دوراً مهماً في تحديد قيمها. وهذا يؤثر في نهاية المطاف على قدراتهم على صنع القرار وخياراتهم الإنمائية في الشؤون العامة المحلية، مما قد يكون له عواقب مباشرة أو غير مباشرة على المجتمعات التي يمثلونها. ومع ذلك، يظهر البحث أن هناك ضعفاً في نظام القيم لدى هذه النخب، وهو ما ينعكس في افتقارها إلى المركزية وعجزها عن بناء نظام قيمي قوي ومنظم ومتكامل ييسر تحقيق الأهداف الإنمائية في المجتمعات المحلية. فيما تكمن مشكلة مؤسسات التنشئة الاجتماعية هذه في أنها بحاجة إلى تصحيح عدم توازن القيم للأفراد بشكل عام، والنخب الرائدة في المجتمع على وجه التحديد. وهي بحاجة إلى بناء نظام قيم أكثر تماسكا واتساقا يحافظ على قدرة النخب على التكيف مع بيئاتها بالإجماع ويزيد من هذه القدرة، ويوجهها نحو تحقيق أهداف مرغوبة ومتوازنة على الصعيدين الشخصي والاجتماعي. ويبين البحث أن هذا سيساهم في تحقيق التنمية المحلية، ولكن لا يمكن أن يحدث إلا إذا كان الهيكل الأخلاقي للنخب عبارة عن هيكل سليم يخضع لنظام أبوي واضح، يحدد أهدافها وخياراتها.

[1] مراد، ديرم؛ سلطان، بلغيث. مؤسسات التنشئة الاجتماعية وقيم النخبة السياسية، مجلة المواقف، مجلد 16- عدد2، جامعة مصطفى اصطمبولي، معسكر، 2020.

ثالثاً، بحث للباحثين ربيع شعابنة وعتيقة حرايرة، بعنوان معاينة للنخب التكنوقراطية عبر عقلانية الفعل التسييري وإكراهات محددات المتصل السوسيواقتصادي، أجري في الجزائر[1]:

يحاول الباحثان فهم تكوين النخب التكنوقراطية وتفكيك طبيعتها المعقدة للحصول على صورة موضوعية. يمكن لنخب السياسة التكنوقراطية أن تكون فاعلةً استراتيجياً في الوضع الاجتماعي الجزائري إذا كان لديها وعي جيد بالواقع. فالإدارة العقلانية هي مطلب لدراسة النخب، وخاصةً النخبة التكنوقراطية. يدعو الباحثان إلى التنمية الاجتماعية والاقتصادية من خلال الاستثمار في النخب الموجودة في الجزائر. ويمكن أن تساعد عمليات التدريب بشأن الجوانب الاجتماعية – الاقتصادية للتكنولوجيات الحديثة في إحداث التغيير. ويقرر الباحثان أن الجزائر بحاجة إلى استراتيجية دولة واسعة يشرف عليها خبراء لإعداد وتدريب نخب مماثلة لنماذج أخرى في جميع أنحاء العالم، وأن هناك حاجة لإلغاء المسافات والحواجز التي تمنع النخب السياسة التكنوقراطية من الوعي الجيد بالواقع. يمكن استخدام الوعي كقاعدة صلبة لبدء الإنقاذ الاجتماعي والاقتصادي. ويؤكد الباحثون على أهمية فهم عدم التوازن في المجتمعات من خلال تحليل أعراض العلل الاجتماعية. الهدف النهائي هو تنفيذ برنامج وطني لإعداد وتدريب النخب التكنوقراطية بما يتماشى مع تلك الموجودة في البلدان المتقدمة الأخرى.

رابعاً– منهج البحث:

تستخدم هذه الدراسة منهج التحليل الثقافي التاريخي والمنهج التاريخي المقارن. حيث تتم دراسة المصادر الأساسية مثل النصوص التاريخية والوثائق الأدبية لتحليل التطورات التي تطرأ على النخب في المجتمع المعاصر عموماً والعربي خصوصاً، من عصر الحداثة إلى عصر العولمة ما بعد الحداثية. وتتم مراجعة المصادر الثانوية بما في ذلك المؤلفات الأكاديمية حول مكانة النخبة وهياكل السلطة والتغير الاجتماعي في العالم

[1] شعابنة، ربيع؛ حرايرة، عتيقة. معاينة للنخب التكنوقراطية عبر عقلانية الفعل التسييري وإكراهات محددات المتصل السوسيواقتصادي، مجلة التنمية وإدارة الموارد البشرية، مجلد 8، عدد 1، جامعة البليدة 2، 2021.

العربي. كما تتم مقارنة ومقابلة مجموعات النُخب المختلفة التي كانت موجودة خلال فترات زمنية مختلفة، ودراسة الاتجاهات في الخصائص التي تحدد حالة النخبة مثل الثروة ومستوى التعليم والمهنة والتأثير والوضع الاجتماعي. كما يتم تحديد وتحليل التطورات التكنولوجية والاجتماعية والاقتصادية التي أدت إلى تغيرات في تكوين النخبة.

خامساً– فرضيات البحث وحدوده:

يناقش هذا البحث ثلاث فرضيات رئيسة، **الأولى** هي أن أدوار النخب الاجتماعية تغيّرت في عالم ما بعد الحداثة وعلى ضوء التطورات التكنولوجية المتسارعة وثورة تكنولوجيا المعرفة، أما **الفرضية الثانية** فهي أن ازدواجية النخبة والجمهور المتأصلة في المجتمعات العربية قد تزعزعت مع التحولات العميقة في هذه المجتمعات بتأثير التحول الحضاري والتكنولوجي العالمي. أما **الفرضية الثالثة** فمفادها: أن الجمهور وسائر طبقات المجتمعات المعاصرة، بما فيها المجتمعات العربية، أخذت تنظر بطريقة مختلفة إلى النخبة الاجتماعية ودورها، أي أن صورة النخبة في الذهنية الاجتماعية أصبحت أقل تأثيراً عما كانت عليه مع اختتام الحداثة وبداية مابعد الحداثة، وصولاً إلى تفكك صورة المثقف في الذهنية الاجتماعية. أما **حدود هذا البحث** فتنتقل من المجال الحضاري العالمي إلى المجال الاجتماعي العربي عبر نقاشات وإسقاطات تحليلية، تبيّن كيف يتفاعل المشرق العربي مع العولمة الثقافية وتأثيراتها.

سادساً – مصطلحات البحث وتعريفاته الإجرائية:

1. **النخبة:** هي شريحة اجتماعية تملك تأثيراً على أفراد المجتمع، والقدرة على التأثير على توجهات المجتمع، وهي مجموعة من الأفراد الذين تجمعهم جملة من علاقات المصالح والأيديولوجيا، والذين يتفاعلون مع بعضهم البعض في سلوك متشابه

ومنسجم، يهدف إلى تحقيق مصلحة أو جملة من المصالح المشتركة سواء أكانت اجتماعية أم اقتصادية أم أيديولوجية.[1]

2. **المثقف:** هو الإنسان الذي يمتلك القدرة على الإنتاج الثقافي، والمُؤسَسَ على التعليم والمعرفة، ويمكن أن يكون إنتاجه الثقافي متراوحاً بين الاختصاصي إلى الإيديولوجي مروراً بالأدبي، فيكون تأثير المثقف مرتبطاً بالقدرة على التأثير على أدبيات وذهنية المجتمع، ومن ثمّ توجهاته المعرفية والأدبية.[2]
3. **المجتمع السياسي:** هو البنية الاجتماعية الأساسية التي تمثل العلاقات السياسية في المجتمع بمعناها الموسع، ويشتمل على مجموع المواطنين ذوي المسؤولية القانونية والسياسية، والذين يتفاعلون معاً لتكوين الرأي العام.
4. **الطبقة الاجتماعية:** هي مجموعة كبيرة من الناس تختلف عن المجموعات الأخرى في المركز الذي تشغله في سياقٍ تاريخي المُحدّد لنمط الإنتاج داخل البناء الاجتماعي، ومن ثمّ تتحدد علاقة هؤلاء الناس في هذه المجموعة مع وسائل الإنتاج، وفي دورهم في التنظيم الاجتماعي للعمل؛ ومن ثَم، في القدر والطريقة التي تستحوذ بها على نصيبها من الثروة الاجتماعية.[3]
5. **الجمهور:** هم القطاع الواسع من المجتمع الذي يكون في حالة التلقي للمعارف والأفكار والأيديولوجيات والإنتاج الثقافي، والتي يتفاعل معها جميعها، وعادةً ما يشغل الجمهورَ مجموعةٌ من الاهتمامات المشتركة، مثل الاهتمام الاجتماعي والقومي، والأدبي، والثقافي، فالجمهور مجموعة من الناس تتلقى عملاً ما موجهاً

[1] **انظر:** بوتمور. الصفوة والمجتمع، ترجمة: محمد الجوهري وآخرون، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1988، ص 25. **انظر أيضاً:** أبراش، ابراهيم. علم الاجتماع السياسي، يو للكتب، لندن، طبعة جديدة، 2011، ص 23.

[2] **انظر:** التميمي، عبد المالك. بعض إشكاليات الثقافة والنخبة المثقفة في مجتمع الخليج العربي المعاصر، الثقافة والمثقف في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1992، ص 301.

[3] **انظر:** لوميل، يانيك. الطبقات الاجتماعية، ترجمة: جورجيت حداد، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2008، ص 28، 30.

إليها، والجمهور بمعناه الاجتماعي العميق هو مجموعة من الأفراد توحدهم الأفكار والأيديولوجيات، ويمتلكون مجموعة من التوقعات المشتركة.[1]

المناقشة والنتائج:

أولاً: تصور النخبة وتحولات المجتمع السياسي المعاصر:

تختلف نظريات النخبة الاجتماعية في تفسير تركيب المجتمعات من خلال منظور الهيمنة التي تمارسها الطبقة النخبوية على المجتمع بأكمله. تتميز النظريات المعاصرة للنخبة عن النظريات الكلاسيكية في الأسباب الكامنة وراء "الحقيقة الاجتماعية" للنخبة.

بحسب باريتو، يتم تفسير وجود النخبة بناءً على مبدأ التوزيع غير المتكافئ في المجال الاجتماعي والاقتصادي. ويُشار أيضاً إلى عدم وجود مصالح مشتركة قوية في أي مجموعة كبيرة من طبقات المجتمع. وبالتالي، فإن التنوع الطبقي في المجتمع لا يندرج تحت هدف مشترك، وإنما يجتمع تحت سلطة واحدة من الهيمنة. لذا، لكي يستمر نظام حكم كبير بما يكفي، يتطلب اتخاذ قرارات تتجاوز المصالح الفردية لتحقيق الصالح العام، وهذا يتطلب وجود مجموعة من النخبة التي تمتلك المهارات اللازمة لاتخاذ مثل هذه القرارات.[2]

تختلف نظرية النخبة في العديد من الجوانب عن النظرية الماركسية في تحليل الطبقات الاجتماعية إلا أنها تتفق معها في فكرة وجود طبقة تهيمن على الطبقات الأخرى، مع الأخذ بعين الاعتبار التفاوت في المواقف الأيديولوجية المرتبطة بها. كما يشير بوتمور: ((الواقع أن مفهوم الصفوة الحاكمة –على وجه الخصوص –يحاول تفادي مشكلة إثبات أن طبقةٍ معينة ... تسيطر بالفعل على كل وجوه الحياة الاجتماعية. ولكن ذلك قد يحدث فقط إذا ما ضحينا بأية محاولة تسعى إلى تفسير الظواهر التي تشير إليها

[1] **انظر:** رحيم، سعد محمد. المثقف الذي يدس أنفه، دار سطور للنشر والتوزيع، بغداد، 2016، ص 167.
[2] أبراش، ابراهيم. علم الاجتماع السياسي، يو للكتب، لندن، طبعة جديدة، 2011، ص 42-43.

هذه الطبقة. فالطبقة الحاكمة عند موسكا وباريتو تتألف من أولئك الذين يشغلون الأوضاع السياسية الهامة في المجتمع)). [1]

تؤكد نظرية النخبة أن القرارات الإدارية والسياسية والاجتماعية لا يمكن أن تستند إلى الإجماع الشعبي. لذلك، يكون اتخاذ مثل هذه القرارات في يد صانعي القرار القلة الذين يشغلون المواقع الاستراتيجية ويمتلكون القدرة على توجيه المجتمع وتحقيق رؤيتهم للصالح العام. وبالتالي، يشكل أصحاب هذه المواقع الاجتماعية النخبة في النظام الاجتماعي السياسي والثقافي. تبقى هذه التفسيرات قوية في الأدبيات النخبوية المعاصرة.

من المفارقات أن هذا التفسير المعاصر لحتمية النخبة قد أصبح أقل تطوراً مقارنةً بالنظرية الكلاسيكية التي اقترحها باريتو وموسكا. فعلى سبيل المثال، في افتراض باريتو للتوزيع غير المتكافئ للقدرات، يمكن رؤية تأثيرات من الداروينية الاجتماعية، حيث يُعتبر وجود النخبة نتيجةً لحاجة المجتمع لقوة مشتركة تحافظ على التزام وطاعة الأفراد للمجتمع. وهذا يشير إلى الفكرة المستمدة من فلسفة هوبز بأن السلطة تكمن في القوي، وهي فكرة تعتمدها نظرية باريتو في النخبوية وتفسير ظهور الطبقة النخبوية بسبب التفوق الفكري والاقتصادي. ومع ذلك، فإنه لا يمكن تجاهل الجذور القديمة لنظرية النخبة في كلا الحالتين، حيث تظهر هذه الجذور في أدبيات نظرية النخبة المعاصرة وتلقي بظلالها على تصورات المجتمع السياسي في الجدل المعاصر الدائر هو خصائص المجتمع المعاصر، فنجد مثلاً كاتباً معاصراً كروبرت دال يحيي بأسلوب حديث ومعاصر الجدل الذي أثاره أفلاطون وأرسطو بين دعاة الديمقراطية من جهة ودعاة الأرستقراطية أو حكم الفلاسفة الفضلاء من جهة أخرى، بحوار بين الديمقراطي (وهو المؤلف) والأرستقراطي وهو ممثل لحكم القلة أو (النخبة)، ففيما ينتقد الأرستقراطي الديمقراطية ويبين استحالة تطبيقها، وفي حالة تطبيقها يزعم أنها تهضم حقوق الممثلين الحقيقيين لهم بأخذ ما يستحقون من مواقع الدولة، فإن الأرستقراطي يقرر أن الحكم الأفضل هو حكم الأوصياء

[1] بوتمور. الصفوة والمجتمع، ترجمة: محمد الجوهري وآخرون، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1988، ص50.

أو حكومة المؤهلين لأنهم أكثر قدرة على فهم مصالح المجتمع وتحسس احتياجاته وحل مشاكله، بينما الغالبية من الناس يجب أن تستثنى من حق ممارسة السلطة لأنها إما جاهلة بالمصلحة العامة وبالأمور الاستراتيجية، أي أنها غير مؤهلة كفئة لممارسة الحكم، أو أنها منشغلة بهموم الحياة العادية وغير مكترثة بالأمور العامة والسياسية.[1]

تتجلى هنا عناصر تمييز باريتو بين النخبة السياسية والاقتصادية، وهو أمر بالغ الأهمية. ومع ذلك، لا يزال معيار باريتو في تحديد النخبة غامضاً وغير واضح المعالم خصوصاً عند تناول ما يميز النخبة عن اللانخبة، أي المجموعات النخبوية عن المجموعات غير النخبوية. بالرغم من أن القوة الاقتصادية والتأثير السياسي يشكلان عوامل هامة بلا شك، إلا أن تحديد الهيمنة النخبوية في المجالات الثقافية والعلمية والوظيفية يمكن أن يكون أيضاً عاملاً حاسماً. ويمكن رؤية هذه الهيمنة في مجالات متعددة، حيث يمكن للأفراد أن يحققوا مكانة النخبة من خلال إنجازاتهم وتقديرهم.

علاوة على ذلك، يتزايد الضغط الحضاري والاقتصادي لظاهرة العولمة، فالترابط في العالم قد زاد من تعقيد الإجابة عن سؤال "ما الذي يشكل النخبة؟"، حيث أصبح لدى الأفراد من مختلف البلدان والخلفيات الآن القدرة على أن يصبحوا جزءاً من النخبة المؤثرة في المجال العام من خلال توسع أنماط الاقتصاد والإنتاج والخروج عن المركزية الاقتصادية في البلدان المتقدمة. لذا، يجب إعادة تقييم الحدود التقليدية التي تحدد النخبة وتوسيعها، مع إيلاء اهتمام أكبر للهيمنة الثقافية والوظيفية كمعايير لتحديد النخبة. فقد تنشأ نخب جديدة من خلال التحولات الاقتصادية الحادة والتغيرات الجذرية في آليات الإنتاج العالمية، إنها على حد تعبير علي حرب: ((القوى الجديدة التي تسيطر على أسواق المال وشبكات الاتصال الخارقة للحدود بين القارات والمجتمعات، على نحو يتجاوز سلطة الدول الوطنية والمؤسسات الإقليمية. وعولمة الزمان تعيد رسم المجال السياسي لا على أساس الجغرافيا السياسية التي كانت حتى الآن تنظم العلاقات بين الدول والشعوب، بل في ظل نظام كوني للاتصال الدائم والتبادل المعمم، تتحول فيه

[1] أبراش، ابراهيم. علم الاجتماع السياسي، مرجع سبق ذكره، ص 66-67.

الأرض إلى مكان واحد، بقدر ما تنفتح الأمكنة المحلية على الخارج، لتصبح محلاً دائماً للتدفق والاتصال، بذلك يتداخل المحلي والكوني، بقدر ما تصبح السياسة الخارجية هي الوجه الآخر للسياسة الداخلية)). [1]

بالإضافة إلى ذلك، فإن مفهوم النخبة الكلاسيكية ليس متجانساً من حيث المفهوم والواقع الاجتماعي، ويمكن أن يختلف اعتماداً على السياق والمنظور. قد يختلف تكوين النخبة في مجتمع ما عن آخر، وقد لا يُعد الأفراد الذين يُعتبرون جزءاً من النخبة في مجال أو مهنة ما كذلك في مجال آخر. على سبيل المثال، يمكن أن تُعتبر مجموعة ما نخبة في المجال الثقافي، لكنها لا تكون جزءاً من النخبة الاقتصادية. وبالإضافة إلى ذلك، فإن النظريات الحديثة للنخبة قد طرحت تحدياً للمفاهيم التقليدية للنخبة، حيث أكدت على أهمية الشبكات الاجتماعية ورأس المال الثقافي والوصول إلى الموارد الثقافية والتعليمية. وقد ألقت هذه النظريات الضوء على دور القوة والامتياز في تشكيل النخبة، وجادلت بأن العوامل الاقتصادية ليست المحدد الوحيد للنخبة. لذا، فمسألة تمييز النخبة عن غيرها ليست قضية بسيطة ولكنها تتطلب نهجاً موسعاً ومتعدد المجالات لفهمها بشكل كامل. إذ أن الفهم الواضح لتشكيل وتوزيع السلطة والامتيازات بوضوح يُعتبر أمراً ضرورياً لتحقيق قدر أكبر من العدالة الاجتماعية والمساواة، *وإذا ما تأملنا مشكلات المقاييس العلمية الاجتماعية بوجه عام، فإننا نستطيع التوصل بسهولة، إلى استنتاج مفاده: أن التفرقة بين النخبة واللانخبة، على طريقة باريتو، ليست كافية على الإطلاق؛ ذلك أن أية محاولة لحساب معدل الحركة من قطاعات مختلفة في المجتمع إلى مستوى النخبة أو الصفوة لن تكون لها دلالة حقيقية، إلا إذا حصلنا على بيانات تتناول حجم النخبة وبنائها، والبناء الطبقي بوجه عام في مجتمع معين.*[2]

إن العبء الناجم عن اتخاذ قرار بناءً على مفهوم "الصالح العام" يمكن أن يؤثر على عملية اتخاذ القرار بطريقة غير موضوعية في حال قامت أقلية نخبوية بذلك. وبالتالي،

[1] حرب، علي: حديث النهايات – فتوحات العولمة ومآزق الهوية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2، 2004، ص 42.

[2] بوتمور. الصفوة والمجتمع، مصدر سبق ذكره، 1988، ص78.

يجعل هذا الجانب الأخير من نظرية النخبة أقل جاذبية للتوظيف مما كان عليه في السابق. ومن جهة أخرى، تُعَد النخبة مفهوماً طبقياً صراعياً من زوايا عديدة. على سبيل المثال، يفترض مفهوم ماركس للطبقة الحاكمة في المجتمع الرأسمالي وجود طبقة مهيمنة تسيطر على وسائل الإنتاج وتستغل عمل الطبقة العاملة. ووفقاً لماركس، تحافظ هذه الطبقة المهيمنة على سلطتها من خلال وسائل اقتصادية وسياسية، حيث أفرادها مدفوعون بالمصلحة الشخصية للحفاظ على مكانتهم المهيمنة. وبينما قد يبدو مفهوم الطبقة الحاكمة مشابهاً لفكرة النخبة، إلا أن ماركس يصف الطبقة الحاكمة على أنها مجموعة محددة داخل المجتمع، بينما يُمكن للنخبة أن تضم أفراداً من طبقات اجتماعية مختلفة يتشاركون مصالح مشابهة ويمارسون سلطة كبيرة. ومن جهة أخرى، تشير النظرية الطبقية إلى أن المجتمع ينقسم إلى طبقات اجتماعية متميزة تستند إلى عوامل اقتصادية واجتماعية، مثل الثروة والدخل والمهن. وكما يقول بوتمور: ((أن قيمة مفهوم ماركس للطبقة الحاكمة يتوقف إلى حد كبير على صدق نظريته الاجتماعية العامة. فإذا لم تكن هذه النظرية صادقة صدقاً عاماً، فسيترتب على ذلك تصور الطبقة الحاكمة كما لو إنها نابعة من القوة العسكرية فقط، أو إنها تعبر _ في الوقت الحاضر _ عن قوة الأحزاب السياسية. على أننا لا زلنا بحاجة إلى التحقق من أن اتحاد الطبقة الحاكمة قد تطلب تركز مختلف أشكال القوة في يدها؛ أي القوة الاقتصادية والعسكرية والسياسية. كما أننا لا زلنا بحاجة إلى التحقق من أن تكوّن هذه الطبقة قد بدأ حينما تم القبض على مقاليد القوة الاقتصادية)).[1]

وكما نلاحظ، يُشير ماركس إلى أن النخبة الاقتصادية والسياسية، وبشكل خاص في المجتمع الرأسمالي، تشكل كياناً واحداً لا ينفصم. وهذا يُعاكس تمييز باريتو الذي يُفرق بين النخبة السياسية والاقتصادية. ومع ذلك، فإن العنصر الذي يُميز النخبة عن غيرها ليس واضحاً ولا يُحَل ضمن نظرية النخبة الكلاسيكية. بالرغم من أن القوة الاقتصادية والتأثير السياسي هما عاملان حاسمان، إلا أن تحديد هيمنة النخبة في المجالات الثقافية والعلمية والوظيفية قد يكون له أيضاً دور حاسم.

[1] المصدر السابق، ص47.

يخضع مفهوم النخبة للتغيرات بمرور الوقت وتفاعله مع الهيكل الاجتماعي المعاصر. وتُظهر القراءة الدقيقة للمفهوم أنه ظاهرة تاريخية تظهر وتتطور في سياق التغيير الاجتماعي. تطرح هذه التطورات أسئلة حول علاقة النخبة بالإطار الديمقراطي للمجتمع ومدى تمثيلها لمصالح الأقلية على حساب الأغلبية. وتواجه الديمقراطية الكلاسيكية، التي نشأت في عصر الحداثة الأولى، تحديات كبيرة في التكيف مع تحولات ما بعد الحداثة، بما في ذلك التحولات الثقافية والسلطوية والمعرفية اللامركزية، وتعددية الحقائق. وقد شهد القرن العشرين تعزيزاً كاملاً للديمقراطية الكلاسيكية، والتي تواجه تحدياً متزايداً في تأكيد شرعية المؤسسات الاجتماعية والسياسية. مع انفجار ثورة المعرفة والمعلومات في القرن الحادي والعشرين، زادت التحديات التي تواجه الديمقراطية الكلاسيكية حدّةً.

إن ظهور التنوع الثقافي والتعددية صعّب على الديمقراطية الكلاسيكية الحفاظ على هيمنتها التقليدية، حيث تكافح للموازنة بين القيم التقليدية والحقائق الجديدة في إطار نظام عالمي سريع التغير، كما أن إضفاء طابع اللامركزية على السلطة والمعرفة أدى إلى تقويض مفهوم النظام المركزي والتسلسل الهرمي للمجتمع السياسي، حيث يُطالب الأفراد بمزيد من المشاركة في صنع القرارات التي تؤثر على حياتهم. وعلاوة على ذلك، سهل انتشار تكنولوجيا المعلومات الحصول على المعرفة والمعلومات خارج الهياكل السياسية التقليدية، مما زاد من تآكل قوة النخبة وتحدي شرعية المؤسسات السياسية. وفي هذا السياق، أصبح البحث عن الشرعية السياسية من قبل النخبة أمراً ضرورياً، حيث يكافح النخبويون للحفاظ على قوتهم ونفوذهم في عالم سريع التغير، *وقد تصدى مجموعة من المفكرين الغربيين لإظهار الأزمة الفكرية التي تواجه الفكر الديمقراطي المنغلق حول المفهوم الكلاسيكي للديمقراطية، وبالإضافة إلى أنصار نظرية النخبة الكلاسيكيين نجد جوزيف شومبيتر في كتابه الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية ينتقد بشدة المذهب التقليدي للديمقراطية بما يتضمنه هذا المذهب من مفاهيم كالخير العام وإرادة الأمة، واعتبرها مجرد خرافات، فالشعب في نظره عاجز عن حكم نفسه بنفسه، والمواطن العادي في نظره يتسم بالقصور واللامبالاة أمام الشؤون السياسية، وعليه، يطالب شومبيتر*

بتحويل مفهوم الديمقراطية من (حكم الشعب) إلى (حكم معتمد من الشعب) أو (حكم لصالح الشعب). فالديمقراطية الحقة هي التي تفسح المجال للأفراد الأكثر قدرة والأكثر نبوغاً على ممارسة الشأن السياسي، وإن أقصى ما يطمح إليه المواطن العادي هو ممارسة حقه "في قبول أو رفض من سيحكمه من خلال العملية الانتخابية".[1]

لقد تفاقمت التحديات التي تواجه الديمقراطية الكلاسيكية بسبب ظهور ملامح ثقافة ما بعد الحداثة، التي تشكك في أسس الحداثة والديمقراطية الكلاسيكية. إذ تتحدى ما بعد الحداثة فكرة أن هناك حقيقة أو حقيقة واحدة موضوعية، وتجادل بدلاً من ذلك بأن الحقيقة ذاتية ونسبية، وأنه يجب أخذ العديد من وجهات النظر والروايات في الاعتبار في أي محاولة لفهم العالم. وبهذا المعنى، تواجه الديمقراطية الكلاسيكية التحدي المتمثل في التوفيق بين نظام ثقافي وسياسي يقوم على فكرة الحقيقة الواحدة والموضوعية، وعالم ما بعد الحداثة الذي تكون فيه الحقيقة ذاتية للغاية ويجب أن تؤخذ في الاعتبار وجهات نظر متعددة. وفي نهاية المطاف، سيعتمد نجاح الديمقراطية في مواجهة هذه التحديات على قدرتها على التطور والتكيف مع العالم سريع التغير من حولنا، وهو ما يفترض على النخب الاجتماعية والثقافية إعادة هيكلة طرق التواصل والإنتاج الثقافي.

ثانياً–النخبة المعاصرة وقيم المجتمع السياسي:

إن التنمية الثقافية لها أهمية حاسمة ليس فقط في تقدم العلم والأدب، بل أيضاً في ظهور نخبة ثقافية وعلمية. ومع ذلك، فإن التطور الثقافي يتطلب درجة عالية من الحرية، بالإضافة إلى ظهور مجتمع حر غير مقيد بجمود التقاليد الثقافية والتراثية والدينية والسياسية. ولا يمكن تحقيق التنمية الثقافية إلا عندما يُسمح للأفراد بالتعبير عن أنفسهم بحرية، واستكشاف مواهبهم ومصالحهم دون تضييق أو رقابة اجتماعية. وبالتالي، يفترض تشكيل شبكات ثقافية خارج قيود المؤسسات التقليدية، لتمكين الأفراد من التواصل والتعاون على أساس القيم والمصالح المشتركة. وفي هذه الحالة يمكن للنخبة الثقافية الناشئة أن تقود الطريق نحو تعزيز فهمنا للعالم، والتحرر من قيود الماضي، وتمهيد

[1] أبراش، ابراهيم. علم الاجتماع السياسي، مرجع سبق ذكره، ص 64.

الطريق لمستقبل أكثر إشراقاً. ولا يمكن للتنمية الثقافية أن تكون ناجحة حقاً إلا عندما تكون المجتمعات منفتحة وترحب بالأفكار الجديدة، ولا تحدها قيود التقاليد، وتلتزم بشكل تام بالسعي إلى المعرفة والتقدم. وعلى حد تعبير سعد محمد رحيم: فإننا ((حين نقول الحرية فإننا إنما نتحدث عن الإنسان الحر والمجتمع الحر... الإنسان الحر الذي لن يكون إلا في مجتمع حر. ولن يخلق الإنسان الحر إلا في إطار علاقات اجتماعية محدّدة بقوانين وتقاليد وأعراف ومؤسسات، وفي سياق تطور تاريخي حاصل...)).[1]

والحرية قيمة أساسية في ثقافة أي مجتمع حديث، ولكن لا يمكن ذلك إلا عندما يُنشئ المجتمع مؤسسات اجتماعية وفكرية ناضجة تكفل استمرارية ثقافة الحرية المسؤولة. وبدون هذه المؤسسات، يمكن أن تنحدر الحرية بسرعة إلى حالة من الفوضى، حيث يتصرف الأفراد لمصلحتهم الذاتية وحدها، دون اعتبار لحقوق الآخرين وحرياتهم. فتكفل المؤسسات الاجتماعية المتقدمة حصول الأفراد على الموارد والفرص التي يحتاجونها للازدهار، مع تعزيز الشعور بالمسؤولية المجتمعية والجماعية. وهذ يسمح للأفراد بممارسة حرياتهم دون المساس بحقوق الآخرين. وبالمثل، تكفل المؤسسات الفكرية حصول الأفراد على المعارف والتعليم المتقدم والحديث لاتخاذ قرارات مستنيرة والتصرف بمسؤولية، سواء تجاه أنفسهم أو تجاه الآخرين، وبمعنىً آخر تعزيز تفكيرهم العقلاني، ولكن الإشكالية الحقيقية تظهر عندما يتم تطبيق قيم الحرية في حالة تفاوت في توزيع المقدرات والثروات في المجتمعات الحديثة، وهو ما يؤدي بدوره إلى اختلال في حدود الحرية بالنسبة للمواطن في المجتمع الحديث، *فحين تكون الحرية امتيازاً فئوياً لنخبة ما على حساب فئات أخرى، ستبقى هذه الحرية مثلومة، ولا أخلاقية، ومهدّدة في كل لحظة، فلا يمكن بناء دولة حديثة منتجة محترمة من غير أن يكون رائدها مبدآن: العدالة الاجتماعية، وخلق مواطنين أحرار متساوين في الفرص وأمام القانون الذي يمتلك السلطة*

[1] رحيم، سعد محمد. المثقف الذي يدس أنفه، دار سطور للنشر والتوزيع، بغداد، 2016، ص 72.

العليا، من هنا، فالحرية ليست مقولة مجرّدة، وإنما هي وليدة الحياة وتوأمها، ولن تكون واقعاً حقيقياً في عصرنا الحديث خارج إطار علاقات سويّة داخل المجتمع.[1]

يفترض على المؤسسات الاجتماعية أن تعزز ثقافة الحرية المسؤولة، حيث يتاح للأفراد حرية السعي وراء مصالحهم وأهدافهم، مع فهم المسؤوليات المرتبطة بهذه الحرية. ولا يمكن إنشاء مجتمع حرٍ حقاً إلا من خلال تطوير هذه المؤسسات الاجتماعية، حيث يتم تمكين الأفراد ليعيشوا حياة مرضية ويسهمون في تحسين المجتمع بشكل عام. فالعمل هو جوهر الحرية، والقدرة على تحقيق الذات يتطلب التخلص من الشعارات الفارغة، والعمل الجاد، وتحقيق النجاح المهني والعلمي، وبناء المؤسسات الاجتماعية التي تدعم حياة الفرد بشكل مستدام، ((فالحرية تضمنها قوانين ومؤسسات وآليات عمل وعلاقات إنتاج جوهرها العدالة، وإنْ بالحدود الدنيا. هنا نخرج من غموض المعنى الفلسفي لها إلى وضوح تجسدها في دولة حرة وعادلة)).[2]

غالباً ما يُنظَر إلى الديمقراطية على أنها رمز للحرية والتقدم في المجتمع الحديث. فهي قيمة حداثية وضرورية ضمن ثقافة المجتمعات الحديثة. وتوجد انقسامات عالمية بين الديمقراطية الشعبية التي تزدهر في البلدان النامية، والديمقراطية الليبرالية التي تزدهر في الدول الغربية. في كلتي الحالتين، يجب أن ندرك أن الديمقراطية يمكن أن تُنتج أيضاً أغلبية تنجرف نحو فرض السيطرة التعسفية على المجتمع، نستدعي هنا مثالاً كلاسيكياً وهو جمهورية فايمار التي أفضت إلى ظهور النازية في نهايتها، والتي تجسدت بتجربة أدولف هتلر. ومن أجل ضمان ديمقراطية عادلة، على الأقل على المستوى النظري، يجب فرض قيود على هيمنة الأغلبية الانتخابية. وذلك بسبب أن الأغلبية ليست دائماً على صواب، ويمكن أن تتأثر بالديماغوجيين أو أن يتم التلاعب بها من قبل أصحاب المصالح الخاصة. ومع ذلك، يجب أيضاً ملاحظة أن النخبة الأقلية يمكن أن تسعى لفرض ثقافتها وتأثيرها على المجتمع، وهذا يتعارض مع دور النخبة في المجتمع

[1] المرجع السابق ذاته، المكان ذاته.

[2] المرجع السابق ذاته، ص 72– 73.

الديمقراطي. إذ يجب أن يتم توفير التوجيه والقيادة، مع احترام حقوق وحريات جميع الأفراد. ففي المجتمعات التقليدية، عادة ما تكون هناك نخبة ثقافية تمتلك نفوذاً وسلطة خاصة، وهذا يظهر من خلال التفكير في مفهوم الخاصة والعامة في الثقافة العربية وثقافات آسيا والشرق الأقصى. وهذا يتعارض مع مبادئ المجتمع الديمقراطي الحديث كما تصوره النظريات الغربية الحديثة. فعادةً ما تعتمد المجتمعات التقليدية على هياكل هرمية وتسلسلات اجتماعية صارمة، مع تقديم فرص محدودة للتحرك الاجتماعي أو الحريات الفردية. وعلى الجانب المقابل، تسعى المجتمعات الغربية الحديثة إلى توفير ساحات لعب متكافئة وفرص متكافئة لجميع الأفراد، بغض النظر عن وضعهم الاجتماعي أو خلفيتهم، بما يتوافق مع المبادئ القانونية والنظرية. *ويتعامل جوزيف سارتوري مع الديمقراطية بالشكل الذي تعامل أفلاطون معها، حيث رأى أن دور النخبة في المجتمع يجب أن يكون كبح جماح الأغلبية، حتى لا تسود الغوغائية التي تطيح بالاستقرار السياسي، وبالتالي أقام نوعاً من التقابل بين الأغلبية والنخبة، باعتبار النخبة نوع من الأقلية، وهو لا يرى أي تعارض بين حكم النخبة والديمقراطية، فالديمقراطية في نظره هي عملية اتخاذ قرارات يستجيب فيها القادة لتفضيلات المحكومين، فيما ركز على أهمية القيادة، وهو ما فعله منظروا النخبة أيضاً، فالديمقراطيات تعتمد على نوعية قادتها، فالمهم في السياق النظري هنا ليس حكم الشعب بالضرورة، بل ضمان الاستقرار السياسي في المجتمع حتى تتمكن الدولة من مواجهة التحديات الداخلية والخارجية خصوصا*. [1]

لقد أعطت الديمقراطية المعاصرة دوراً أكبر للنخب، وذلك بسبب الطبيعة المتغيرة للمجتمع الحديث. فقد اكتسبت النخب مهارات وخبرات ومعرفة تمنحها ميزة في إدارة المجتمعات ومؤسسات الدول الحديثة، وتشكيل الرأي العام. وبالرغم من نفوذها الكبير، يفترض أن تكون مساءلة النخب مسألة متاحة وممكنة، ومن ثمّ تعزيز قوة وشفافية المؤسسات الديمقراطية. فالتوازن في هذه المؤسسات بين سلطة النخب وحقوق وحريات الأفراد مسالة ضرورية لضمان الاستقرار، ومن ثمّ يتعزز المجتمع التشاركي بحيث يتاح

[1] أبراش، ابراهيم. علم الاجتماع السياسي، مرجع سبق ذكره، ص 64-65.

فيه لكل فرد المشاركة بشكل معنوي في العملية السياسية. وينبغي أن ندرك أن العملية الديمقراطية تحمل في طبيعتها بعض العيوب، إذ تميل في كثير من الأحيان إلى تحقيق أغلبية غير متماسكة. وقد يرجع ذلك إلى حقيقة أن الناخبين قد لا يكون لديهم فهم كامل للقضايا المعقدة المطروحة أو قد يتأثرون بالتحيزات والعواطف بدلاً من التفكير المنطقي. إضافة إلى ذلك، غالباً ما تعطي العملية الديمقراطية الأولوية للكم على الجودة الفردية، ويمكن أن تنطبق المشكلة نفسها على النخب التي تنشأ عن العملية السياسية في المجتمعات الليبرالية، إذ قد تحصل على معلومات وموارد لا تتوفر لعامة الناس، *وقد لاحظ فريدريك (Friedrich) ، كما يورد بوتمور، أن أحد النقاط المحيرة في كل نظريات النخبة هي تسليمها بالفرضية الذي مؤداها، أن شاغلي أوضاع القوة يشكلون بالفعل جماعة متماسكة، ففي ضوء التغير المستمر الذي يطرأ على بناء الأغلبية يصبح من الصعب القول بأن الذين يلعبون الدور الحاسم في إدارة المؤسسات الاجتماعية يشكلون جماعة متماسكة. وتزداد صعوبة إثبات هذا القول إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الظروف السائدة في المجتمعات الديموقراطية الغربية*. [1]

تعتبر النخبة ظاهرة معقدة تتطلب تحليلاً دقيقاً، حيث تتشكل من مجموعات مصالح متداخلة بين أعضائها. وقد تكون هذه المجموعات مترابطة ولكنها قد تكون أيضاً تشكيلات متصارعة تحمل مصالح متنوعة ومتناقضة، وربما تتفق جميعها على نهج واضح ومتكامل لإدارة شؤونها وامتيازاتها. تتكون مجموعات المصالح هذه من أفراد يحظون بمكانة اجتماعية بارزة، مثل الرأسماليين وأصحاب المناصب الإدارية، ورجال الأعمال، وأصحاب المكانة الاجتماعية. فتتراوح مصالحهم بين النمو الاقتصادي والقوة السياسية والتأثير الثقافي والمكاسب الشخصية. وعلى الرغم من أن بعض الأشخاص يرون أن النخبة تلعب دوراً حيوياً في تشكيل المجتمع والحفاظ على الاستقرار، إلا أن البعض الآخر ينظر إليها على أنها مجموعة تعمل في خدمة مصالحها الشخصية. يسلط التنوع والترابط بين مجموعات المصالح داخل النخبة الضوء على الطبيعة المعقدة لديناميكيات السلطة وعدم المساواة في المجتمعات الحديثة. لذلك، من الأهمية بمكان فهم

[1] بوتمور. الصفوة والمجتمع، مصدر سبق ذكره، ص 52.

دوافع وسلوكيات النخبة لضمان تأثيرها في مصلحة جميع أفراد المجتمع وليس فقط القلة المختارة. وعلى الرغم من النفوذ الذي تتمتع به، فإن النخبة الحديثة ليست محصنة ضد الصراعات الداخلية أو التحديات الخارجية، وقدرتها على التوحد والتعاون ستحدد في النهاية مسار التقدم الاجتماعي والسياسي في أي مجتمعٍ كان، *وهناك الآن تسليماً متزايداً بوضع النخبة داخل المجتمعات الديموقراطية الحديثة؛ ولقد بدأ ذلك واضحاً في نتائج بعض الدراسات الحديثة التي تناولت الطبقات العليا في المجتمع البريطاني تبعاً لبوتمور، فالنخب وخصوصاً السياسية، ليست جماعة مترابطة أو متحدة تماماً. كما ليس أعضاؤها في مركز النظام الشمسي كما يتخيل البعض. إنهم يشكلون دوائر متباعدة، لكل منها أهدافها الأساسية وانشغالاتها باعتباراتها المهنية والتقنية، ولا تعدو علاقتها ببعض أن تكون تداخلاً عند الأطراف، فهم لا يشكلون مؤسسة واحدة، بل دائرة مؤلفة من مؤسسات. أما الانقسام والتوازن بين الدوائر المختلفة فيمثلان أعظم ضمان وأمان للمجتمع الديموقراطي. وإذن فليس هناك إنسان يستطيع أن يقف في مركز الدائرة. لأن مثل هذه الدائرة ليس لها بالطابع مركز معين.*[1]

لقد أدركت المجتمعات المعاصرة في شتى أنحاء العالم أهمية الحرية كقيمة أساسية في الثقافة السياسية. على الرغم من وجود اختلافات في فهم وممارسة الحرية بين الثقافات، إلا أن هناك اعترافاً متزايداً بأن الأفراد يحملون حقوقاً غير قابلة للتصرف يجب حمايتها. ومع ذلك، لا يمكن تحقيق الحرية في العزلة الاجتماعية، بل تتطلب وجود مجموعة مؤسسات تعليمية وثقافية تعزز ثقافة الحرية والمسؤولية. تلعب المؤسسات التعليمية دوراً محورياً في تطوير القيم الديمقراطية وثقافة الحرية، حيث توفر منصة لنقل المعرفة والمعلومات التي تمكّن الأفراد من اتخاذ قرارات مستنيرة بشأن حياتهم. كما تنمّي مهارات التفكير النقدي التي تمكّن المواطنين من تحليل القضايا من وجهات نظر متعددة، فمن الناحية الثقافية، تدعم مؤسسات مثل المتاحف والمكتبات والمسارح الحرية الفردية من خلال توفير الموارد والمساحات للتعبير الفني والفكري. ومع ذلك، فإن الحرية هي طريق ثنائي الاتجاه. جنباً إلى جنب مع الحرية تأتي المسؤولية بوصفها الجوهر

[1] المصدر السابق ذاته، المكان ذاته.

الأخلاقي لممارسة الحرية، *ربما نتفق مع أولئك الذين يقولون إن الحرية فطرية، لكنها من جانب آخر نتاج تربية وتعليم، فالفطرة لا تقدم إلا الإحساس والرغبة بالحرية، ولكن فن ممارسة الحرية والسلوك المسؤول على أساسا الحرية، هي أشياء تعلّم، فيتربى المرء على تقاليدها وأعرافها ومبادئها المنشودة، فالإنسان الحقيقي بهذا المعنى هو الكائن الذي لا يخاف الحرية، ويعرف أن الحرية عبء، والحرية مسؤولية، والحرية هي نبذ الاتكالية، ومواجهة تقلبات الظروف بشجاعة، والسعي لأجل تغييرها. وللأسف فإن المرء في بيئة مجتمعاتنا العربية الأبوية، غالباً، ومنذ نعومة أظفاره يتعلم كيف يخضع، وكيف يطيع بلا قراءة نقدية لواقعه، لا كيف يتساءل ويختار. فما يزال الفكر الجبري هو السائد عندنا، وهو الذي يبث أنساقه في لاوعي الأفراد. مثل هذه بيئة تعلّم الخنوع والتردد والخوف والاتكالية أكثر مما تعلّم إعمال الفكر، فالحرية، من زاوية نظر أخرى، قيمة أخلاقية، وأي خدش في جلدها يترك أثراً ضاراً في لحم الكرامة... بغياب الحرية تتجرح الكرامة في العمق.*[1]

عند هذه النقطة يبدو جلياً أهمية دور النخب الاجتماعية في غرس قيم المسؤولية وقيم الحرية وقيم المجتمع السياسي التقدمي المسؤول، وتتجلى هنا أهمية وعي المواطنين أن أفعالهم لها عواقب وأن عليهم واجب تجاه الآخرين وتجاه مجتمعاتهم الحاضنة لهم. وهذا يعني أن المؤسسات هي التي تتحمل غرس الإحساس بالمسؤولية المدنية واحترام سيادة القانون. وأن هناك مسؤوليةً لتخلق مساحات فكرية ومعرفية حيث يمكن للأفراد الانخراط في حوارات بناءة تعزز التسامح والتنوع والشمولية. فالحرية هي حجر الزاوية للثقافة السياسية المعاصرة في كل من الشرق والغرب. لكن تحصيلها يتطلب مجموعة من المؤسسات التعليمية والثقافية التي تنمي ثقافة الحرية والمسؤولية. ويجب أن تكفل هذه المؤسسات حصول الأفراد على المعلومات، وتنمية مهارات التفكير النقدي، وفهم حقوقهم ومسؤولياتهم كمواطنين. يجب أن توفر مساحات تعزز التعبير الفني والفكري، مع غرس الشعور بالمسؤولية المدنية واحترام سيادة القانون.

[1] رحيم، سعد محمد. المثقف الذي يدس أنفه، مرجع سبق ذكره، ص 73.

ثالثاً–المثقف النخبوي في واقع المجتمعات العربية:

إن خطاب المثقف حول العلاقة الثقافية والحضارية بين العالمين الغربي والعربي هو خطاب معقد ومتعدد الأوجه. وبصفة المثقف النخبوي ناقداً ومراقباً للمجتمع، فإن هدفه هو تقديم تحليل نقدي لهياكل السلطة والأيديولوجيات الحالية التي تشكل هذه العلاقات الاجتماعية الراهنة. لذلك، يكون دور المثقف هو تقديم رؤية بديلة للعالم، رؤية تتحدى طرق التفكير المعتادة وتشجع وجهات النظر الجديدة، وكل ذلك بهدف تطوير المجتمع وتنميته فكرياً وثقافياً. ومع ذلك، فإن خطاب المثقف لا يخلو من المخاطر المتعلقة به. فالتلاعب الأيديولوجي بالحقيقة والواقع يعد واحدة من المخاطر المحتملة التي يجب على المثقفين إدراكها. هناك دائماً خطر من أن يستغل المثقفون مواقعهم ونفوذهم لترويج أجنداتهم الشخصية، بدلاً من الانخراط في نقاش مفتوح وصادق. وقد يؤدي ذلك إلى نشر معلومات غير موثوقة وتشويه الواقع. ومن الجانب الآخر، يجب الاعتراف بأن المفكرين يحتلون مكانة مهمة وخطيرة في المجتمع. فتحليلهم وانتقاداتهم يمكن أن يساعد في كشف هياكل السلطة الخفية في المجتمع، وتوفير المساحة لأفكار جديدة. ولذا، يكون دور المثقف أساسياً في تشجيع الحوار وتعزيز التفاهم بين الثقافات المختلفة، ((طبعاً، هذا ما يقوله لنا المثقف أو ما يصرح به في مضمون خطابه. ولكن الخطاب هو دوماً غير ما يعلنه. إنه يحجب الواقعة الأساسية التي ينشئها فيما هو يتكلم على أشكال التسلط أو على آليات التلاعب بالحقيقة، أعني أنه يخفي حقيقته وسلطته، ويتستر على فعله وأثره، ويتناسى مخاتلاته وألاعيبه، وهكذا فالمثقف يعلن انحيازه إلى المقهورين في مواجهة سلطة القهر، فيما هو يشكل سلطته ويمارس سيطرته؛ أو يعلن أن شاغله هو كشف الحقائق، فيما هو يصنع حقيقته عبر نصه وخطاب؛ أو هو يحدثنا عن حلمه بمجتمع تنويري تحرري قائم على المساواة، فيما هو يمارس نخبويته ويحجب إرادته في التفرد والتمايز)).[1]

[1] حرب، علي: أوهام النخبة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3، 2004، ص 56.

ويعد خطاب المثقف حول العلاقة بين العالمين الغربي والعربي مكوناً أساسياً للثقافة السياسية المعاصرة في العالم العربي. ومع ذلك، يجب التعامل معه بحذر، لأن موقع نفوذ المفكر وسيطه يخلق فرصاً للتلاعب الأيديولوجي بالحقيقة. ومع ذلك، يظل دور المفكر في تعزيز الحوار والتفاهم أساسيا، لأنه يشجع على المشاركة الحاسمة ويوفر حيزا للرؤى البديلة للعالم. فسلطة المثقف متجذرة في قدرتها على تقديم تحليل نقدي وأفكار تتحدى هياكل السلطة الاجتماعية والتقليدية. هذه السلطة مبنية على أسس اجتماعية مؤسساتية مثل التعليم العالي ومراكز الفكر والمؤسسات الثقافية من جهة، ومؤسسات تقليدية مثل سلطة رجل الدين والسلطة الأبوية من جهة أخرى. وتوفّرُ المؤسسات الثقافية _التي يفترض أنّ النخب الثقافية تهيمن عليها_ منصةً للمفكرين لتطوير أفكارهم والمشاركة مع قادة الفكر الآخرين، مما يؤدي في النهاية إلى بلورة النخبة الثقافية المتجددة. فسلطة المثقف مهمة لأنها توفر رؤية بديلة للعالم، رؤية تتحدى طرق التفكير الراسخة وتعزز الحوار والتفاهم. كذلك يمكن استخدام سلطة المثقف لتسليط الضوء على الهياكل السلطوية للمجتمع وخصوصاً السلطة الأبوية والدينية والعرفية، وآليات التلاعب بالجمهور، كما يقدم المثقف رؤيته الخاصة للتغيير اجتماعي وسياسي أو للتوجه الاجتماعي الذي يدفع نحوه. في الوقت نفسه، يمكن أن تكون سلطة المثقف خطيرة إذا تم استخدامها للترويج لأجندة المؤسسات الاجتماعية الراسخة ودوائر المصالح أو أيديولوجياتها الخاصة، إذ ((صحيح أن سلطة المثقف هي من نوع آخر، بمعنى أنها ليست سلطة مادية أو اقتصادية، بل هي سلطة رمزية، أي سلطة الكلام والكتابة، مقابل سلطة السيف والمال. ولكنها سلطة في النهاية، تمارس على النفوس والعقول، بواسطة المنتوجات الرمزية المتمثلة في الأفكار والمعارف، أو في العقائد والطقوس، أو في الشهادات والألقاب... والسلطة الرمزية تمارس على هذا النحو منذ زمن العراف القديم إلى زمن المثقف الحديث، مروراً بالكهنة والقساوسة، فضلاً عن الفقهاء الذين برزوا مجدداً على المسرح، بعد أن هُمّش دورهم لصالح المثقف الحديث ذي الجذر الليبرالي أو القومي أو الماركسي)).[1]

[1] المرجع السابق ذاته، ص 56-57.

وتعد علاقة المثقف بعالم السياسة معقدة ومتعددة الأوجه. فمن جهة، يسعى المفكرون إلى تقديم تحليل نقدي لهياكل السلطة السياسية والأيديولوجيات، وتحدي أساليب الفكر المهيمنة واقتراح رؤى بديلة. ومن ناحية أخرى، قد يتم استغلال المفكرين كأدوات من قبل السياسيين الذين يسعون لإضفاء الشرعية على سلطتهم، مما يؤدي في بعض الأحيان إلى اندماج الثقافة مع السياسة، وقد برزت هذه الظاهرة في حالات الاختراق الكولينيالي للمجتمعات العربية، وكذلك في حالات التدخلات الخارجية وغيرها. وكذلك نجد العلاقة بين الثقافة والسياسيين معقدة بما يجعلها في كثير من الحلات ملتبسة مع تداخل الثقافي والسياسي. ويمكن للسياسيين استخدام الثقافة كشكل من أشكال القوة الناعمة لترويج أجندات أو أيديولوجيات معينة. على الجانب المقابل، يمكن استخدام الثقافة أيضاً كوسيلة للمقاومة والتمرد ضد السلطة السياسية. تتجلى هذه التفاعلات بين الثقافة والسياسة بشكل خاص في الطبقات النخبوية، حيث يتقاطع رأس المال الثقافي مع السلطة السياسية. فالعلاقة بين الثقافة والسياسة تؤثر بشكل كبير على مؤسسات المجتمع الحديث. حيث يمكن للمؤسسات الثقافية، مثل المؤسسات الأكاديمية ووسائل الإعلام والمجتمعات التقنية، أن تؤثر في شكل الرأي العام والخطاب، مما يؤثر على المشهد السياسي بشكل عام. في الوقت نفسه، يمكن للسياسيين أن يؤثروا على المؤسسات الثقافية من خلال قراراتهم السياسية واستراتيجيات التمويل. هذا التفاعل المتبادل بين الثقافة والسياسة يشكل جانباً أساسياً في المجتمع الحديث، ويشكل فهمنا للسلطة ويؤثر في الاتجاه المستقبلي للمجتمع. وبجميع الأحوال ينتمي المثقفون ((إلى عصرهم، وتسوقهم معاً السياسة الجماهيرية القائمة على الصور الفكرية التي يجسدها الإعلام أو صناعة أجهزة الإعلام، وهم لا يستطيعون مقاومة هذه الصور إلا بالطعن فيها، والتشكيك فيما يسمى " بالروايات الرسمية"، ومبررات السلطة التي تروجها أجهزة إعلامية ذات قوة متزايدة– بل لا يقتصر الأمر على أجهزة الإعلام إذ يتضمن اتجاهات فكرية تكرس بقاء الأوضاع الراهنة ووضع الأمور في إطار منظور مقبول للأمر الواقع– كما إنهم يقومون بما يسميه ميلز نزع الأقنعة، وتقديم صور بديلة يحاول المثقف فيها أن يكون صادقاً ما وسعه الصدق)). [1]

[1] سعيد، إدوارد: المثقف والسلطة، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006، ص 57.

ومن وجه آخر يمكن أن يكون صراع المثقفين في الانتماء معقداً ومتعدد الأوجه، حيث يجب عليهم التغلب على التوتر بين طبقتهم الاجتماعية ودورهم الاجتماعي ومكانتهم. من ناحية، ينتمي المثقف إلى طبقة اجتماعية معينة بثقافتها وقيمها المتميزة. ومع ذلك، وكنتيجة لمسعاهم الفكري وتعليمهم، قد يشغل المثقفون أيضاً دوراً اجتماعياً مختلفاً ومركزاً ومتمايزاً، مما يجعلهم في كثير من الأحيان على اتصال بأشخاص وجماعات مختلفة. ويمكن زيادة هذا التوتر من خلال ولاء المثقف أو عدم ولائه لمؤسسات الهيمنة الثقافية والسلطة الاجتماعية. تشير الهيمنة الثقافية إلى القوى الثقافية المهيمنة التي تشكل الرأي العام والخطاب الثقافي، وغالباً ما تدعم هذه القوى الثقافية هياكل السلطة الاجتماعية العميقة كالعلاقات الأبوية الثقافية. قد يتحدى المثقفون هذه القوى المهيمنة، سعياً إلى تعزيز رؤى أو وجهات نظر بديلة. ويمكن أن يضعهم هذا في بعض الأحيان على خلاف مع هياكل السلطة الاجتماعية، التي غالباً ما تسعى إلى الحفاظ على الوضع الراهن. نتيجة لذلك، يجب على المثقف أن يتنقل في عمل توازن دقيق في كثير من الأحيان بين ولائه للمؤسسات الثقافية التي تعزز عمله وإحساسه بالعدالة الاجتماعية والمسؤولية. في حين أن بعض المثقفين قد يختارون الانضمام إلى هياكل سلطة ثقافية أو اجتماعية محددة، وقد يسعى آخرون إلى الحفاظ على مسافة حرجة، والبقاء مستقلين وموضوعيين، يقول إدوارد سعيد في هذا الصدد، ((لكن المثقف تحاصره دائماً، وتتحداه بلا هوادة، مشكلة الولاء. فكل منا، وبلا استثناء، ينتمي إلى لون ما من الجماعات القومية أو العقلية أو الدينية، ومن المحال على أي أحد، مهما يبلغ حجم احتجاجاته أو إنكاره، أن يقول إنه قد ارتفع فوق الروابط الحيوية (العضوية) التي تربط الفرد بالأسرة وبالمجتمع، وبطبيعة الحال، بالقومية كذلك. فإذا كان الأمر يتعلق بجماعة نشأت من عهد قريب أو تعرضت للحصار–مثل البوسنيين أو الفلسطينيين اليوم–فإن الإحساس بأن شعبك يهدده الفناء أو الانقراض السياسي بل والمادي فعلاً يلزمك بالدفاع عنه، وبأن تفعل كل ما في طاقتك لحمايته، أو للقتال ضد أعداء الأمة. هذه وطنية " دفاعية" بطبيعة الحال)). [1]

[1] المرجع السابق ذاته، ص 84.

وهكذا نجد أن صراع المثقفين في الانتماء معقد ومتعدد الأوجه، ويتطلب منهم التغلب على التوتر بين طبقتهم الاجتماعية ودورهم الاجتماعي ومكانتهم. يزداد هذا الصراع تعقيداً بسبب ولائهم أو عدم ولائهم للهيمنة الثقافية وهياكل السلطة الاجتماعية. في النهاية يجب على المثقفين مواجهة هذه التحديات بنزاهة وهدف، والحفاظ على التزامهم بالتفكير النقدي والعدالة الاجتماعية.

تمتلك النخب الثقافية، التي تشمل النخب الفكرية والثقافية، تأثيراً كبيراً على الجماهير نظراً لمعرفتهم ووضعهم الاجتماعي ورأس المال الثقافي الذي يتمتعون به. يمارسون هذه السلطة من خلال وسائل مختلفة مثل وسائل الإعلام والتعليم والمناسبات الثقافية. ومع ذلك، يمكن استغلال هذه السلطة وإساءة استخدامها بذات القدر، مما يؤدي إلى تهميش الجماهير بشكل أكبر. ونظراً للتخلف الاقتصادي والأزمات المجتمعية، قد تصبح النخب الثقافية أكثر تمسكاً بمواقفها وأقل استجابة لاحتياجات الجماهير. هذا السلوك يمكن أن يؤدي إلى ثقافة النخبوية والانفصال عن صراعات العالم الحقيقي للمجتمع الأكبر. بالإضافة إلى ذلك، قد تشعر الجماهير بالغربة والانفصال عن النخب الثقافية، مما يؤدي إلى انعدام الثقة والاحترام تجاهها. وهكذا ((يمكن أن نخلص إلى أن الثقافة السياسية على صعيد الجماهير والنخبة في الوطن العربي، تفتقر إلى العناصر اللازمة للتوظيف الديمقراطي الفعّال بسبب التشوّهات التي تكتنف الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والتربوي. هذه الحقيقة لا ينبغي أن تتخذ، كما قد يتصور البعض، مبررا للإحجام عن التطبيق الديمقراطي. إذ نعتقد أن الديمقراطية التي تكفل قيام البناء السياسي على المشاركة الشعبية الايجابية هي مدخل ضروري إلى ايجاد ثقافة مدنية سيما أنها، أي المشاركة ضلع رئيسي في أي جهد تنموي عربي جاد وضمان لتحرير النسق التربوي من المفاهيم والميول التسلطية)).[1]

[1] المنوفي، كمال. الثقافة السياسية وأزمة الديمقراطية، الثقافة والمثقف في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1992، ص 183.

وبطبيعة الحال، يعتمد مدى احترام الجماهير أو انفصالها عن المثقفين على عوامل مختلفة، مثل تعامل المثقف مع القضايا الاجتماعية، ومستوى الشفافية في عمل المثقفين، ودرجة المساءلة التي يتحملونها تجاه المجتمع الأكبر. ومن المرجح أن يكتسب المثقفون الأكثر انخراطًا وشفافية ومساءلة احترام وثقة الجماهير. في المقابل، من المرجح أن تبتعد الجماهير عن المفكرين الذين قد يُنظر إليهم على أنهم منفصلون ونخبويون ويخدمون أنفسهم، مما يؤدي إلى فقدان الاحترام والشرعية في عملهم، ولكن ذلك مشروط بشفافية ووعي إيديولوجي من قبل الجمهور، إذ كثيراً ما نجد أن اتجاهات إيديولوجية تكتسب شعبية مفرطة على أسس عرقية أو دينية أو شعاراتية دون فعالية حقيقية على الأرض في مجال تنمية المجتمع. ويرتبط وضع وسلوك المثقف في مجتمعات العالم الثالث ارتباطاً وثيقاً بالظروف الاقتصادية والمجتمعية. عندما يواجه المجتمع أزمات أو صراعات، قد يصبح المثقفون أكثر انخراطاً في النشاط والعمل التوعوي والتثقيفي والتنموي. ومع ذلك، عندما تتحسن الظروف الاجتماعية، فقد تصبح أكثر تركيزاً على المساعي الأكاديمية والفكرية، مما يؤدي إلى انفصال من نوع آخر عن حاجات المجتمع الأوسع، وأما ما يخص مجتمعنا العربي، فإن الظاهر هو تغلغل المصالح الشخصية والفئوية في سلوكيات طبقة المثقفين النخبويين، وهذه ظاهرة موجودة للأسف في كثير من الحالات، فيما يظل المثقف النخبوي الباحث عن تنمية مجتمعه نموذجاً قائماً وإن واجهته صعوبات، ((ولا مبالغة في القول بأن المثقفين العرب، دعاة الحرية والثورة والوحدة والتقدم والاشتراكية والعلمانية، كانوا قليلي الجدوى في مجريات الأحداث والأفكار. فتاريخ تعاملهم مع قضاياهم ومع الواقع، يشهد على فشلهم وهامشيتهم. لقد أثبتوا بأنهم لا يعرفون كيف تلعب اللعبة وتبنى القوة، كيف تنتج الحقيقية وتقر المشروعية. إنهم مارسوا أدوارهم التحريرية أو التنويرية، بعقلية سحرية وبآليات طقوسية، تمثلت في تلك المؤتمرات والبيانات التي اعتادوا إصدارها تعليقاً على الأحداث، سواء ما تعلق منها بحريات التفكير والتعبير، أو بمشاريع النهوض والتنمية، أو بالنزاعات الناشبة بين دول العالم العربي

ومجموعاته، فإذا النتيجة كل هذه التراجعات والانهيارات، قياساً على الشعارات المطروحة والمطالب المعلنة منذ عقود طويلة)).[1]

غالباً ما تتميز العلاقة بين النخب والجماهير بازدواجية تعكس النضالات المعقدة والمتعددة الأوجه للمجتمعات النامية في العالم الثالث. في حين أن النخب أو ((الطليعة الثقافية على حد تعبير المناهج الماركسية)) تمثل صفوة عالية التعليم ومن المحتمل أن يلتزم بعضهم الآخر (الوضع السائد) الإنتاج الفكري التخصصي، فيما قد ينجرف بعض أعضائها إلى الراديكالية السياسية، وفي الحالتين، هناك مشكلة في سوء الفهم من قبل الجماهير لأفكار النخب لابتعادها عن لغتهم، فإن الجماهير تمثل القطاع الأوسع من السكان بطبيعة الحال، بما في ذلك أولئك الأفراد الذين قد يفتقرون إلى التعليم الرسمي أو الوصول إلى المكانة الاجتماعية السياسية. وتجسد النخب والجماهير معاً في الخطاب الثقافي العربي المعاصر، مسيرة التنمية والنضال من أجل الاستقلال عن الهيمنة العالمية وصقل الهوية الثقافية والوطنية واستعادتها. في العديد من المجتمعات النامية، تعمل النخب الاجتماعية والثقافية كرافعة للتغيير الاجتماعي والتقدم، وتحدي هياكل السلطة التقليدية العميقة في المجتمع، مثل الأعراف والتقاليد والانتماءات الفرعية، والمنظومات الدينية، وبالتالي تنخرط في الدعوة إلى مزيد من المساواة الاجتماعية والسياسية. غالباً ما يتم التعبير عن هذه الازدواجية من خلال الحركات الاجتماعية والسياسية، حيث تسعى النخب إلى تعبئة الجماهير للمطالبة بالتغيير. وفي الوقت نفسه، يتسم الكفاح من أجل الاستقلال والهوية الثقافية بأهمية محورية لجهود العديد من المجتمعات النامية في العالم الثالث. وفي العالم العربي نجد أن النخب الثقافية تنقسم من خلال انتماءاتها، بل قد تدخل في صراع على اجتذاب الجماهير الشعبية، ويتم ذلك من خلال فرض الانقسامات الثقافية في هذه المجتمعات، وهذا أمر مؤسف بطبيعة الحال، فكثيراً ما تعكس القوى الثقافية المهيمنة إرث الاستعمار والإمبريالية، مما يؤدي إلى إدامة البنى الاجتماعية القائمة سواء كانت تغريبية الطبيعة تُجاري الحداثة شكلياً، أم تقليدية قروسطية تعاند الحداثة في العمق، *وفي واقع الحال فإن التحول ما بعد الحداثي في الحضارة العالمية*

[1] حرب، علي: أوهام النخبة، مرجع سبق ذكره، ص 42.

فرض أنماطاً جديدة من التواصل كالإعلام الرقمية وتكنولوجيات التواصل، دفعت بقوة نحو تجاوز ثنائية النخبة والجماهير التقليدية، فهكذا ثمة ما يحمل على تجاوز ثنائية الطليعة والجماهير. فلم تعد النخب والأحزاب هي التي تصنع العالم، بل تصنعه الشاشات ووسائل التواصل المتغلغلة في مجتمعنا المعاصر.[1]

تواجه أزمة المثقف في العالم الثالث، وبشكل خاص في العالم العربي، تحديات معقدة ومتعددة الأوجه، تعكس التحولات التي شهدها العالم مع دخولنا إلى عصر ثورة المعرفة والمعلومات. ويجب على المساعي الفكرية أن تواجه ضغوط العولمة الثقافية وتجد طرقاً لإحياء الأصوليات الدينية. تلك القوى تشكل حواجز كبيرة أمام إنتاج المعرفة وحرية التعبير، وتقيد قدرة المفكر على التفاعل مع العالم والمساهمة في تقدمه.

وفي المقابل، يلعب المفكر دوراً حيوياً كمفكر نقدي ومعلق اجتماعي في تنمية المجتمع وتقدمه في العالم الثالث. غالباً ما يُعتبر المثقف صوت العقل والتقدم، ويدعو إلى تحقيق المزيد من المساواة الاجتماعية والسياسية، ويتحدى هياكل السلطة الراهنة. ومع ذلك، فإن تأثيرات العولمة الثقافية والأصولية الدينية قد تصعّب على المفكرين البقاء ملتزمين بمهمتهم، حيث يواجهون قيوداً اجتماعية وثقافية تعترض قدرتهم على التفاعل مع العالم والمساهمة في إنتاج المعرفة.

الخاتمة والتوصيات:

في الختام، يتجلى دور المثقف في توفير تحليل نقدي للهياكل السلطوية المتمثلة في البنى القبلية والثقافية والدينية والمؤسسية الموجودة في المجتمع، وتعزيز رؤى بديلة للعالم. يتأسس هذا الدور على أسس اجتماعية ومؤسسية تمكن المثقفين من تطوير أفكارهم والتفاعل مع قادة الفكر الآخرين، مما يؤدي في النهاية إلى بلورة النخبة الثقافية. وعلى الرغم من أهمية سلطة المثقف، يجب ممارستها بمسؤولية لتجنب خطر التلاعب

[1] المرجع السابق ذاته، ص 53.

الأيديولوجي. تعكس أزمة المثقف في العالم الثالث، وبخاصة في العالم العربي، التحديات المعقدة والمتعددة الأوجه التي يواجهها في عصر ثورة المعرفة والمعلومات. إذ تشكل ضغوط العولمة الثقافية والأصولية الدينية حواجز كبيرة أمام إنتاج المعرفة وحرية التعبير، في حين يمكن أن تعيق الحواجز الاجتماعية والثقافية قدرة المفكر على التفاعل مع العالم والمساهمة في التقدم.

ومع ذلك كله، يظل دور المفكر كمفكر نقدي ومراقب اجتماعي محورياً في تنمية المجتمع وتقدمه في العالم الثالث، وينبغي أن تظل للجهود المبذولة للتغلب على هذه التحديات أولوية قصوى. فالتوافق بين الطليعة والجماهير يعكس الجهود والمساهمات المعقدة والمتنوعة لطبقات الاجتماعية في المجتمعات النامية للعالم الثالث. كما تجسد الجماعات الثقافية ونخبها النضال من أجل الاستقلال والحفاظ على الهوية الثقافية، وتتحدى الهياكل الرجعية المهيمنة في العديد من هذه المجتمعات مثل الأصولية والتوجهات العرقية والنزعات الشعوبية والتقاليد المجتمعية الأبوية المتطرفة، وتدعو إلى المزيد من المساواة الاجتماعية والسياسية.

التوصيات:

يخلص هذا البحث إلى مجموعة من التوصيات:

1. ينبغي قراءة دور النخب الاجتماعية في المجتمعات المعاصرة من خلال التطورات الاجتماعية والتكنولوجية، وبالتالي ينبغي للمثقف النخبوي أن يوسع نمط الثقافة ونموذج المعرفة الخاص به ليشمل المهارة والمعرفة التكنولوجيتين.
2. تتسم النخب الاجتماعية والثقافية المعاصرة بانفصال نسبي عن طبقات المجتمع، وتبدو هذه الظاهرة بشكل أشد بروزاً في المجتمعات العربية، ولهذا من الضروري تحسين دور النخب الاجتماعية والثقافية من خلال إقامة ترابط ثقافي بين أعضاء

النخب الاجتماعية والثقافية مع سائر قطاعات المجتمع عبر وسائل ومؤسسات الثقافة في المجتمع وعبر شبكات المصالح الاقتصادية العادلة.

3. ينبغي ضبط أدوار النخب الاجتماعية والثقافية والاقتصادية من خلال القوانين والمؤسسات الدستورية في المجتمعات المعاصرة، وخصوصاً العربية، من خلال منع ظهور الاحتكارات الثقافية والاقتصادية وحالات التلاعب الثقافي والإعلامي، كما في حالة بروز المصالح الذاتية والشخصية في سلوكيات أفراد هذه النخب.

4. من المهم تعزيز شبكات الأدوار الاجتماعية في المجتمعات العربية المعاصرة من خلال تعزيز التعليم وفرص العمل، ودعم مبدأ تكافؤ الفرص، بما يتيح للأفراد المتعلمين ذوي المهارات والكفاءات الارتقاء في سلم الأدوار والمكانات الاجتماعية بما يضمن كسر أي احتكار محتمل من النخب الاجتماعية والثقافية للامتيازات الاجتماعية، وثمّ تجدد هذه النخب وتطور دورها، وانسجامها مع حاجات مجتمعاتها.

المصادر والمراجع

1. بوتمور. (1988). الصفوة والمجتمع، ترجمة: محمد الجوهري وآخرون، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية.

2. أبراش، ابراهيم. (2011). علم الاجتماع السياسي، يو للكتب، لندن، طبعة جديدة.

3. حرب، علي. (2004). أوهام النخبة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3.

4. حرب، علي. (2004). حديث النهايات – فتوحات العولمة ومآزق الهوية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2.

5. رحيم، سعد محمد. (2016). المثقف الذي يدس أنفه، دار سطور للنشر والتوزيع، بغداد.

6. سعيد، إدوارد. (2006). المثقف والسلطة، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة.

7. لوميل، يانيك. (2008) الطبقات الاجتماعية، ترجمة: جورجيت حداد، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت.

8. مجموعة من المؤلفين. (1992). الثقافة والمثقف في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

Sources and references

1. .Bottomore. (1988). Elite and Society, translated by: Mohamed El Gohary and others, University Knowledge House, Alexandria. (In Arabic)

2. .Abrash, Abraham. (2011). Political Sociology, U for Books, London, new ed. (In Arabic)

3. Group of Authors. (1992). culture and the intellectual in the Arab world, Center for Arab Unity Studies, Beirut. (In Arabic)

4. Harb, Ali. (2004). Discourse of Endings - The Conquests of Globalization and Identity Dilemmas, Arab Cultural Center, Beirut, 2nd edition. (In Arabic)

5. Harb, Ali. (2004). Elite Illusions, Arab Cultural Center, Beirut, 3rd Edition. (In Arabic)

6. Lemel, Yannick. (2008). Social classes, translated by: Georgette Haddad, United New Book House, Beirut. (In Arabic)

7. Rahim, Saad Mohammed. (2016). The Intellectual Who Sticks His Nose, Dar Sotoor for Publishing and Distribution, Baghdad. (In Arabic)

8. Said, Edward. (2006). The Intellectual and the Authority, translated by: Muhammad Anani, Vision for Publishing and Distribution, Cairo. (In Arabic)

السلوك السياسي وضرورات القرار السياسي في فكر ميكافيللي

(الأمير بين المهارة والمعرفة)

طالب الدكتوراه: علي الخطيب* إشراف: د. هلا علي**

الملخص

يتناول هذا البحث الخصائص الأساسية التي يتسم بها السلوك السياسي لأمير ميكافيللي، وقد برز نموذج الأمير في كتابي ميكافيللي، كتاب الأمير الموجه إلى لورينزو دي ميديتشي، وكتاب المُطارحات. ويعتبر هذا النموذج على قدرٍ كبيرٍ من الأهمية، نظراً لكونه نموذجاً سياسياً متكاملاً في السلوك، يعبّر عن منهج فكري واقعيٍ متكاملٍ، وباعتباره نموذجاً واقعياً ومعرفياً يشكل قطيعة معرفية نهائية مع النموذج اليوتوبي القديم، ومن ثمّ شكّل أساساً لما تلاه من نماذج السلوك السياسي في الفكر السياسي الحديث والمعاصر.

ويحاول هذا البحث الكشف عن نمط السلوك السياسي الخاص بالأمير، لتبيين النمط السلوكي المعتمد على فكرة الضرورات السياسية وضرورات القرار السياسي، حيث تشكّل هذه الضرورات محدداتٍ تتبع المواقف السياسية، ففكرة الضرورات السياسية ومحددات المواقف الاجتماعية التاريخية، ومعنى التجربة التاريخية السلوكية السياسية الموروثة عبر التاريخ، من خلال الخبرة السياسية، هي جوهر فكرِ ميكافيللي.

الكلمات المفتاحية: الأمير، ميكافيللي، التجربة السياسية، الضرورات السياسية، القرار السياسي، المنهج الواقعي، السلوك الواقعي.

* طالب دراسات عليا (دكتوراه) في قسم الفلسفة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية.

** أستاذ مساعد في قسم الفلسفة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية.

Political Behavior and the Necessities of Political Decision Making in the Thought of Machiavelli
(*The Prince* between Skill and Knowledge)

Ali Alkhatib* **D. Hala Ali****

ABSTACT

This research deals with the basic characteristics that characterize the political behavior of Machiavelli's ***Prince***. The ***prince's*** model emerged when Machiavelli in his two books, The ***Prince***: *to Lorenzo de' Medici*, and ***Discourses***. This model is considered a great and important one, given that it is an integrated political model of behavior that expresses an integrated, realistic intellectual approach; a realistic and epistemological model that constitutes a final epistemological break with the old utopian model. It then formed the basis for the subsequent models of political behavior in Modern and contemporary political thought.

This research attempts to unveil the pattern of political behavior of the ***Prince***, to show the behavioral pattern that is based on the ideas of political necessities and the requirements of political decision making. The notion of political necessities, the determinants of historical social attitudes, the meaning of the historical political behavioral experience inherited throughout history, through political experience, are the core of Machiavelli's thought.

Keywords: Prince, Machiavelli, political experience, political necessities, political decision, realistic approach, realistic behavior.

* Postgraduate Student (PHD) , Department of Philosophy, Faculty of Art and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.

** Assistant Professor, Department of Philosophy, Faculty of Art and Humanities, Tishreen University، Lattakia, Syria.

مقدمة:

يُعِدّ كثيرٌ من الباحثين ميكافيللي رائداً من رواد النهضة الأوروبية في مجال النظرية السياسية الحديثة، وتشكل شخصية رجل الدولة أو الأمير في نصوص ميكافيللي عنصراً شديد الأهمية في فهم تصورة للنظام السياسي، وطبيعة الشرعية السياسية، وطبيعة علاقته بعامة الشعب، ففي منطق العصور الوسطى في أوروبا كان للملك سلطةٌ مطلقة على رعيته، وكان المصدر الرئيس للتشريع، ورغم أنّ ملوك العصور الوسطى قد تمتعوا بشرعية ما من خلال الغطاء الذي قدمته الكنيسة البابوية، فإنّ طبيعة ذاك العصر سمحت لهم بتقديم تشريعاتهم الخاصة التي تناسب غاياتهم وإن ألبسوها بلبوس المسيحية، وإذا ما انتقلنا إلى عصر النهضة فنجد وقد بدأت تظهر فيه بوادر تفكك المَلَكِيّة في أوروبا وبروز طبقة النبلاء وإرهاصات التحول البرجوازي مع تعزز الوعي الشعبي بالهوية الوطنية، وذلك في مرحلة سَبَقَت الثورة الصناعية، أي أن التشكل الطبقي لأوروبا الصناعية كان في مراحله الأولى للتكون، وقد شكلت إيطاليا إحدى النماذج لتلك المرحلةِ مع ظهور عصر الدويلات المتصارعة التي تنازعها حلم السيطرة على شبه الجزيرة الإيطالية، وهو مسعىً لم يتحقق حتى منتصف القرن التاسع عشر، أي بعد عصرِ ميكافيللي بما يزيد على ثلاثةِ قرونٍ. على أن السؤال الأوّل الذي كان يشغل كتابات ميكافيللي هو كيف تُصاغ السياسة الناجحة في المواقف المختلفة. وبناء عليه كيف يكونا لسياسي الناجح وما هي المهارات الجوهرية والممارسات الأهم التي يقوم السياسي بالعمل من خلالها في مختلف المجتمعات؟ لقد فرضت طبيعة العصر على ميكافيللي أن يُوجِدَ إجاباتٍ مختلفة في سياق تاريخي معقد من الصراع، وهو ما حتّم عليه إعادة بناء التصورات السياسية في صيغة تلبي فكرة الضرورات السياسية التي شكّلت محددات العالم السياسي.

أَوّلاً– مشكلة البحث وأهميته، الجديد فيه:

تبرز مشكلة البحث في مسالة مفادها أن القراءة التقليدية لأمير ميكافيللي تستند إلى تصورٍ مختزل حول الأمير وطريقة تصرفه والسلوك الذي يسلكه، في حين يبرز كتاب المطارحات المتأخر جوانب أخرى من فكر ميكافيللي، تظهر اختلافاً عن النظرة التقليدية إلى الأمير، خصوصاً مع نزعة ميكافيللي إلى مناقشة تطور المجتمعات والتمعّن في

نظرية الدولة، وبذلك يناقش هذا البحث إمكانية النظر إلى أمير ميكافيللي في إطار نظريةٍ نموذجية تختلف عن النموذج الفوضوي السائد عن فكر فيلسوف فلورنسا، إذ يرى إمكان قراءة النموذج السلوكي للأمير في إطار الضرورات السياسية التي تقترحها نصوص ميكافيللي المختلفة، وذلك في إطار نظريته السياسية.

وتكمن أهمية الدراسة في معالجة الجوانب الخاصة والدقيقة لنظرية ميكافيللي السياسيةِ. يتركز اهتمام هذا البحث على الجوانب العملية البراغماتية في فلسفة نيكولا ميكافيللي، والتي تجلت من خلال الاهتمام بأفعال الأمير وسلوكياته وممارساته، وينصب تركيز هذه الدراسة على تحليل الطبيعة السلوكية من خلال المسألة القيمية والمهارة السياسية، وعلاقة ذلك بالمنهج السياسي الذي اتبعه ميكافيللي في صياغة نظريته السياسية المضمنة في كتابي الأمير والمطارحات، وكيف فسر ميكافيللي طبيعة السلوك السياسي وغاياته العملية في سياق المواقف السياسية التي تتولد من خضم تحولات المجتمع السياسي.

ثانياً- أهداف البحث وأسئلته:

كما يهدف هذا البحث للكشف عن طبيعة السلوك السياسي لدى أمير ميكافيللي وما هي حدود هذا السلوك ومعاييره، وطبيعة الحكم وغايته، ومن ثم الكشف عن تصوره ميكافيللي للفضيلة والخير والشر في سياق ممارسة السلوك السياسي، وكيف تنتظم التحولات السياسية في مجتمع ميكافيللي كما ترسمه مؤلفاته، وصولاً لقراءة الطبيعة النفسية والاجتماعية والأخلاقية لأمير ميكافيللي في كل مرحلة تاريخية وسياسية تمر بها المدنية السياسية وفق نظرية ميكافيللي السياسية.

ثالثاً- دراسات سابقة:

1- **بحث بعنوان (السياسة والأخلاق عند نيكولا مكيافيلي) للباحثة تراكة سارة، في جامعة محمد خيضر بَسْكرة في الجزائر، في اختصاص الفلسفة العامة:**

تتناول هذه الدراسة مدرسةَ النظرية السياسية التحليلية والواقعية التي أسسها مكيافيلي، فتتناول الباحثة طبيعة العلاقة بين السياسة والأخلاق في نصوص المفكر الفلورنسي، وقد أكدت الباحثة أن الغرض من سياسة ميكافيللي هو الحفاظ على سلطة الدولة. وهو ما

أدى بميكافيللي إلى البحث في كيفية تجاوز القيم الأخلاقية والدينية من الدائرة السياسية، وأخذ السلطة والحيلة كأداة لتحقيق الوحدة السياسية للمجتمع السياسي، وهو ما كان هدفاً للأمّة الإيطالية المنقسمة، ولهذا كان على أمير ميكافيللي أن يتميز الأميرُ بصفتين، الحذر والقوة، وأن يغضّ الطرف عن الأخلاق والدين لتحقيق أهدافه السياسية. تستند هذه الدراسة إلى الأساليب التاريخية والتحليلية من خلال مراجعة الإطار التاريخي لفكر ميكافيللي وتحليل نصوصه.

2- **بحث بعنوان (صناعة الزعيم: قراءة فى العقل الماكيفيلي) للباحث اسماعيل نوري الربيعي، في مجلة دفاتر السياسة والقانون في الجزائر، العدد الثامن، 2013م:**

إن موضوع هذه الدراسة هو فحص أفكار ميكافيللي المطروحة في متن كتاب الأمير، مع التركيز على منهجيته لخلق قادة سياسيين فعالين وبناء الزعامة السياسية. تشير نتائج الباحث إلى أنه بمرور الوقت، تم التغاضي عن نهج مكيافيلي للقيادة السياسية، والذي أكد على فن بناء القائد او الزعيم. على الرغم من الاتفاق الواسع بين الباحثين على مبدأ الفصل بين الأخلاق والسياسة في عمل مكيافيلي، فإن نهجه واضح في كل من مقدمات ونتائج نصه الأساسي، إذ يهدف مكيافيلي إلى توفير المعرفة العملية والخبرة السياسية لبناء علاقات فعالةٍ بين القادة وجمهورهم. وهذه النتائج لها آثار مهمة على النظرية السياسية المعاصرة، وتسلط الضوء على الصلة المستمرة لأفكار مكيافيلي بعالم اليوم.

3- **بحث بعنوان (تصور الدولة عند ميكيافلي وأثره في السياسة فكراً وممارسة) للباحثة عبسي رندة، في جامعة محمد خيضر بسكرة في الجزائر، في اختصاص الفلسفة العامة:**

يركز هذا البحث على تصور مكيافيلي الواقعي للدولة، والذي يمثل نقلة نوعية أحدثت قطيعة مع جميع المفاهيم المثالية السابقة. وبينت الباحثة عبسي رندة أن نشأة نظرية ميكافيللي هي استجابة للظروف السياسية والاجتماعية المتنوعة في إيطاليا عصر النهضة، وقد استخدم نموذج الحكم الأناني للطبيعة البشرية، ومبدأ العنف كوسيلة لتحقيق الوحدة الوطنية وقيادة إيطاليا للخروج من الأزمة السياسية التي كانت تعيشها في ذلك الإطار التاريخي، وأوصى الأمير بأن يجعل من مبدأ الغاية تُبرّر الوسيلة قاعدة لحُكمه

وسياسته، فقد أدرك ميكافيللي الحاجة إلى فصل الأخلاق والدين عن السياسة وحث الأمير على جعل المبدأ لسلوكه هو تحقيق النجاح بأي ثمن. وقد اتبعت هذه الدراسة المنهج الوصفي لوصف الوقائع التاريخية والمنهج التحليلي.

رابعاً– منهج البحث:

يعتمد هذا البحث على منهجين رئيسين، المنهج الأول هو التحليلي الذي يعتمد على تحليل الأفكار والنصوص في سياق متون ميكافيللي النظرية، انتهاءً بربطها بالغايات والرؤى السياسية المتنوعة في جوانب نظريته. أما المنهج الثاني هو المنهج المادي التاريخي، وذلك من خلال دراسة الإطار التاريخي لأفكار ميكافيللي، وعلاقة نظريته بالواقع السياسي لعصره وتطوره التاريخي.

خامساً– فرضيات البحث وحدوده:

يناقش هذا البحث فرضية أساسية مفادها أن نموذج السلوك السياسي الذي يقدمه نيكولا ميكافيللي في كتابه الأمير، هو نموذج يتبع قراءته للتجربة السياسية التي تتحدد وفق الضرورات السياسية، وأن هذا النموذج السلوكي يقوم على تتبعه الواقعي للمواقف السياسية التي تختلج الحياة السياسية كما عايشها نيكولا ميكافيللي في إيطاليا وأوروبا عصر النهضة.

ويتحدد هذا البحث في ثلاثة حدود، الأول هو الإطار التاريخي لحياة نيكولا ميكافيللي ومن ثمّ لنصوص فيلسوف فلورنسا وكتبه، أما الثاني فهو السياق الثقافي الأوروبي لنشأة فكر ميكافيللي ومن ثم امتداد تأثير نظريته السياسية في الفكر السياسي الغربي، أما ثالث الحدود فهو المذهب الواقعي العملاني الذي مثله ميكافيللي والذي أثّر على من تلاه من المفكرين.

سادساً – مصطلحات البحث وتعريفاته الإجرائية:

1) **الواقعية العملانية:** هي رؤية نظرية سياسية، وقد تصل إلى مستوى المنهج النظري السياسي، وتتجه هذه الرؤية لتقييم السلوك من خلال نجاعته وكفاءته في تحقيق النتائج في الواقع العملي، بغض النظر عن الرؤية القيمية الأخلاقية.

2) **النموذج السلوكي:** هو نموذج من السلوكيات والأفعال التي تنتظم لدى الفرد أو الشخص، أو الطبقة الاجتماعية، أو الجماعة البشرية، بحيث ترتبط هذه السلوكيات والأفعال من خلال مجموعة ناظمة من المبادئ والدوافع التي تحرّكها وتعطيها القيمة الخاصة بها.

3) **الضرورات السياسية:** هي مجموعة من الظروف الواقعية والشروط الموضوعية التي تتطلب استجابة تكيفية من الفاعل السياسي، سواء أكان فرداً أم جماعة.

4) المواقف السياسية: هي وقائع تاريخية سياسية تفرض شروطها وظروفها على الفاعل السياسي، بحيث يتكون كل موقف سياسي من مجموعة من المحددات الواقعية، سواء أكانت اجتماعية أو طبقية أو اقتصادية أو صراعية، ويحمل كل موقفٍ سياسي تفاعلاً بين مجموعة من الفاعلين السياسيين، على أساس من التفاعل الاجتماعي التاريخي، وهو ما يفرض على الفاعلين السياسيين في نهاية الأمر مجموعة الضرورات السياسية التي تتطلب منهم استجابة تكيفية.

5) **النظرية الدورانية:** هي نظرية سياسية كلاسيكية تعود إلى أفلاطون وأرسطو، وازدهرت لدى المنظرين الرومان، وانتقلت إلى ميكافيللي، وتفيد بأن المجتمعات تعيش دورة تاريخية تمر فيها بعدة نماذج من النظم الاجتماعية السياسية، وهي الملكية (الأمير) ومن ثمّ الأرستقراطية (النبلاء) ومن ثم الديمقراطية (الجمهورية)، وكل نموذج يحمل نقيضه أو شكله الناقص، أي الطغيان والأوليغاركية، ومن ثم نموذج الرعاع أو الفوضى، وأن المجتمعات إذ تمر بهذه النماذج ما تلبث أن تعود لتكررها تاريخياً وإن بأشكالٍ مختلفة وأكثر تقدماً، وبذلك يجري التاريخ في حالة من الدوران متنقلاً بين هذه النماذج.

6) **نظرية الدورة الدستورية:** هي صيغة من صيغ النظرية الدورانية، تركز على تغير النماذج القانونية والدستورية للمجتمعات السياسية عبر الدورة التاريخية الدورانية التي تمر بها هذه المجتمعات.

I. المناقشة والنتائج:

أوّلاً– شخصية الأمير وواقعية السلوك:

يوحي التناقض بين كتابي المطارحات والأمير بمسألةِ الاختلاف بين تصور الأمير المشرّع المستبد وتصور الجمهورية بوصفها تمثيلاً لمجتمعٍ ديموقراطيٍ، أي تصور جمهورية قائمةٍ على حرية الشعب، ولكن في الحالتين فإنّ هنالك نمطاً من الممارسات السياسية والمهارات السياسية التي يمارسها الإنسان السياسي، حيث كانت هذه موضوع كتاب الأمير وبعض كِتابِ المطارحات. كل ذلك يرتبط بجذور الفكرة الميكافيللية التي تعبّر عن تحوّلٍ في النهضة الأوروبية، والتي نقلت الفكر السياسي العالمي من مرحلة القرون الوسطى القائمة على اليوتيوبيا ونموذج المثل الأعلى إلى نموذجٍ يقوم على مرجعية الفرد وحريته وقدرته على اتخاذ قراراته، فينتقد ميكافيللي في كثيرٍ من نصوصهِ ومتون كتابيه المعرفة اليوتوبية باعتبارها معرفةً عقيمةً ينتج عنها سلوكٌ عقيم، وبذلك يعتبرُ ميكافيللي النموذج المثالي الذي بشرت به الفلسفات الكلاسيكية مراراً وتكراراً نموذجاً فاشلاً بسبب انفصاله عن الواقع التاريخي، ولهذا لا بد للأمير من أن يتسم بقدرٍ كبيرٍ من الحسنات والعيوبِ، ولكن ما يحسم نجاحه ليس اتسامّه بالأخلاق السامية، بل اتسامّه بالقدرة على السيطرة على نفسه، وعلى واقعه وعلى جمهور دولته، وبذلك تكون إحدى أهم السمات التي يتسم بها أمير ميكافيللي هي قدرته على إظهار حسناته وإخفاء عيوبِه عن أعين الجمهور من شعبه، *فيؤكد ميكافيللي أنّه من الصعب أن يكون الأمير كامل الصفات الحسنة، وهذا نابع من الطبيعة البشرية الناقصة، لذلك عليه أن يتمتعَ بالحكمة لإخفاء عيوبه، لكي يتفادى التعرض لأي فضيحة قد تقوّض سلطته على شعبه.*[1]

والذي تبيّنه هذه الفكرة أن المعضلة الرئيسة تبقى هي ذاتها بالنسبة للأمير، سواء كانت متعلقةً بجمهور مدينته أو دولته، أو كانت متعلقةً بإمارةٍ أو دولةٍ خاضعة خسرت حربها معه، ومفاد هذه المعضلة هو كيف يتلاعب الأمير بطبقات المجتمع ومكوناته، فمثل هذا التلاعب يهدف إلى التحويل الأمير إلى الطرفِ الأقوى، وصاحبَ المرجعية الأساسية في المجتمع الجديدِ، وهو ما يؤدي في المحصّلة إلى كسبه المشروعية

[1] ميكيافيللي. (2004). الأمير، ترجمة: أكرم مؤمن، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ص 81.

السياسية، وفرض سيطرته على المدينة الجديدة سواءَ وصل إليها بحكمٍ شعبيٍ، أو من خلال الانفراد بالحكم بالقوة، أو من خلال الفتح العسكري عبر الحرب، وهو ما يتطلب أن يقود مجموعةً من التغيرات الجذرية في المجتمع والدولة: "**لذلك فإنّ على كل من يعد الضروريات لتأمين إمارته الجديدة أن يؤمّن نفسه ضد أعدائه، وأن يكسب الأصدقاء وأن تكون له الغلبة بالقوة أو بالخديعة. وأن يحبه الشعب ويخشاه. حيث يسير جنوده خلفه ويحترموه. وأن يسحق من يستطيع أن يؤذيه، أو من الممكن أن يؤذيه. وأن يستبدل القديم من الأوضاع بكل ما هو حديث. وأن يكون صارماً وشفوقاً في نفس الوقت، كريم الخصال واسع المدارك. وأن يلغي نظام الجندية القديم ويحل محله نظاماً جديداً...**".[1]

تكشف نصوص ميكافيللي عن أداء فريدٍ ونمطٍ سلوكيٍ خاصٍ يتصف به الحاكم أو الأمير، فجميع التكتيكات السياسية والأدوات التي تستخدمها سلطة الأمير تعتمد على شخصيته وقدرته على تقييم الأمور والتفاعل مع الأحداث، وأوّل ما يجب أن يدركه الأمير _ كما نفهم من نصوص ميكافيللي _ هو المدى الذي تتغير به الأحداث والطريقة التي تتحول فيها الأمور خصوصاً فيما يتعلق بولاء الرعيةِ وإخلاصها للحاكم، إذ إنّ الحاكم الذكيَ –كما يرد في كتاب الأمير– هو الذي يتجنب غضب الرعية ويقنعها بشتى الأدوات، سواء أكانت بالقوة الخشنة أم بالقوة الناعمة من أجل الخضوع لقوانينه التي يرسمها. وفي أجواء عصر النهضة كان يدرك ميكافيللي أن المجتمعات الأوروبية منقسمة وفوضوية، وأنها قد حملت معها من العصور الوسطى نقمةً على المَلَكية، لكنها لم تكن قد أوجدت بعدُ صيغتها الخاصة، فيتحدّثُ ميكافيللي في خضم مرحلةٍ انتقاليةٍ بين العصور الوسطى والحداثة، ولهذا تحديداً نجد أن شخصيةَ الأمير طاغيةٌ على مسرح الأحداثِ، ولهذا تحديداً يعوّل ميكافيللي على قدرة الشخص وكاريزميته في التحكم بمجريات الأمور، وهذا يتطلب أن يكون الشخص ذا ذكاءٍ ونظرةٍ ثاقبة، وأن يكون مدركاً لأهمية الأدوات التي يستخدمها دون استحياءٍ، حتى ولو ظهر بمظهر المخادع أو القوي أو العنيف أو عديم الرحمة، لأن الشدة المقنّنةَ تسبب بمنع الاضطراب وحفظ أغلب

[1] المصدر السابق ذاته، ص 49.

النفوس، "**لذا يجب على الأمير ألّا يعبأ بأن يوصف بالشدة ما دامت هذه الشدة من أجل الحفاظ على مواطنيه وولائهم له، وذلك لأنه حين يكون شديداً مع عدد قليل جداً من الناس، وهو بذلك أفضل من الأمراء الذين يفرطون في اللِين مما يسبب وقوع الاضطرابات. وتسيل الدماء ويحدث النهب والسلب. وهذه أمور تضر الكثيرين بصفة عامة، لكن تنفيذ حكم الإعدام في عدد قليل من الناس لن يؤذي أحداً غيرهم. والأمير حديث العهد بالإمارة فقط هو من في حاجة شديدة دون بقية الأمراء للاشتهار بالشدة، لأن الولايات الجديدة تعاني دائماً من الأخطار**".[1]

يعتقد ميكافيللي بأن الأمير يحكم من خلال ما يمتلكه من سمعةٍ بين رعيته، فإنّ الرعية تنصاع للحاكم من خلال قدرة هذا الحاكم في التأثير على نفوسها، وهذا يلفت انتباهنا إلى نقطةٍ مهمةٍ جداً، وقد انتبه إليها ميكافيللي بشكل ملفتٍ، وهي عن طبيعة العلاقةِ بين الأمير والرعية، أو العلاقة بين الحاكم والجمهور، فأياً كانت طبيعة هذا الأمير، فإنه ينبغي أن يكون لما يفعله أو لما يمكن أن يفعله وقعاً مهيباً في نفوس الرعية، وهذا يبين لنا بأن أمير ميكافيللي يستخدم دهاءه في رسم صورته في عقول الناس، وربما تكون مثل هذه صورةً حقيقيةً وقد تكون أيضاً وهميةً كاذبةً، وليس ذلك مهما بقدر ما المهم أن يصدقه الناس، وذلك حتى ينساقوا للقوانين التي يفرضها الأمير، وهذا يرتبط مرةً أخرى ببيئه الصراع في إيطاليا عصر النهضة، ففن الإقناع ضرورةٌ للممارسة السياسية كما يراه نيكولا ميكافيللي، إذ يجب على الأمير "... **أن يعنى بسمعته، فحصنه الأمنع هو محبة شعوبه، هكذا يعترف ماكيافللي بقوة الرأي العام، لكن ذلك لكي ينشئ نظرية لاستخدام هذا الرأي، الذي يعلم بأنه قابل للتكييف، وحساسٌ بالقوة، وسهل على الخداع. وبالتالي يصبح المكرُ بالنسبة للأمير، واجباً. وتبدو سياسته كمزيج دقيق محكم من القسوة والرياء، حسب الظروف، وحسب طبيعة المسائل الخاصة، نظراً لأن «العبرة بالنتائج»**." [2]

[1] المصدر السابق ذاته، ص 85.

[2] توشار، جان. (2010). تاريخ الأفكار السياسية، ترجمة: ناجي الدراوشة، دار التكوين، دمشق، ص 354.

يشير ميكافيللي مراراً إلى أن نمط السلوكِ الذي يتخذه الأمير لا يؤدي بالضرورة مهما كان حَسَنَ النية إلى وفاء الرعية له، بل إن الرعية هي من ذات الطبيعة البشرية التي تغتنم الفرص وتحصّل رغباتها تحت أي ظرفٍ كانَ، فالأمير الصالح إذا ما كان لَيّناً فإنه قد يقع فريسةً لفوضى الجماهير، فيتحولون إلى رعاعٍ متوحشين، فيما قد تطيعُ هذه الجماهير حاكماً متجبراً يغيب عنه العدل، أي أن ما يشرحه ميكافيللي في هذا السياق هو أن الجمهور لا يقيّمون ولائهم تبعاً لأخلاقية الحاكم، بل تبعاً لسيطرته وقدرته على التلاعب بهم، وهذه فكرة خطيرة ستتسرب من متون ميكافيللي إلى نموذج الدولة الحداثية كما شَخَّصَها توماس هوبز، وهي التي ستعرف لاحقاً بمقولةِ الإنسان ذئبٌ لأخيه الإنسان، ولا بد للجمهور من الرضوخ لذئبٍ كبير، وهذه الرؤية الهوبزية تتصل أوثق الصلة بمتونِ ميكافيللي، الذي يمكننا أن نعدّه المؤسس الحقيقي لهذا النموذج العنيف للدولة الحداثية الأوروبية، والفارق الأساس بين نموذج ميكافيللي عن الأمير ونموذج هوبز هو أن القانون من الناحيه الشكلية يوضع من قبل أمير ميكافيللي في النموذج الأول، فيما يتوافق عليه ذئب هوبز مع الشعب في النموذج الثاني. وبالعودة إلى سياق أفكار ميكافيللي، فإنّ الأدوات السياسية، كما يشخصها فيلسوف فلورنسا، تقومُ على فرضِ السيطرة من خلال القوة بتدرجاتها، وأنه في حال أظهر الأمير الصلاح دون قوةٍ، فإنّ القيم التي ينشدها الأمير لن تجد طريقاً إلى أذهان الجمهور، ولذا فإنّ عليه أن يبث استخدامات القوّة في المدنية التي يسيطر عليها، حتى لو اضطر إلى ارتكاب الشرور لأن الشرّ بالنسبة لميكافيللي مسألةٌ لا مفر منها، "**ومن هنا يتضح أن الأعمال الصالحة قد تجلب الكراهية، كالأعمال الشريرة، ولذلك فإنّ [على] الأمير الذي يريد أن يحافظ على ولايته أن يقترف بعض الشرور ... وذلك لأنه إذا فسد طرف من الأطراف الثلاثة، سواء كان الشعب، أو الجيش، أو النبلاء، وكنت تعتبره ضرورياً من أجل المحافظة على مركزك، فيجب عليك أن تتبع هواه وترضيه. وهنا تؤذيك الأعمال الصالحة**".[1]

يركز ميكافيللي على ضرورات السياسة التي تتطلب ممارسةَ الأمير للحيلةِ السياسية أو استخدام القوة الخشنة، إذ إنّ الواقع السياسي والغايات السياسية التي يستهدفها أميرُ

[1] ميكيافيللي: الأمير، مصدر سبق ذكره، ص 97.

ميكيافيلي هي التي تفرض الأداة السياسية تبعاً للموقف، فيُفترضُ بالأمير البارع القدرةَ على المخاطرةِ، وتأسيس النظام السياسي الذي يناسب إمكاناته وخصائصه، كما يفترض بالنظام القانوني الذي يؤسسه الأمير _ وفق ما يرد في متون ميكافيللي _ أن يقوم بإقناع الجمهور وحتى خداعهم من خلال سلطة القانون، بل إنّ أكثر ما يشكل هاجساً للأمير هو كيفية التجذر وإقامة الحكم الراسخ في مدينةٍ لا تدين له بالولاء، كمَثَلِ المُدُنِ التي استبدَّ بها بالحيلة، أو المفتوحةِ حديثاً، أو التي غزاها الأميرُ في غزوه، أو التي وصل فيها إلى سُدّةِ الحكم بالصدفةِ، وغيرها من الحالات التي يلعب فيها القَدَرُ دوراً مهماً، ويرى ميكافيللي هنا أن على هذا الأمير ترسيخ نظامٍ قانونيٍ خاصٍ بالمدينة الجديدةِ التي خضعت له، سواء أَخَضَعَتْ له بالقوة أم بالحيلة أم بولاء الجمهور في لحظةٍ من التمرد على أميرٍ سابقٍ، وفي جميع هذه الحالات فإنّ أهم ما يفعله الأمير هو فرض نِظَامِهِ القانوني، وقيمه القانونية، ومنع خرقها من قبل الآخرين، والامتناع عن خرقها من قبله على المستوى الظاهري على الأقل، *ولكي يعلو شأن الأمير فإنّ عليه أن يكون رجلاً ماهراً مدعوماً بالثروة، فيكوّن الإمارة مشتملاً في سلوكه على العطفِ على مواطنيه من جهة، وإبرازِ مظاهر القوة من جهة أخرى، بل يولي ميكافيللي الأخيرة أهمية قصوى، إذ لا يتقنها إلّا أصحاب مزية قليلة الشيوع وهي استخدام القوة بشكل غاشمٍ ومحسوب في آن واحدٍ، وفي خضم ذلك كله ينبغي للأمير ألّا ينشر البلبلة في مؤسسات دولته، وبالتالي يترك لمرؤوسيه اتخاذ التدابير غير الشعبية، مع تحديد سلطة مساعديه ومرؤوسيه إلى أقصى حدٍ.*[1]

يقوم الأمير إذاً بعرض قوانينه الخاصة على الجمهور، وفرضها عليهم فرضاً، وذلك من خلال جملةٍ من الممارسات السياسية الخشنة والناعمة، وفي جميع الحالات فإنّ ما يثبّت سلطة الأمير في مدينته هي قوانينه، وخوف الجمهور منه، وانسياق النبلاء له، وغالباً ما يكون ذلك بحسب ميكافيللي من خلال بثّه للخوف في نفوس الجمهور، دون أن يعني هذا ضرورةً استخدام العنف، فالخدعة السياسية والدعاية كفيلتان بجعل الناس يهابون أميرهم، ولكن وبجميع الحالات، لا يجوز للأمير إن أراد أن يستمر في حكمه،

[1] توشار، جان: تاريخ الأفكار السياسية، مرجع سبق ذكره، ص 353-354.

وأن يثبّت سلطانه أن يظهر بمظهرِ الخائف، بل عليه أن يلتزم بمظهر القوي المتسلّط، ومرّةً أخرى يعبّر ميكافيللي عن رفضه للصورة المثالية للحاكم وهي الصورة الموروثة عن نموذج اليوتيوبيا الإغريقي، لأنّ الأمير القوي هو الأقدر على تنظيم الدولة مهما مرّت به من اضطرابات، إذ "... **يجب على الأمير أن يَحْذَر في كل ما يحمله من معتقدات وكل ما يقوم به من أعمال، وألا يظهر بمظهر الجبان الرعديد، وأن يتقدم إلى الأمام بحكمة ولين وألا تجعله الثقة الزائدة يهمل الحذر، وألا تجعله الريبة الزائدة غير محتمل**".[1]

إنّ سلوكيات الأمير، وعلاقاته بوسطه ومجتمعه السياسي، جميعها تحدد على المدى الطويل موقف الجمهور منه، وبينما لا يقتنع الجمهور أو عوام الناس ولا يُقَيّمون أميرهم من خلال الأخلاق، فإنهم بالمقابل يُقَيِّمونَهُ من خلال قوته وسطوته وتحكمه بمقاليد الأمور، ويتم ذلك من خلاله تلاعبه بمشاعر الناس، وتلاعبه أيضاً بالعلاقات بين فئات المجتمع وطبقاته، وبذلك ينبغي –كما يُلَمِّح ميكافيللي في غير ما مرة – أن يمارس الأمير دهاءه في منعِ وإحباط طموحاتِ أي منافسين محتملين، ومن ثمّ ينبغي لصورة الأمير أن تكون قويةً واضحةً، وسلوكه موثوقاً ومهاباً، فيكون شخصاً قوياً ومخيفاً وقادراً، تنقاد له زمام الأمور ويصعب تحديه، وجوهر الأمر كما يشير ميكافيللي هنا هو أن الجمهور يرقب سلوكيات الأمير وكيفية تعامله معهم ومع مرؤوسيه وموظفيه والأهم منافسيه والمتمردين عليه، فيستضعف الجمهورُ الأميرَ الذي لا تكون خياراته واضحةً، كما يظهر هذا الأمر بوضوحٍ شديدٍ في الصراعات بين الدول كما يشخصها ميكافيللي، "**ويُحترم الأمير بشدة إذا كان مخلصاً في الصداقة أو شديد العنداء، وذلك حين يعلن بصراحةٍ تامةٍ تأييده أو عداءه لفرد ما. وهي سياسة أكثر نفعاً له من أن يبدو محايداً دائماً. فإذا بدأ القتال بين دولتين متجاورتين، فقد يخشى انتصار أي منهما، أو لا يخشاه. وأياً كانت الحالة من الأفضل لك أن تعلن موقفك بوضوح، وتعلن الحرب. فإذا لم يتضح موقفك. فإنك ستقع فريسة للمنتصر في الحالة الأولى. وهذا يرضي الدولة المنتصرة ويقنعها. ولن تستطيع تبرير موقفك أو الدفاع عن نفسك، ولن يقبل أحد**

[1] ميكيافيللي: الأمير، مصدر سبق ذكره، ص 86.

مقابلتك. فكل منتصر لا يريد أصدقاء مشكوك في أمرهم، لم يمدوا إليه يد المساعدة وقت الشدة".[1]

إن الذي شغل ذهنَ ميكافيللي عند هذه النقطة هو ضرورة أن يقوم الأمير بخلقِ قوانين مغايرةٍ لأنظمة المَلَكيةِ القديمةِ، وأن يفرض طاعة القوانين على الرعية بحيث تكون تبعاً لولاء هذا الأمير، إذ لا يمكن أن يفرض مثل هذا الولاء من قبل الأمير من وجهة نظر ميكافيللي بدون أن يجعله نصاً قانونياً محمياً بالقوة، يعيد تنظيم أسس المدنية، ولهذا أهمية خاصة وهو بحد ذاته مهمةٌ خاصة يؤديها الأمير، وهذا بَيّنٌ سواء في كتاب المطارحات أم كتاب الأمير الموجه إلى لورينزو دي ميديتشي. عندما يتناول مسألة تولي الحكم بعد أن تتحول المدنية السياسية تحولاً جذرياً كأن تُهدم المدينة أو تَسقط في الغزو أو تتغير وتتحول الطبقات التي تمثلها، ففي مثل هذه الحالات يكون على الأمير مهمة إعادة هيكلة المجتمع السياسي، وهذا يتطلب شخصاً من نوعيةٍ فريدةٍ يمزج بين المغامرة والحكمة والإرادة العنيدة، وهذا يتطلب انقلاباً اجتماعياً جذرياً حتى على مستوى الطبقات، وهذا ما تحدث عنه ميكافيللي في نصوصه، فيقول: "**إذا أصبح رجل حاكماً في مدينة أو في دولة، وكان لا يتمتع على الأخص، بمركز ثابت فيها، وكان لا يصلح ما يحكمه لا للحياة المدنية التي تتميز بها المملكة، ولا لتلك الي تتميز بها الجمهورية، فإنّ خير ما يفعله للاحتفاظ بها، شريطة أن يكون أميراً جديداً عليها، أن يعيد تنظيم كل شيء فيها على أسس جديدة، كأن يعيّن حكاماً جدداً في مدنها، لهم ألقابهم وسلطاتهم الجديدة، وأن يكونوا هم، جديرين في عملهم، وأن يحيل أغنياءها إلى فقراء، وفقراءها إلى أغنياء...**"[2]

لقد كانت الظروف السياسية في إيطاليا عصر النهضة إطاراً مرجعياً لكتابات نيكولا ميكافيللي فيلسوف فلورنسا، فتأمّل كثيراً في إمكانية توحيد إيطاليا وإعادة الاعتبار للأمة الإيطالية التي ورثت روما الإمبراطورية، فطموحات ميكافيللي السياسية وآماله الوطنية اصطدمت جميعاً بواقعٍ مريرٍ مَفَاده أن إيطاليا المنقسمة إلى إماراتٍ صغيرةٍ ودويلاتٍ

[1] المصدر السابق ذاته، ص 109.

[2] ميكيافيلي، نيقولو. (1982). مطارحات ميكافيلي، تعريب: خيري حماد، دار الافاق الجديدة، بيروت، ص 308.

متناحرةٍ يحكمها مجموعةُ طموحين يرغبون في الحصول على المزيد وتوسيع حكمهم، دون أي تطوير للمؤسسات أو القوانين، أو أي تحسينٍ لواقع أمتهم السياسي، ويبدو أن ميكافيللي قد نظر إلى آل ميديتشي باعتبارهم الأمل الوحيد في إيطاليا عصر النهضة لتوحيد الدولة الإيطالية، وربما تخلى عن هذا الأمل لاحقاً، خصوصاً مع كتابته لكتابه المطارحات على تيتوس ليفيوس، وعلى أي حال فإنّ نصه في كتاب الأمير ينبغي أن يراجع في إطاره التاريخيِّ الصحيح، كما أن هذا النص جاء ليعبّر عن مِفْصَلٍ تاريخيٍ أكثر من كونه معبراً عن نظريةٍ مكتملةٍ متكاملة، فالإطار التاريخي هو الذي عظّم لدى ميكافيللي أهمية الأمير ذو الصلاحيات المطلقة، *فعاطفته الوطنية هي التي كمنت وراء اعتباره السلطة المطلقة التي لا ترحم مثلاً أعلى، فقد أمل ميكافيللي أن أحد طغاة إيطاليا في عصر النهضة، قد ينهض أميراً له القدر الكافي من الخيال والإرادة بحيث يوحّد الدولة الإيطالية، فيكون له الجرأة على خوض غمار المخاطر لتحويل الخيال إلى حقيقة.*[1]

ثانياً– الأمير بين الفضيلة ومعضلة الشر:

لقد شغل فكرَ ميكافيللي هاجسٌ من نوعٍ خاصٍ، وذلك انطلاقاً من تجربته السياسية، وهو السياسي المخضرم العالم بخبايا عالم السياسة في عصر النهضة، وهذا الهاجس هو الطبيعة البشرية غير القابلة للترويض، إذ يبدو بأن ميكافيللي الذي عايش السياسيين ذوي النزعات الغريزية، ومعرفته بالجمهور وفوضاهم المتكررة، قد أدرك كم تشتعل النفس البشرية بالاضطراب والحيرة وغياب الهدف، وقد تجسد هذا الهاجس من خلال إدراكه لصعوبة خضوع النفس البشرية للقانون، وتناقض القانون مع أهواء النفس البشرية. بهذا المعنى تصبح مهمة الأمير السيطرة على نزوات الناس وأهوائهم ورغباتهم الشاذة وغير المنضبطة، وذلك من خلال فرض القانون، ولكن القانون الذي يتحدث عنه ميكافيللي هنا ما هو إلّا قانون الأمير، أي آراءه ومعتقداته، فلا يجب أن نعتقد بأن قانون أميرِ ميكافيللي هو القانون الأخلاقي، بل هو القانون الذي يرسخ سلطان الدولة، فحتى أكبر

[1] سباين، جورج. (د.ت). تطور الفكر السياسي، ج 3، ترجمة: راشد الراوي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ص 47.

الدول الجمهورية كروما، والتي تحولت إلى إمبراطوريةٍ، كان مبتدؤها الحرية، ثم ما لبست أن رسخت القانون الذي يحفظ الحرية، وما لبست أن خسرت حريتها، لأن الناس ظلوا يحاولون انتهاك القانون، ولذا فإنّ للأميرِ المستبدِّ دوراً مهماً _من وجهة نظر النص الميكافيللي_ في ضبط مسارِ تاريخِ المدنياتِ السياسيةِ، ذلك أن الطبيعة الإنسانية تخلق الاضطراب في مسارِ تحولاتِ المجتمع السياسي وتطورِ الدولة، *وهذا التحليل يقود مكيافيلي إلى معضلة؛ فهو من ناحية أولى قد أكد الطبيعة طموحة ومتشكّكة للإنسان إلى حدّ اعتقاده بأن معظم الناس لن يفعلوا أبداً أي شيءٍ جيداً إلّا رغماً عن إرادتهم. لكنه من ناحية أخرى يصرُّ على أن السماح للبشر بأن «يرتقوا من طموح إلى آخَر». سرعان ما يتسبّب بتمزيق مدينتهم «إرباً» وضياع أي فرصة لها في أن تصبح عظيمة. والسبب في ذلك أنّه مع كون الحفاظ على الحرية شرطاً ضرورياً لتحقيق العظمة، دائماً ما يكون نمو الفساد فتّاكاً بالنسبة للحرية، ذلك أن الأفراد الأنانيين سيكونون قادرين على إحداث الفوضى، إلى الحد الذي تبدأ فيه رغبةُ الشعب في التشريع «باسم الحرية» تتآكل بالتوازي مع ذلك؛ فيحل الاستبداد سريعاً محلّ الحرية. وبناءً على ذلك فإنّ الفساد حينما يدخل جسد عامة المواطنين ويتملكه تماماً، فإنه يجعلهم غير قادرين على العيش بحرية، لأن قوانين الحرية تَفْسُدُ*.[1]

إن تحقيق نظامٍ قانونيٍ جديدٍ، ومشروعيةٍ سياسية جديدة لهو أمرٌ جللٌ يتطلبُ من الأمير وفق ما يرى ميكافيللي ارتكاب الكثير والعديد من الشرور والآثام، وهو إذ يقرُّ بضرورة هذه الآثام، فإنه يذهب بعيداً وبشكلٍ استعراضيٍ إلى نصح الأمير على أن يرتكب آثامّه باحترافيةٍ وبطريقةٍ ممنهجةٍ، بدلاً من أن يضطر لأن يرتكبها بطريقة عفوية لا يمكن تفادي عواقبها، وفي الحقيقة فإنّ ميكافيللي في هذه النقطة يبدو وكأنه يتحول إلى عقلية إجرامية، بل إنّ ما ذكره عن القوانين وعن دور الأمير كمشرّع يبدو وكأنه يذهب أدراج الرياح، حتى ولو كانت هذه القوانين مجرد محددات للسلطان السياسي الذي يبلوره الأمير وفق مصالحهِ، فعندما يتعلق الأمر بالنسبة لكتاب الأمير بضرورة فرض

[1] سكينر، كوينتن. (2014). ميكافيللي– مقدمة قصيرة جداً، ترجمة: رحاب صلاح الدين، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ص 66.

السُلْطَة والسيطرة، فإن كل الإجراءات مطلوبة، لكن مع الحفاظ على هذه القوانين قدر الإمكان، ومع ذلك كله فإنّ مثل هذه الجرائم من وجهة نظر ميكافيللي ضرورية لفرض الطاعة والتخلص من المنافسين والأعداء المحتملين، لهذه المشروعية السياسية والقانونية الناشئة على يدي الأمير، ومن قبيل هذا ما يقوله ميكافيللي ها هنا: "**ومن الملاحظ إذن أنّه عندما نستولي على ولاية، فإنه يجب على المنتصر أن يخططَ لجميع جرائمه مرة واحدة حتى لا يضطر للعودة إليها في وقتٍ آخر. وأن تكون له قدرة على اتخاذ تغييرات جديدة تؤكد للعامة الحرص على مصلحتهم ليكسبهم إلى صفه. ومن يفعل غير ذلك عن جبن أو بناء على نصيحة من حوله سيظل من المفروض عليه أن يقف وفي يده الخنجر، ولن يتمكن أبداً من الاعتماد على رعاياه، لأنهم لن يثقوا به، بسبب كثرة مشكلاته**"[1]

إن تبرير ميكافيللي حول ضرورة ارتكاب الآثام والجرائم، لهو تبريرٌ لا يمكن الدفاع عنه بكل تأكيد، وهي نزعة خطيرة جداً لتبرير الشر، ولكن ومع ذلك كله نجد، خصوصاً في الفكر الليبرالي والفكر السياسي الحداثي، وقد بقيت رواسب لمثل هذه الأفكار، وتحديداً فكرة ضرورة الشر، وهذه النزعة تخفّ كثيراً في كتاب المُطارحات عمّا هي عليه في كتاب الأمير، لكنها صداها يبقى قوياً بما فيه الكفاية للمحافظة على تمام الفكرة، وربما ذلك لكون ميكافيللي يقترب في المطارحات من مبدأ السيادة الشعبية، ويروج أو يدافع عن فكرة الجمهورية دفاعا قوياً، ورغم أنّه لا يصحّ القول أبداً أن ميكافيللي قد نسف فكرة كتاب الأمير في كتاب المطارحات، أي فكرةَ الأمير المستبد، إلّا أنّ ميكافيللي يحدّد في المطارحات دور الأمير في أطوار تاريخية وحالات معينة، فيجعل دور الأمير الأمثل في المرحلة التأسيسية للجمهورية، غير أن ارتكاب الشرور والآثام يبقى إجراء ضرورياً عنده، لا مناص منه، لكن قد يُفهم منه أنّه تأسيس لقانونٍ جديدٍ على حساب قانونٍ قديمٍ، وإعادة هيكلةٍ طبقيةٍ للمجتمع، ومرةُ أخرى فإنّ فكرة الشر والجريمة أمورٌ لا يُقبَلُ الدفاع عنها، من وجهة نظر إيتيقية، ومن وجهة نظر الخير المستدام للحضارة، مهما بدت مثل هذه الآثام مغريةً، لكنّ اتجاه ميكافيللي هذا هو نتيجة طبيعية لفصل السياسة عن

[1] ميكيافيللي: الأمير، مصدر سبق ذكره، ص 54-55.

الأخلاق، الذي رسّخه في كتاب الأمير، خصوصاً أنّه يسوّق جملةً من الحجج العقلانية التي تتحدث عن ضرورة الشر وآليات ارتكابه، وذلك لاختصار الآلام على الجماهير أو على الشعوب، ولعلّه أوّل من روّج لفكرةِ الأضرارِ الجانبية في السياسة، قال ميكافيللي: "**وإذا كانت الأخطاء لابد واقعة فيحسن أن تكون دفعة واحدة حتى تكون أقل تأثيراً من واقعات متعددة تبقي آثارها. أمّا المزايا فيجب إعطاؤها للرعايا جرعةً جرعة حتى يستمتعوا بها ويشعروا بفائدتها. وقبل كل شيء لا بد للأمير أن يعيش وسط رعيته بطريقة لا يؤثر فيها حدوث حادث له فيخرجه عما يخطط سواء كان حادثاً مؤلماً أو حادثاً سعيداً. وذلك لأنك لا تكون في هذا الموقف موفقاً إذا استخدمت الشدة، وإن فعلت الخير لن تجنى من ورائه أي فائدة، لأنه سيؤخذ على أنّه اضطرار وبلا أي فائدة**".[1]

لقد تراجع ميكافيللي خطوةً إلى الوراء فيما يتعلق باستخدام العنف في متن كتابه المطارحات على تيتوس ليفيوس، لكن تراجعه هذا لم يكن من باب نزعةٍ أخلاقية، ولم يكن تراجعاً حاسماً، بل كان تلطيفاً وعقلنةً للفكرة، وربما كان ذلك بسبب اختلاف مناسبتي الكتابين، وهو ما يجعل منهما نصين مختلفين من حيث القوة والشدّة والتوجهِ، إلّا أن سمات نظريته تبقى هي الواقعية، فالشرور جزءٌ من عالم السياسة. وقد رسّخت الحداثة فكرة أن الآثام جزءٌ من حياة السياسية، وقد تسربت هذه الفكرة إلى الاتجاه الليبرالي والماركسية على ما يُعتقد، بل إن هذه الفكرة توغلت في أعماق الفكر الحداثي، بحيث أصبحت جزءاً لا ينفك عن الممارسة والتنظير السياسي الحديث. والفكرةُ الرئيسة التي ينطلق منها ميكافيللي ثمّ ما يلبث يعود إليها هي علاقة الشر بخيرية الحاكم، ومفاد هذه الفكرة أن القيام بأعمال الخير والصلاح مسألة تتطلب جهوداً كبيرةً ومشرعين عظماء، وهي صفةٌ لا تتوافر إلّا في القلة والندرة من الناس، وهؤلاء يمتلكون القدرة على العنف، ويمتلكون القدرة على إحقاق السلام، ولكنهم وفي الحالتين يقومون بالأعمال الخيرة، ولشدّة جاذبيتهم وعظمتهم فإنّ الناس تَدين لهم بالذكرى والطاعة، حتى بعد مماتهم، لكن مرةً أخرى فهؤلاء بحب ميكافيللي نوعٌ نادرٌ من البشر، بينما يكون طريق الخير صعباً وخطيراً

[1] المصدر السابق ذاته، ص 55.

على الانسان بحالته الطبيعية، إن هو تقلّد زمام الإمارة، وذلك لأن للجماهير طبيعة جاحدة وانتهازية واستغلالية في كثير من المواقف والمناسبات، ولذلك يرى ميكافيللي مرةً أخرى أن الأمير قد يضطر للشر اضطراراً، وهذا هو موقفه الملطّف في المطارحات والمعدل عما ورد في كتاب الأمير، فقد صرّح في المطارحات أن العنف المفرط غير الهادف إنّما هو فعل أحمقٌ، يقول ميكافيللي في هذا الصدد: "**ومثل هذه الأساليب بالغة في قسوتها، وقد ينقم عليها أي مجتمع، لا المجتمع المسيحي وحده، بل كل مجتمع يتألف من بني الإنسان. ويجدر بكل إنسان أن يزدري هذه الأساليب تبعاً لذلك، وأن يُؤثِرَ العيش كمواطنٍ عادي، على أن يكون ملكاً له مثل هذا السجل في خراب الناس ودمارهم، ومع ذلك فإنّ من مصلحة ذلك الإنسان الذي لا يرغب في اتباع ذلك الطريق من عمل الخير أن يقتحم، إذا أراد الحفاظ على ما يملك، طريقَ الشرِّ. ويؤثر معظم الناس في الحقيقة، اتباع طريق وسط، وهو أمر ضار كل الضرر، وذلك لجهلهم كيف يكونون طيبين كليةً، وكيف يكونون سيئين كل السوء...**".[1]

في واقع الحال فإن ما يقوله ميكافيللي لا يعني أن استخدام العنف بذاته كوسيلة للتحكم بالمجتمع من خلال الخوف والذعر يؤدي بالضرورة لإجبار الجماهير على الخضوع لقوانين الأمير، أو على الأقل هو سلوك لا يضمن ذلك، فقد يخلق ذلك اضطرابا يعيق هذا الأمر، وقد أشار ميكافيللي نفسه إلى هذا الأمر في عدة أماكن من كتابيه الأمير والمطارحات، وبجميع الحالات فإن ما يريده ميكافيللي ليس العنف بذاته، بل الأدوات الماكرة التي يتم فيها إحقاق التوازن بين صورة الأمير الصالح وصورة الأمير الداهية، وكذلك التوازن بين القانون والإكراه، بحيث يُهاب الأمير من قبل أعدائه ورعاياه، فينقاد له القوي ومن ثم الضعيف، فيركز ميكافيللي على الصورة الذهنية التي يرسمها الأمير في أذهان الآخرين، فتعتمد هذه الصورة على سلوكه وأفعاله التي تحفر عميقا في ذاكرتهم، وما العنف إلّا أداة من هذه الأدوات، مثلما تكون الثروة أداة أخرى وكذلك القوانين، وغيرها من الأدوات، وفي الواقع فإنّ التوازن بين الرذيلة والفضيلة مسألة مهمة لميكافيللي، لكن هذا التوازن لا يعني أنّه يتحدث عن الفضيلة الأفلاطونية، بل الفضيلة

[1] ميكيافيلي، نيقولو: مطارحات ميكافيلي، مصدر سبق ذكره، ص 308-309.

عنده لا تعني أكثر من حُسْنِ الفطنة في استخدام الأفعال المناسبة في المكان المناسب، أما الرذيلة فهي الأفعال الوقحة التي تخالف قانون الجماعة وأخلاقهم وتجبرهم على قبولها، بل يذهب الفبسلوف الأمريكي الألماني ليو شتراوس إلى حد تأويل نظرية ميكافيللي، باعتبارها الاستخدام الفَطِنِ للفضيلة والرذيلة، فيكون الخيرُ في الفطنة، *فيتطلب الواجب عند ميكافيللي الاستخدام الفطن العنيف لكل من الفضيلة والرذيلة وفقاً لمتطلبات الظروف. والبديل الفطن للفضيلة والرذيلة هو الفضيلة بالمعنى الذي يقصده بالكلمة، فيتعمد ميكافيللي الخلط المقصود للقراء بين المعنى الكلاسيكي للفضيلة والمعنى السياسي الذي يشير إليه، بغية أن يحط من قيمة المعنى القديم للفضيلة. ومن ثمّ يميز أحياناً، بين الفضيلة والخير. وهي فكرة من بنات أفكار (شيشرون) وهو الذي أعد بطريقة ما هذا التمييز الذي يقول إن الناس يوصفون بأنهم (أخيار)، بسبب تواضعهم. واعتدالهم، وفضلاً عن ذلك بسبب عدالتهم، وحفظهم للعهد، من حيث أنّه يتميز عن الشجاعة والحكمة. ويذكّرنا تمييز (شيشرون) بين الفضائل بدوره بجمهورية أفلاطون التى يصور فيها الاعتدال والعدالة على أنهما فضيلتان يحتاج إليهما الجميع؛ فى حين أن الشجاعة والحكمة لا يحتاج إليهما إلّا البعض، وهو ما يمكن ربطه بتصورات ميكافيللي عن الفضيلة المزدوجة لدى الأمير الداهية.*[1]

وعطفاً على فكرةِ الشرِّ، فإنّ ميكافيللي يصرّ ويؤكد دوماً على أهمية الحرب في فرض شرعية السلطة، إذ إنّ الحرب تكون ناجحةً من خلال قوةِ أميرها واستخدامه الصحيح للموارد وهذه مسألة تتطلب منه تعلما ومعرفةً وإدراكا للواقع السياسي لدولته، وإن هذا هو المطلوب تعلمه من أي أمير حذقٍ، وتتراوح نظرة ميكافيللي نحو الحرب بين أمرين الأوّل أن الحرب فرعٌ من السياسة فتكون بحد ذاتها سياسة خشنةً، وهذا فيه كثير من الوجاهة إذ إنّ الحرب بمعنى من المعاني هي انتقال للقوة من الحالة الناعمة إلى الحالة الخشنة، وكما أن القوة الناعمة تهدف للسيطرة عبر أدوات الحيلة والإقناع والحرب الإقتصادية وغيرها من الأدوات التي تهدف لإخضاع الخصم، فإنّ الحروب الخشنة هي

[1] شتراوس، ليو. (2005). نيقولا ماكيافيللي– تاريخ الفلسفة السياسية، الجزء الأول، تحرير: ليو شتراوس وجوزيف كروبسي، ترجمة: محمود سيد أحمد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ص 436.

استخدام للقوة الغاشمة من أجل إجبار الخصم على الرضوخ، وبين هاتين القوتين فهناك روابط وطيدة، وتحديداً بالقوة الاقتصادية والصناعية، أمّا الأمر الثاني أو الوجه الثاني لنظرة ميكافيللي إلى الحرب فمفاده أن السياسة هي حرب بذاتها وجوهرها، وبينما تدور عوالم السياسة حول الخداع والمناورة فإنها من حيث الجوهر حرب ضروس تدور حول السيطرة والحكم والطموحات الشخصية، وبهذا فإنّ نظرة ميكافيللي إلى دور الحرب وغايتها وطبيعتها يبقى متراوحا بين هذين القطبين، ولكن وبجميع الأحوال فإنّ الحرب عنصر ضروري جداً لنجاح الأمير كما ورد في كتابيه، وحمّل الأميرَ نصيحة ذهبية لتعلم فنون الحرب لأنّها وحدها الضمانة لاستمراره واستمرار سلطته كما بيّن ميكافيللي مراراً وتكراراً، إذ "**ينبغي للأمير ألّا تكون له غاية أو فكرة سوى الحرب، ونظامها وطرق تنظيمها، وألا يتخذ لدراسته موضوعاً آخر سواها. فهذا هو الفن الوحيد اللازم لمن يتولى القيادة. فهو فن له من المزايا ما يكفي للمحافظة على هؤلاء الذين ولدوا أمراء والإبقاء عليهم في مناصبهم. كما أنّه يساعد الرجال العاديين على بلوغ مرتبة الإمارة. ومن ناحية أخرى يمكننا أن نرى أن الأمراء يفقدون ولاياتهم عندما يفكرون في مظاهر الترف أكثر من تفكيرهم في الأسلحة. والسبب الأوّل لضياع الولايات هو إهمال هذا الفن. فهي تكتسب عن طريق إجادة هذا الفن**".[1]

وإضافة إلى فكرة الحرب والتمرس وضرورة التمرس عليها، فإنّ ميكافيللي ينصح الأمير بايجاده لمعرفة التاريخ والتعمق فيه، فإنّ فيلسوف فلورنسا يرى بالتاريخ منبعاً للحكمة والمعرفة والإحاطة بالمهام والأدوات السياسية، وإدراك المواقف المختلفة وفهم طبيعة الصراع السياسي عبر التاريخ، فيثمن ميكافيللي عالياً وعميقاً تجربة القدماء سواء أكانت هذه التجربة هي تجربة الجمهوريين من أهالي روما القدامى، والذين أسسوا لإمبراطورية روما قبل أن تتحول إلى نظامٍ ملكي أو ما يشبه النظام الملكي، وسواء أكانت هذه التجربةُ تجربةَ أمراء إيطاليا في صراعاتهم وحروبهم، أو حتى تجربة ملوك فرنسا، وبجميع الحالات فإنّ ميكافيللي أدرك عميقاً أن المنهج التاريخي في استقراء الواقع هو منهج عملي يساعد على تفادي الأخطاء، وتجنب تكرارها، وإدراك محدودية الخيارات

[1] ميكيافيللي: الأمير، مصدر سبق ذكره، ص 77.

لدى الأمير، وإدراك التنوع بحلول سياسية لبعضٍ أو لكثيرٍ من المواقف السياسية المستعصية، ورغم ذلك فإنّ استقراء التاريخ هو مسألة عقليةٌ تتطلب عقلاً راجحاً يفهم من التاريخ ما خفيَ أكثر مما ظهرَ، أي أنّه يقرَ أبعاد الموقف التاريخي، وطبيعة التغيرات السياسية والحضارية العميقة بدلاً من قراءه ظواهر التاريخ كأحداث عابرة، وقد قال فيلسوف فلورنسا وهو يحضّ على استقراء التاريخ: "**أما فيما يخص تدريب العقل فإنّ على الأمير أن يقرأ تاريخه، ويدرس أعمال عظام الرجال، ليرى كيف كانوا يتصرفون في الحروب، ويدرس أسباب انتصاراتهم ومسببات هزائمهم؛ حتى يستطيع أن يسير على درب المظفرين ويتحاشى أن يلقى هزيمة تماثل هزائم المقهورين منهم. وقبل كل شيء يجب عليه أن يسير على درب عظماء الماضي، الذين كانوا يتخذون بدورهم من العظماء الذين سبقوهم قدوة لهم**".[1]

ولكن هذه النصائح التي يقدمها ميكيافيلي حول ضرورة إتقان السياسي لكثير من المهارات والحيل السياسية ليست في حقيقة الأمر قائمة بالضرورة على مهارات التسلط والسيطرة على الجمهور، رغم أن السيطرة مهارة مطلوبة من جملة ما يطلب عنده، إلّا أنّ هذا لا يعني أن تظل جماهير بلا قوة وبلا إمكانات، فيركز ميكافيللي على ضرورة أن يقوم القائد الناجح على إقناع جماهيره بمشروعيته السياسية وإمكاناته وأحقيته، وذلك في تقرير الفعل السياسي المناسب لكل موقف، وهذا يعني أنّه سيستهدف مهارات الإقناع سواء أكانت بالقوة الناعمة أم بالقوة الخشنة، لكن يشير ميكافيللي إلى نقطة بارزةٍ وهي أن أكثر الأمراء نجاحاً في قيادة مدنياتهم هم الذين يمدّون جماهيرهم وعامّة مدنيتهم بالقوة للشعور بهوية انتمائهم إلى هذه الإمارة، بل إنّ هذه الصفات إن لم تكن موجودةً فيهم كان من الأجدى أن يوجدها هذا الأمير فيهم، وبحسب كوينتن سكينر، فإنّ "**الحجة الأساسية التي يطرحها هي أن «قوة» القائد البارز سوف تتمثل دائماً، في جزء منها، في شكل قدرة على إضفاء نفس هذه الصفة الضرورية على أتباعه، رغم أنها قد لا تكون من بين الصفات الطبيعية التي يتمتعون بها. والافتراض الرئيسي الذي يطرحه [ميكافيللي] إذ يناقش كيفية عمل هذا الشكل من أشكال التأثير، هو نفسه الذي طرحه في كتاب**

[1] المصدر السابق ذاته، ص 79.

«الأمير»، ثم لاحقاً في الكتاب الرابع من «فن الحرب»، ومفاده أن أكثر الوسائل فعاليةً لحمل الناس على التصرف «بقوة» تكون من خلال تخويفهم من عواقب التصرف بأي طريقة أخرى تخالف ذلك".[1]

وتتصارع في شخصية الأمير جانبان، الأوّل هو صورته لدى رعيته التي يحكمها باعتباره حاكماً ذا فضيلةٍ فائقةٍ، وأمّا الثاني فهي صورته باعتباره الأمير القوي الذي يتجرأ على خوض المخاطر واغتنام الفرص، والذي لا يتوانى عن أيّ فعلٍ سياسيٍ ضروري، وبالتالي يقدم أمير ميكافيللي لجمهوره صورةً محيرةً تميل إلى السلبيةِ وزرع الخوف في نفوس الجماهير، إنّما تؤطر بإطار الحاكم المشرع البارع الذي يتقن استنباط القوانين التي تسير المدنية على أساسها، وهذا ما يجعل سلوك الأمير منطوياً على ازدواجيةٍ ناجحةٍ تقوم وتتعامل مع المواقف السياسية المختلفة بوجهين، وهو ما يصل إلى مستوى الازدواج الأخلاقي، ويقدّم لنا ميكافيللي مثالاً متطرفاً عن مستوى الازدواج الأخلاقي للقيمة، **"أحدهما للحاكم والآخر للمواطن بصفته الشخصية. الأوّل يحكم عليه بالنجاح فى حفظ سلطته وزيادتها؛ والثاني بالقوة التى يشيعها سلوكه فى المجموعة الاجتماعية. ولما كان الحاكم خارج المجموعة، أو على الأقل في علاقة خاصة جداً بها، فهو فوق الأخلاق التى يراد فرضها فى داخل المجموعة".**[2]

ومما يبدو جلياً أن كتابا الأمير والمطارحات تجمعهما خصائص مشتركة على مستوى التوصيف والنظرية إذ إنّ السلوك السياسي ذو هدفٍ واحدٍ، ألا وهو السيطرة والإخضاع والإقناع، كما سبق وأسلفنا، غير أن الاختلاف بين الكتابين يتعلق بمآلات النظرية وتفضيلاتها وسياق ورود المتن السياسي، إذ إنّ كتاب الأمير الموجه إلى لورينزو دي ميديتشي يختلف من حيث بنيه النص وغايته عن المطارحات الذي يقدم توصيفاً تاريخياً على أساس التعليقات على نص تيتوس ليفيوس، وبينما يتناول كتاب الأمير في مركزه معايير النجاح السياسي، والحيل السياسية التي يتبعها الأمير أو الزعيم السياسي في خضم قراراته وسلوكه الشخصي، فإن كتاب المطارحات يتناول السلوك السياسي من

[1] سكينر، كوينتن: ميكافيللي– مقدمة قصيرة جداً، مرجع سبق ذكره، ص 68.

[2] سباين، جورج: تطور الفكر السياسي، ج 3، مرجع سبق ذكره، ص 37.

جانب إدارة المجتمع والسياق التاريخي المحتمل لتطورِ المدنية السياسية، ولهذا قد نجد أن الأمير يكثر من النزعة اللاأخلاقية العنفية في تقرير السلوك الأمثل على أساس النزعة التجريبية، بينما يذهب المُطارحات إلى قراءة الوضع التاريخي المحتمل لتقرير السلوك السياسي الأمثل على أساس الاستقراء المعمق للموقف السياسي، فينزع المطارحات نزعةً قويةً إلى التشريع، ولكن في الحالتين فإن الهيبة والسطوة النفسية هما أساس إقرار سُلْطَةِ الأمير أو الحكم، فالخوف غاية من غايات السياسي، إذ إن رؤية ميكافيللي تذهب بعيداً نحو إخضاع الجماهير بالخوف، وقد قال شتراوس في هذا الصدد: "**إن استعادة الفضيلة القديمة تتكون من إعادة فرض الفزع والخوف اللذين جعلا الناس أخياراً فى البداية. ولذلك يفسر ماكيافيللى ماذا يعني اهتمامه باستعادة الأساليب والنظم القديمة بصورة أساسية. لقد كان الناس أخياراً فى البداية، ليس بسبب النقاوة والطهارة، بل لأن الفزع والخوف استحوذ عليهم، استحوذ عليهم الفزع والخوف الأولي والأصلي؛ لأنه لم يكن هناك فى البداية حبّ وإنما فزع وإرهاب، إن تعاليم ماكيافللى الجديدة تقوم كلها على هذه النظرة المزعومة (التى تسبق نظرية هوبز عن حالة الطبيعة)**". [1]

يبدو أن ميكافيللي يعطي دوراً كبيراً لرجلِ السياسةِ في التأثير على حياةِ الإنسان، وإنه لقولٌ وجيه أنّ الإنسان حيوان سياسي كما يصفه الفكر الفلسفي، أي أن الخصائص التي تميز المدنيةَ أو الاجتماع البشري هي السلوك السياسي الذي يتجلى من خلال الظواهر السياسية السلطوية، التي تعبر بدورها عن توازنات القوة في المجتمع السياسي، ونقصد بذلك أن السياسة هي تلك الممارسة القائمة على إدارة العلاقة بين أقطاب القوة في أي مجتمعٍ، على أنّ هذه الإدارة تتم من خلال سلوكٍ لفظيٍ وقانونيٍ وإداريٍ، فالسياسي بالنسبة لميكافيللي هو الذي يمتلك مهارة الإقناع سواءَ من خلال القوةِ الناعمة والقدرة على التأثير بالرأي لفظياً ومعنوياً ورمزياً، أو من خلال القوة الخشنة أي استخدام القوة لإخضاع رأي الطرف المستهدف، وفي الحالتين فإنّ ذروة دور السياسي هي في تأسيس المدنية السياسية، ويظهر ذلك من خلال دور الآباء المؤسسين، وهؤلاء بحسب ميكافيللي

[1] شتراوس، ليو: نيقولا ماكيافيللي: تاريخ الفلسفة السياسية، مرجع سبق ذكره، ص 448– 449.

على قدرٍ كبير من الندرة، أي أنهم أناس يندر أن يكررهم التاريخ، لكنهم ينجحون من خلال تركيبهم الخاص الذي يجمع الكاريزما والقوة والجرأة والعقل الراجح وإدراك الصواب والحق، في تأسيس مدنٍ جديدةٍ بشرعياتٍ جديدةٍ من خلال قوانين وشرائع جديدةٍ، *ولهذه الفكرة المبالغ فيها عما يستطيع أن يعمله حاكم ودولة، أسباب عدة. فهي من جهة كررت فحسب أسطورة المشرع القديمة التى وجدها ميكافيللي عند شيشرون وبوليبيوس. ومن جهة أخرى فإنها تعكس فهمه للمشكلة التى واجهت حاكماً وسط فساد إيطاليا فى القرن السادس عشر. فالعبقرية السياسية المحضة تُعِينُ الحاكم الناجح على خلق قوة عسكرية هي من القدر الكافي من القوة بحيث تتغلب على المدن والإمارات الصغيرة المخلة بالنظام؛ وهو ما يفترض ميكافيللي أنّه يخلق فى النهاية روحاً عامة جديدة وولاءً مدنياً جديداً*.[1]

إن البراجماتية العملانية التي يتسم بها أمير ميكافيللي ترتبط مع تغيرات الموقف السياسي في واقع إيطاليا عصر النهضة، فلطالما اتسمت المدنية السياسية بالتحولات الدراماتيكية الخطيرة، والتقلبات في أمزجة الناس، وفي تقلبات ولاءاتهم، وهذا ما انتبه له ميكافيللي في ظروف انقسام إيطاليا، وصراع الدويلات الذي عاشته الأمّة الإيطالية، فضلاً عن الوضع العام المشابه الذي عاشته أوروبا عموماً إبّان الحقبة الإقطاعية وفي نهايات حقبة الإكليروس، وبينما يتسم سلوك الأمير بازدواجية في السلوك، فإنّ هناك أيضاً مستويين للسلوك السياسي في المدنية السياسية كما ينظر لها ميكافيللي، فهناك السلوك السياسي الذي يلتزم به المواطنون أو الأفراد المنتمون إلى تلك المدنيات السياسية والخاضعون لقانونها أو قوانينها، وهي ذات القوانين التي يجب أن يضعها الأمير، أمّا المستوى الآخر فهو الذي يمارسه السياسي في مستوى الحُكم أو الإمارة، ومرةً أخرى كما ينظر ميكافيللي، حيث يقومُ الأميرُ بإتيان كل الأفعال اللازمة والضرورية، والسيطرة على المواقف السياسية المتغيرة، والتحولات الخطيرة، سواء في حالة الحرب أم حالة السلم، وقد أشار جورج سباين إلى هذه المسألة، مبيّناً أنه *من وجهة النظر الميكافيللية يسهل فهم المستوى المزدوج للسلوك بالنسبة إلى رجل الدولة وللمواطن بصفته الشخصية، وهو*

[1] سباين، جورج: تطور الفكر السياسي، ج 3، مرجع سبق ذكره، ص 41-42.

المستوى الذي يتكون منه المعنى الرئيس للنموذج الميكافيللي. فالحاكم باعتباره خالق الدولة، ليس خارج القانون فحسب. ولكنه خارج الأخلاق أيضاً، والمستوى الوحيد الذي يحكم به على أفعاله هو نجاح وسائله السياسية لتوسيع نطاق قوة دولته وإدامتها. إن الصراحة التى تقبل بها ميكافيللي هذه النتيجة وأدرجها فى نصيحته للحكام، هي السبب الرئيس فى سمعة كتاب «الأمير» السيئة، فقد أقرّ علناً استخدام القسوة والغدر والقتل أو أية وسيلة أخرى. شريطة أن تستخدم هذه جميعاً بالقدر الكافي من الذكاء والسرية كي تصل إلى غاياتها.[1]

وبناء على هذا التمايز في مستويات السلوك في المدنية السياسية ينشأ لدى ميكافيللي ازدواج في القيمة، وهو ما يلاحظه ليو شتراوس، وهو الازدواج بين الفضيلة والخيريّة، وهذه المصطلحات لا يمكن أن تفهم في سياق أفلاطوني أو أخلاقي أو حداثي، بل في سياق عملاني ذرائعي تبريري، بل إن ميكافيللي يستخدمها أحياناً على سبيل التهكم، وبجميع الحالات فإنّ العوام وفق منظور كتاب الأمير يلتزمون الخير أي الخيريّة، وهذه القيمة هي أن يفعلوا ما يفعلون من خلال طاعتهم للقانون، وكلّما كانوا أكثر طاعةً كانوا أكثر خيريةً، فالخيريّة كقيمةٍ تلزم العوام أو الجمهور بالمسالمة والوداعة والطاعة، أمّا الفضيلة فهي ما يلتزم به السياسي بضرورات الحُكم لأجل صالح الدولة، فهي كل فعل لازم مناسب للموقف السياسي، وبهذا فإنّ الفضيلة كما يشخصها ميكافيللي تتخطى وتتجاوز مستوى المعيار الأخلاقي التقليدي، وتلتزم بضرورات الموقف، *فتمييز ميكافيللي بين الخيريّة والفضائل الأخرى يجنح إلى أن يصبح تعارضاً بين الخيريّة والفضيلة، فبينما تكون الفضيلة مطلوبة للحكام والجنود فإنّ الخيريّة تكون مطلوبة للعوام، فهي التي تميّز العوام الذين ينشغلون بوظائف سلمية؛ فى حين أن الخيريّة تعني شيئاً أشبه بالطاعة المهابة الراسخة للحكومة والقانون.*[2]

[1] المرجع السابق ذاته، ص 42.

[2] شتراوس، ليو: نيقولا ماكيافيللي: تاريخ الفلسفة السياسية، مرجع سبق ذكره، ص 436-437.

ثالثاً– الأمير وتحولات المدنية السياسية:

إنّ المشكلة التاريخية التي تواجهها أي سلطة سياسية، بحسب ميكافيللي، هي احتمالية انهيارها تبعاً للمعايب التي تكمن في أسس النظم السياسية، فأياً كان ما ارتضته الجماهير في أي مدنية، وأياً كان نوع الأمير الذي استبدّ بالحكم في أي إمارة كانت، سواء أكانت رومانية أو إيطالية أو أوروبية إقطاعية، فإنه وبحسب ميكافيللي سينبثق نمط من الحكم قابل للتقهقر إلى شكلٍ ناقصٍ ومتدهورٍ، ومغزى ذلك أن أشكال الحكم الثلاثة (الديمقراطي الجمهوري، الملكي، الأرستقراطي) التي يوردها ميكافيللي، ستعيش حالة من النهوض والازدهار ثم ما تلبث أن تشكل في أزمنة الضعف نوعاً مشوهاً من أنظمة الحُكم، فالحُكم الملكي سيتحول إلى حُكم الطغيان، والحُكم النبيل، أي حكومة النبلاء ستتحول إلى حكومة القلّة أو الأوليجاركي، أمّا حكومة الديمقراطية الجمهورية ستتحول إلى حكومة الفوضى في شيخوختها، وتبعاً لذلك فإنّ الذي يحدث أنّ شكل الحكم المتدهور سيؤدي إلى انتصار شكلٍ جديد، وهذا ما يبينه ميكافيللي في كل مرحلة من المراحل، وبذلك تكتمل الدورة الدستورية على هذا الأساس، وخلاصة الفكرة أن كلّ نموذجٍ يحمل في تضاعيفه بذور فساده بشكل يشبه تقريباً فساد الصورة التي تحمل على الهيولى لدى أرسطو، فإنّ الصيرورة تؤدي أو تتأتى من كون الهيولى تتسبب بالفوضى وفساد الصورة، ولذلك إن ما يكسب هذه المدنية (= الهيولى) شكلها السياسي هو الحاكم أو الأمير، من خلال إضفاء العقلانية بشتى الوسائل على حالة الفوضى هذه، **إذ "على منظم الدولة، أن يكون ... على جانب كبير من التعقل والفضيلة، بحيث لا يسلم السلطة التي حصل عليها، إلى أي شخص آخر، إذ إنّ طبيعة الناس ميالة إلى الشر أكثر من ميلها إلى الخير، [بحيث] تمكّن خَلَفه من استخدام هذه السلطة بشكل طموح مخالف الطريقة الفاضلة الي استخدمها هو فيها"**[1]

يتناول ميكافيللي في هذا السياق أهمية إعادة تأسيس المدنية السياسية، وإعادة هيكلة الدولة، وذلك من خلال تأسيس نظام قانوني يعبّر عن سياسة الأمير، ولكن الأمير ذاته لا يكون بالضرورة سياسياً محضاً، وفي كثير من الحالات يذكر ميكافيللي أن هذا الأمير

[1] ميكيافيلي، نيقولو: مطارحات ميكافيلي، مصدر سبق ذكره، ص 250.

قد يكون مشرعاً عظيماً يؤسس لحضارةٍ أو أمّة جديدة، ويتقاطع الدور بين الأمير السياسي والأمير المشرع في دورهما بفرض قوانين جديدة تتواءم مع المرحلة الجديدة التي يبتدئانها، ولكن الفرق هو في المدى وعمق القوانين التي يفرضانها، فالسياسي التقليدي أي الأمير المستبد المذكور في كتاب الأمير الموجه إلى لورينزو دي ميديتشي، إنّما يفرض مجموعة من القوانين تتوائم مع غاياته الضيقة ورغباته وسياساته العامة، فيما الأمير المشرع هو مشرّع في المقام الأوّل، وهو يفرض القوانين الجذرية التي تمتد لسنوات طويلة قد تكون قروناً، حيث يؤسسُ لروح الأمّة وطبيعة المدنية السياسية وتقاليدها على أمدٍ طويل، بما يحدّد الهوية السياسية لمجتمع معيّن في مستقبله القريب والبعيد، **إذ إنه "يعدّ دور «المشرّع» دوراً حاسماً، كمؤسس للجمهورية أو مصلح لها، فهو «إنسان متفوق» يمارس سُلطةً لا اقتسام لها، وفي سبيل مصلحة الدولة وحدها، وهو خالي الغرض بقدرٍ كافٍ، ولذا يعتزل بعد أن يكون سنّ قوانين باقية بفضل حكمتها...".** [1]

وبينما يبدو أن السياسي التقليدي وفق كتاب الأمير، اذا ما أراد النجاح فإنّ عليه أن يقوم بكثير من الأفعال المتسمة بالعنف والقوة المفرطة مهما بدا ذلك بعيداً عن الأخلاق، فإنّ الأمير المشرع بالمقابل، وإن كان يقوم بتأسيس الدولة فإنّه _برأي ميكافيللي_ لا غنى له أيضاً عن العنف، وإن اتسم بالفضيلة الأخلاقية الحقيقية، لكن كان ميكافيللي على اعتقاد راسخ بأن الجماهير وعموم الناس لا يخضعون إلّا للقوة ولا يحترمون إلّا القوي، ولذلك ومهما بلغ الأمير المشرع من الفضيلة والصلاح فإنه لا يُحترم أبداً إلّا اذا أظهر للناس من القوة مما لا يمكنهم ردعه، فالقوانين تفرض من خلال القوة ومن خلال تثبيط الناس الطموحين المغامرين الذين يسعون لاعتلاء سُلطة ليسوا أهلاً لها، ففي مرحلة تأسيس المدنيات او الدول، يكون على الأمير المشرع أن يتخذ الإجراءات الحادة والحاسمة لسن القوانينِ وفرضها على المجتمع الجديد الذي يكون مادة لقوانينه ولدولته، *فمثل هذا الأمير المشرعِ، لا يعتمد على غيره في تطبيق حكمته وإرساء قوانينه، وإلا أصابه الخذلان والفشل، بل لا بد له من الاعتماد على قوته وسطوته، والفطنة في استخدام القوة ويستدعي ميكافيللي هنا النماذج الدينية والميثولوجية للحكام القدامى، مثل*

[1] توشار، جان: تاريخ الافكار السياسية، مرجع سبق ذكره، ص 355.

النبي موسى (س)، وقورش الكبير، وتيسيوس، وروملوس، ويستخدم ميكافيللي مثل هذا الاستدعاء للدلالة على أهمية الملك القوي المسلح في إقرار وإرساء سلطة القانون الذي يولّده، وترسيخ الدستور الذي يؤسس لمدنيته ودولته عبر التاريخ، وفي خضم ذلك يرى ميكافيللي بأن هؤلاءالمؤسسون يواجهون أقسى الأخطار لإنفاذ حكمتهم في المدنية السياسية، وعندها يحصّلون الكرامة عند شعوبهم، وبهذه الطريقة استطاع جميع الأنبياء المسلحين برأي ميكافيللي أن ينتصروا فيما فشل فيه غير المسلحين منهم. وذلك يرجع إلى أنّ طبيعة البشر متقلبة، إذ من السهل تحفيزهم من اجل هدف ما ولكن من الصعب استمرار هذا الحافز، لذا لا بد من القوة لردع الناس من الارتداد عن القانون والإيمان.[1]

وبالعودة إلى الأمير تنقسم تلك المدنيات أو المدن السياسية إلى نموذجين اثنين، فتتراوح المدنيات في الواقع بينهما، فالنموذج الأوّل هو الإمارة المستبدة، وهي التي تستند في قوانينها وشرعيتها إلى الأمير وقوته وسيطرته، وقدرته على فرض رأيه من خلال إخضاع الجمهور، وبدون هذه القدرات لا يمكن للأمير _ برأي ميكافيللي _ أن يكون شرعياً من الناحية السياسية، فمرجعية الفعل السياسي أولاً وآخراً هي للقوة بالنسبه لفيلسوف فلورنسا؛ وعلى المقلب الآخر هناك نموذج المدينة الجمهورية التي تقوم على حكم الشعب الذي ينصّب على نفسه هيئةً تمثله، وهذا الأمير أو الهيئة أو الحكومة وأيا كان شكلها تتحدد قدرتها ومشروعيتها السياسية وفق ذات الشروط أي قدرتها على فرض قوتها وسيطرتها، وإقناع الجمهور بدلاً من إخضاعه. رغم أن النموذجين يبدوانِ على طرفي النقيض، إلّا أنّهما يستخدمان الشروط ذاتها، خصوصاً عند النظر إلى علاقة الحاكم بالمحكوم، أي الأمير أو أي هيئة تنوب عنه في مقابل الشعب أو الجمهور باعتبارها علاقة قائمةً على الإقناع والسيطرة من خلال مجموعة من الأدوات والسلوكيات التي تفرض الشرعية السياسية في المجتمع، أيا كانت قوانينه الداخلية، ومهما كانت معتقداته. فإذا ما تناولنا وضعية الأمير الجديد في المطارحات، وهو الذي يأتي من عامة الشعب ويجعله حاكماً على مدنية جمهورية بعد انهيار حكم الطغيان أو أي شكل حكمٍ قديمٍ فإننا سنجده مضطراً أيضاً إلى إقناع الناس وإرضائهم سواء بالسلوك الصالح

[1] ميكيافيللي: الأمير، مصدر سبق ذكره، ص 40-41.

أو السلوك الظاهري الموارب، أو بالرياء أو بالقدرة على السيطرة العنفية والخداع، أو السيطرة عبر الخوف، ورغم ذلك فإنّ مثل هذا الأمير الذي يأتي بعد حالاتٍ من الفوضى والتمرد لن يرضي الناس، وإن أظهر الخير لهم ليتجنب شرهم ويستميلهم، وإن وصل على أساس تمردٍ شعبيٍ أو على أساسي ظهورِ قوة النبلاء ووبروز قدرتهم الأرستقراطية، وقدرتهم على التأثير في الجمهور، وبجميع الحالات، فإن علاقة الأمير وطبقة النبلاء والجمهورِ تتعلق بتوازنٍ دقيق للقوى يتحرك ويتغير تاريخياً، ولا أفضلية حاسمة من وجهة نظر ميكافيللي لمرحلة على أخرى، يقول ميكافيللي: "**أود أن أقول، أنّه كما عاشت أنظمة حكمِ الأمراء هذا الأمد الطويل، فإنّ أنظمة الحُكمِ الجمهوري عاشت آماداً لا تقل عنها طولاً، وأن كلا الفريقين كان في حاجةٍ دائماً إلى القوانين لتنظيمها. فالأمير الذي يفعل ما يشاء يكون معتوها، والشعب الذي سيتصرف كما يهوى يفتقر إلى الحكمة. وعلى هذا فإذا كان الموضوع ينطوي على مقارنةٍ بين أمير يخضع للقوانين وبين شعب تقيده هذه القوانين، فإنّ الفضيلة التي تكون موجودة عند الشعب، تفوق ما يوجد منها عند الأمير، وإذا كان الموضوع ينطوي على تحلل كل من الفريقين من سيطرة هذه القوانين فإنّ الأخطاء التي يقترفها الشعب تكون أقل من أخطاء الأمير، كما تكون أقل خطراً وأسهل على التقويم والإصلاح. فمهما غالى الشعب في هياجه وتطرفه، فإنّ من السهل إعادته إلى صوابه عن طريق رجلٍ صالحٍ، إذا تمكن من توجيه الكلام اليه، بينما ليس ثمة من يستطيع الكلام إلى أمير شرير...**" [1]

وفي ذات السياق يؤكد ميكافيللي على الصراع التاريخي بين الحكم الجمهوري وحكم الإمارة كنموذجين أساسيين للحكم يؤدي في المحصلة إلى ظهور الفوضى عند انهيار أحدهما، وبين هذا وذاك، تجد طبقة النبلاء الطريق ممهداً للإمساك بزمام الأمور، وذلك من خلال استخدام أدواتها التي تحتفظ بها في المجتمع، فتحول إمكاناتها المادية والخبرة السياسية والعلاقات المتشعبة إلى أدوات سياسية للسيطرة، وبذلك تتحكم حكومة النبلاء التي تقوم على الخبرة السياسية بالواقع السياسي الذي يفرضه الجمهور، إذ يغتنمون حالة الفوضى، وتفكك سلطة الأمير، عندما يفشل في فرض سطوته، ولما كان النبلاء ذائعي الصيت، ونافذين في المجتمع، أي لدى الجمهور، ولمّا كانوا ممسكين بمقدّراتٍ عظيمة تتيح لهم فرض إراداتهم، فإنهم يعملون

[1] ميكيافيلي، نيقولو: مطارحات ميكافيلي، مصدر سبق ذكره، ص 412.

على إخضاع الجمهور بإقناعه بالشرعية السياسية التي يتسم بها النبلاء، وبهذا تتكون حكومة النبلاء على أساسِ وعود العدالةِ السياسية، بالمعنى النهضوي القديم الموروث عن العصور الوسطى، فيقومون بالسيطرة على فوضى الجمهور، وإزاحةِ منافسيهم الشعبيين والطغيانيين زمن الفوضى، لكن حكم النبلاء يحمل بدوره تفككه وانهياره عندما يتحول إلى حكم القلة أو الأوليجاركية، يقول ميكافيللي في المطارحات: "**ولكن عندما، كانت إدارة الحكم، تنتقل إلى أفراد ذريتهم الذين لا خبرة لهم بتقلبات الحظ، والذين لم يمروا بفترات عصيبة، ولم يكونوا يشاؤون القناعة بالعدالة المدنية السائدة، فإنهم كانوا يلجأون إلى الطمع والطموح، ...، مما يحيل حكومات النبلاء إلى حكومات القلّة [الأوليجاركي]، التي تهمل فيها الحقوق المدنية تمام الإهمال، فيقع لهم ما وقع للطاغية من قبل، لأن الجماهير تمل حكمهم، وتضحي على استعداد لعون كل من يضع خطة مهاجمتهم، وسرعان ما يبرز إنسان يستطيع مساعدة الجماهير ومساندتها القضاء عليهم، وتصفية أمرهم**".[1]

وفي حالة أخرى، قد ينصّب أمير ميكافيللي كنتاجٍ لرغبة العامة فيصبح أميراً في سياقٍ أشبه بالجمهورية، بل قد تكون تركيبة المدنية السياسية الجمهورية مزيجاً بين الإمارة والحكم الشعبي، وإن كان فإنّ حكم السيادة الشعبية يعد نقيضاً لرغبات وطموحاتِ طبقة النبلاء، والتي ستحاول في كل مرةٍ إفشال هذا النموذج من الحكم، وانتهاز الفرصة للوثوب على السلطة، بينما تحاول الجماهير تثبيت الحكم الشعبي وسيادته، وهي تقوم بذلك من خلال ولائها لأميرها، أو هيئتهم الشعبية، وعلى النقيض من ذلك، قد يكون الأمير صاحب سلطان على نقيض رغبة الشعب، وهذا حال الإمارات الإقطاعية في عصر النهضة في أوروبا، بل في إيطاليا على وجه الخصوص، وفي هذه الحالة فإنّ الجمهور قد لا يكتفي بمعاندة الأمير، بل قد يتخلى عنه، ويتركه فريسةً للطامعين والطموحين والمغامرين، وقد ينضمون إليه في حالة من الفوضى التي تخرّب الدولة والمدنية مرة أخرى، وهذه المرحلة هي الفوضى أو الكاووس التي يشير إليها نص ميكافيللي مراراً، ويلاحظ ميكافيللي دور طبقة النبلاء، وهي في اغتنام الفرصة والوقوف إلى جانب المنتصر، إذ يصفها ميكافيللي بأنها طبقة تمتلك من الخبرة والمعرفة ما يجعلها تغتنم الفرصة أفضل اغتنام، وفي هذا الصدد يشرح ميكافيللي هذه التناقضات في تفاعُلِها، إذ يقول: "**أما من يرفعه الشعب إلى منصب الأمير، فإنه يجد نفسه متفرداً والجميع يسعى لخدمته عدا نفرٍ قليل. كما أن المعاملة العادلة لن ترضي عنه طبقة النبلاء في حين أن نفس الأمر**

[1] المصدر السابق ذاته، ص 219-220.

سيرضي عامة الشعب بسرعة. فالعامة يرضون بالعدل بينما النبلاء يرغبون في التعسف والبطش... وأسوأ ما يمكن أن يحدث للأمير من شعب يكرهه هو أن يتخلى عنه، لكن النبلاء ينشطون لمقاومته عندما يعادونه... ولما كان النبلاء بعيدي النظر أكثر من الشعب وأشد منه مكراً فهم دائماً قادرون على تخليص أنفسهم بالانضمام إلى من يتوقعون له الغلبة في الوقت المناسب. والأمير مضطر للحياة بين أفراد الشعب دون حاجة للطبقة الأرستقراطية، فبإمكانه أن يوجدها، أو أن يقضي عليها في أي وقت. وأن يحسن من مركزها في المجتمع. أو يجردها منه كما يحلو له".[1]

وعلى الأمير في هذه الحالة أن يتعامل مع طبقة النبلاء وفق منطق الضرورةِ، فالنبلاء هم أعداؤه المحتملون، وطبقة النبلاء هي الرحم الذي يخرج أكثر الطموحين والمنافسين على الحكم، ولكن في المقابل، فإنه من الراجح أن يكون بحاجتهم، ذلك أنها الطبقة التي تمتلك الناس الأكثر معرفة وخبرة، هذا فضلاً عن أنهم يمتلكون من الثروة والتجارة وغيرها من الإمكانات ما ييسر شؤون الحكم، ولهذا فهي طبقة تحتل مكانتها في تسيير أمور الدولة، ورغم ذلك كله فإنّ ميكافيللي يحذر منها مراراً وتكراراً باعتبارها الخطر الدفين الذي قد يظهر في أي لحظةٍ، وفي أي ضعف للأمير أو للحكم الشعبي أو لأي هيئةٍ حاكمة، يقول ميكافيللي ناصحاً للأمير في هذا الصدد: "**يجب علينا أن نتناول طبقة النبلاء، بأسلوبين مختلفين، أي أنهم إمّا أن يحكموا بطريقة تجعلهم يعتمدون عليك تماماً أو أن يُتركوا. فإذا ما كانوا محكومين تماماً، ولم يصبهم الجشع فيجب عليك أن تكرمهم وتحبهم. أمّا من يبتعد عنك، فيجب معاملته بإحدى الطريقتين: فإذا كانوا يفعلون ذلك إحجاماً وجبناً، فليس لك أن تخشاهم في الضراء. ومن الممكن أن تستفيد من أهل الرأي منهم خاصة، كما أنهم يشرّفونك في السراء. أمّا أولئك المبتعدون عنك لغرض معين؛ فهذا يعني أنهم ذوو طموحات؛ وأنهم يفكرون في أنفسهم ولا يفكرون فيك**".[2]

إنّ تركيبة المجتمع السياسي بحسب ميكافيللي تعتمد على القيم السائدةِ فيه، وهي قيم ثقافية وسياسية وفردية، فكما أن الفرد الحر في تكوينه ونشأته يؤثر في تركيب الجمهورية أو في خنوعه وطاعته يؤثر في تركيب الإمارة المطلقة، كذلك فإنّ للدين دوراً محورياً في تركيب المجتمعات وتشكيل قيمها وبناها الأساسية، فالدين بالنسبة لميكافيللي أداة جوهرية للسلطة، ولا يمكن للحاكم الناجحِ أن يحكم بدون استخدام الدين، وتأطير العامّةَ في نموذجه السياسي القانوني

[1] ميكيافيللي: الأمير، مصدر سبق ذكره، ص 57.

[2] المصدر السابق، المكان ذاته.

بدون إخضاعهم بواسطه الدين، بل إنّ الدين كما يرى ميكافيللي هو شكل من أشكال التنظيم السياسي، بل هو كذلك نموذج قيمي عميق يحكم الحياة السياسية في أي مدينة أو إمارة أو دولة، فبحسب ليو شتراوس *فإن مبدأً كل دين هو السلطة، ذلك ما شكّ فيه ميكافيللي بصورة مباشرة، من قبل. فقد استخدم حكام روما الدين لأغراضهم السياسية. وفعلوا ذلك بطريقة أكثر من مثيرةٍ للإعجاب، فأبدى ميكافيللي الثناء على دين روما القديمة، ومن ثمّ قصد توجيه نقدٍ لدين روما الحديثة. فيثني ميكافيللي على دين روما القديمة للسبب نفسه الذي من أجله، أثنى الكتاب الأحرار الذين خضعوا لسلطة قيصر على بروتس لأنه لم يستطع أن يلوم بصورة علنية سلطة المسيحية التى كان يخضع لها. ولذلك إذا كان تاريخ ليفيوس هو إنجيل ميكافيللي. فإنه ضد إنجيله*.[1]

إن أهم النقاط التي يركز عليها ميكافيللي في نظريته السياسية هي دور الدين في بناء النظام السياسي الاجتماعي، وبلغةٍ أخرى، دور الدين في بناء القيمة السياسية، وتعزيز غاية السلوك السياسي، وتأسيس المجتمع السياسي المعبّر عن هذه القيمة، وبينما يرى ميكافيللي أن السلطة في حاجة إلى الدين لتعزيز النظام الاجتماعي، فإنه يرى تعلق الأمر بطريقة النظر إلى الدين، هل هو من منظور الأمراء أم من منظور الجمهور، وفي واقع الحال يرى ميكافيللي أن الدين ليس مجرد أداة سياسية تستغلها الحكومة أو يستغلها الأمير، سواء أكانت سياسيةً أم أخلاقيةً أم قانونيةً، ذلك أن "**السر المعروف لكل قدماء الرومان –والمنسي في العالم المعاصر– هو أن المؤسسات الدينية يمكن أن تلعب دوراً يشبه دور الأفراد البارزين في الإسهام في تعزيز العظمة المدنية، فالدين يمكن استخدامه لإلهام عامة الناس – وإذا لزم الأمر ترهيبهم – على نحوٍ يحثهم على تفضيل صالح مجتمعهم على كل المصالح الأخرى**".[2]

هناك عدة حالات يبرز فيها دور الدين في نصوص ميكافيللي، فهناك أولاً المدن التي تؤسس، وهناك ثانياً المدن التي يعاد تنظيمها، وهناك ثالثاً المدن المفتوحة والدول المهزومة التي تدخل حديثاً في نطاق سلطة الأمير، وفي هذه الحالات جميعاً يكون أمامَ الأمير، بحسب ميكافيللي، خيارين اثنين لا ثالث لهما، الأوّل أن ينظم ديانةً جديدةً، وذلك في خضم وضعه لقوانين جديدة، ولقيمٍ جديدةٍ للدولة، أمّا الخيار الثاني فهو أن يحافظ على دين قديم ينظم الحياة السياسية والاجتماعية في المدنية التي حلّت فيها سلطة الحاكم، وفي حالة المدن التي تؤسس

[1] شتراوس، ليو: نيقولا ماكيافيللي، مرجع سبق ذكره، ص 445.

[2] سكينر، كوينتن: ميكافيللي– مقدمة قصيرة جداً، مرجع سبق ذكره، ص 71.

فإنّ الخيار الأوّل هو الأوجهَ لأن الذي يؤسس بهم المشرع المدينة هم جمهور دولة بائدةٍ منهارةٍ، أمّا في الحالات الأخرى فإنّ الحِفَاظَ على دين العامة والتناغم معه هو مسألة مهمة جداً في سياق نجاح عملية تنظيم القوانين وإلزام الجماهير بالطاعةِ، فالدين من حيث جوهره نموذجٌ اجتماعيٌ قيميٌ حاكمٌ لأوجه الحياة السياسية، ويعتقد ميكافيللي أن تحدّي دين العامة هو إجراءٌ في منتهى الخطورة قد يقدم عليه الأمير، بل زد على ذلك أن ميكافيللي يعتقد بوجود ارتباط بين قوة المدينة والتزامها بالقانون وقوة الظاهرة الدينية فيها، *ذلك أن ظهور الفساد يعادل خسارة «القوة» وتبديدها، واضمحلال سلطة القانون، فيظن ميكافيللي أن هذه العملية من الاضمحلال تنشأ بإحدى طريقتين؛ فقد يفقد أولاً جسدُ عامةِ المواطنين «قوته» من خلال تفكك الظاهرة الدينية، ومن ثمّ سيفقد ثانياً حرصه على الصالح العام، وذلك من خلال فقدان الاهتمام بالسياسة تماماً، ما يجعل الجسد الاجتماعي كسولاً وغير مؤهّلٍ بدنياً لأيّ من الأنشطة التي تتطلب القوة.*[1]

ولكي نفهم تماماً الفكرةَ الجوهرية لدى ميكافيللي، وكيف يفسر التحوّلَ السياسيَ وحركة الدورة الدستورية، أو الدورة التاريخية الدورانية، فيجب أن نستبعد بدايةً (أن نعلق) الحُكمَ القِيَمِي، وفكرةَ أن ميكافيللي يقدم تفضيلاتٍ للحكم، والحقيقة أنّه يقدم نموذجاً للسلوك يتعامل مع مختلفِ الحالات والنماذج والمراحل التاريخية، والمواقف السياسية التي يمر فيها المجتمع السياسي، ففي الأمير يبدو ميكافيللي ميالاً إلى نظام الحكم الملكي المطلق، فيما في المطارحات يبدو طاعناً بسلطات الملكيةِ المطلقةِ، ويبدو ميالاً أكثر لنظام الحكم الجمهوري، ومن الأجدى التعامل مع ميكافيللي باعتباره قارئاً للموقف السياسي، ومدركاً لإمكانيات التغير التاريخي، فالمسألة منهجيةٌ بامتياز، وميكافيللي هو من أوائل الفلاسفة والمفكرين الذين أدركوا أن السياسة فن الممكن، وليست صناعة ما هو واجب، وعلى هذا الأساس فإنّ مشروعية الحكومة سواء أكانت ملكيةً أو إمارة مطلقةً أو حكومة نبيلةً أرستقراطيةً أو حكومة جمهورية، نجد هذه المشروعية في متن ميكافيللي وهي تستمد من كفاءة هذه الحكومة باختلاف نموذجها، وتفاعلها مع الجمهور، وتنسيقها بين طبقات المجتمع، والمسألة تتعلق بالاحترام الذي تحظى به مثل هذه النماذج من خلال ما تحققه من قوة وسُلطةٍ للنظام القانوني واستقرار سياسي في الدولة، وعندما يفقد هذا النموذج أو ذاك كفاءته فإن الحركة الدورانية للمجتمع تنتقل إلى المرحلة التالية، وهذه القاعدة تنطبق على الحكم الملكي أو الحكم الجمهوري على الطراز الروماني على حدٍّ سواء، يقول

[1] المرجع السابق ذاته، ص 66.

ميكافيللي في المطارحات: "**ولما كانت جميع أنواع الحكومات تحظى بالاحترام في مستهل عهدها إلى حد ما، يحافظ هذا الطراز الديمقراطي من الحكم، على نفسه أمداً ما، ولكن هذا الأمد لا يَطُولُ، ولا سيما عندما يكون الجيل الذي قام على تنظيمه قد قضى نحبه ومضى. وسرعان ما تسود الفوضى، ولا يظل ثمة احترام لا للفرد ولا للموظف الرسمي، ولما كان كل إنسان يعمل ما يشاء في ظل عهد كهذا، فسرعان ما ترتكب جميع أنواع الشرور والمخالفات، وتحلّ النتيجة المحتومة، فتعود الإمارة إلى الحكم أمّا تلبية لنصيحة إنسان طيب عاقل، أو رغبةً في الخلاص من هذه الفوضى على أي سبيل. وتعود الخلقة من جديد، مرحلةً مرحلة،...، حتى تصل إلى الفوضى ثانية**".[1]

يبدو هنا أن ميكافيللي يؤمن بنوع من التقدم التاريخي، فالدورة التاريخية التي تجسدها نظرية الدورة الدستورية، تسير دوماً إلى الأمام في حركة منتظمة، ولا يوجد حقاً مدنية تعيد استنساخ ذاتها، بل بالأحرى هي تدور في دورة تطورية تحقق من خلالها سيرتها الحضارية، إنها سيرة حضارية تتسم بالعنف والصراع والارتقاء والتقهقر، فتولد حكومات وتموت حكومات، وتولد قوانين وتموت قوانين، لكن من الصعب حقاً بل يكاد من المستحيل أن تعيد مدنية ما استنساخ نفس الحكومة بذات القوانين في عمرها، فهذا التطور التاريخي لأشكال ونماذج الحكم في المدنية يبتدئ من نقطة الملكية المطلقة بما يحمل الأمير من قوانين يفرض بها سطوته على الجماهير، ثم يتطور داخل الحركة الدورانية ليعود المجتمع أو المدنية إلى الملكية المطلقة مرةً أخرى، وذلك دون أن يستنسخ الملكية الأولى، إذ يستبدلها بقوانين جديدة، ولكن وبما أن ميكافيللي يلمّح أو يكاد يصرح بالتقدم التاريخي، فانه يحافظ على بعض الإمكانية للعودة في بعض المراحل التطورية مرحلةً إلى الخلف، لكنه يعتبرها حالة شديدة الندرة، والطبيعي برأيه هو أن تتطور المدنية بالانتقال بين هذه النماذج (ملكية أو إمارة، ارستقراطية، جمهورية) ونقائضها (طغيان، اوليجاركية، فوضى) دورةً الدستورية على أساس التفاعل بين الطبقة الحاكمة وسائر طبقات المجتمع وجماعاته، وها هو ميكافيللي يفسر ذلك بقوله: "**هذه هي الحلقة الي تمر بها جميع الحكومات، سواء أكانت مستقلة تحكم نفسها بنفسها، أو تابعةً لحكم أجنبي. ولكن يندر أن تعود نفس الحكومة إلى نفس الشكل من الحكم في المرة الثانية: وذلك لسبب واحد وهو ندرة تمتع الحكومات بتلك الحيوية الي تضمن لها الصمود امام جميع هذه التقلبات، والبقاء بعدها في حيّز الوجود. وما حدث عادةً هو أن هذه الحكومات وهي تفتقر في هذه الحالة الي**

[1] ميكيافيلي، نيقولو: مطارحات ميكافيلي، مصدر سبق ذكره، ص 220.

يسودها الهرج والمرج، إلى المشورة الصادقة والقوة تغدو تابعة إلى دولة مجاورة لها، أحسن منها تنظيماً. ولولا ذلك، لظلت الحكومات تسير في تلك الحلقة المفرغة من التحول إلى أبد الآبدين".[1]

وفيما يخص فكرة الأمير المشرع أو المشرعِ القدير، فإنها نظرية مهمة جداً لدى ميكافيللي، وواضحة تماماً في نصوصه، وبينما تكون خجولةً متوارية في كتاب الأمير، فإنها تكون واضحة صريحة في متون كتاب المطارحات، ومع ذلك لا يمكننا أن نقول بأن نظرية ميكافيللي ترتكز في عمومها على هذه الفكرة، ولكن نظرية المشرع القدير موجودة حقيقة في نصوص ميكافيللي بما يسمح لنا بالقول بأن هذه النظرية ذكرت لديه قصدياً وبشكل منهجي واضحٍ، مما يجعلها جزءاً عضوياً من نصوصه النظرية، ولها دور تفسيري للعلاقة بين الجمهورية والإمارة، خصوصاً كما ذكرت في كتاب المطارحات المتأخر وكتاب الأمير المبكر في حياة ميكافيللي، وهذا الاضطراب في العلاقة بين الأمير المشرع والأمير السياسي وشعب الجمهورية الحر جعلت الباحثين والمفكرين يلاحظون هذا التناقض بين سلوكيات ونظريات هذه الأشكال والنماذج السياسية في النص الميكافيللي، يعتقد جورج سباين بأن *ميكافيللي لم يبنِ أبداً على اعتقاده فى المشرع القدير نظريةً عامة فى الحكم المطلق السياسي، على غرار ما فعل هوبز فيما بعد. كان رأيه يتجاذبه نوعان من الإعجاب بالمستبد الواسع الحيلة. وبالشعب الحر الذي يحكم نفسه، غير أنهما نموذجان لا يتفق أحدهما مع الآخر. وجمع بين الاثنين بطريقة غير مأمونة إلى حدٍّ بعيد كنظريتين إحداهما فى تأسيس دولة والأخرى فى المحافظة عليها بعد تأسيسها*.[2] وإذ نتفق جزئيا مع العديد من أفكار سباين، إلّا أنّ سياق نصوص ميكافيللي تشير إلى إدراكه العميق وقصديته في فكرة المشرع، وهي تتعلق بنظريته الدورانية التي ترى بأن المدنية السياسية تمر بدورة من الحياة تبتدئ فيها من حكم الإمارة المستبدة، فتمر بحكم الأرستقراطية، وتنتهي إلى حكم الديمقراطية من خلال نموذج الدولة

[1] المصدر السابق ذاته، ص 220-221.

[2] سباين، جورج: تطور الفكر السياسي، ج 3، مرجع سبق ذكره، ص 43-44.

الجمهورية، فالذي ينظم هذه الحياة هو القوانين التي تدور في هذه المدنية، أمّا دور المشرع فهو في تحديد هذه القوانين في المفاصل الضرورية وفي أزمنة التحولات الكبرى.

II. خاتمـــة:

تمر المدنيات السياسية بالكثير من التحولات الخطيرة والمتتابعة والمترابطة، وهي تتعلق بالتحول من نموذجٍ سياسي إلى نموذجٍ آخر، وفي كل مرحلةٍ يظهر للأمير أو الحاكم أو الهيئه الحاكمة منافسون طامعون وطموحون يبحثون عن المجد، من خلال تدمير مجدِ الآخرين، وهؤلاء يتفلتون دوماً من القانون ويتمنعون عن طاعته، فيجب على الحاكم، وفقَ ميكافيللي، أن يقوم بإلزام العوام أو الجماهير بالقانون، وما دام ذلك يصلح فإنّ الطموحين لن يجدوا لهم من ناصرين، ولهذا السبب تحديداً ينبغي للأمير أن يحتفظ بقدرٍ كبيرٍ من الصلة مع جمهوره ورعيته، وهي صلات تقوم على الصورة التي حفرها عن نفسه في أذهانهم، وضرورات السياسة تقتضي أن يجعل هذه الصورة تحمل ازدواجاً بين الفضيلة والرذيلة، وبين العطف والعدل من جهه والهيبة والخوف من جهه أخرى، وبدون ذلك فإنّ سلطته ستتفسخ وتضعف وتصبح عرضه للمغامرين والطامعين، والذين سيحاولون استغلال أي فوضى ممكنة قد تحدث، ولذلك ينبغي للأمير كما يلمح ميكافيللي في غير ما مرة، أن يمنع الفساد في المجتمع وأن يدرك أن كلّ فعلٍ سواء أكان أخلاقياً أم غيرَ أخلاقيٍ إنما هو مرتبط بضرورته، ولا ينبغي أن يصدر في غير مناسبته وإلا شاعت الفوضى.

يعتقد ميكافيللي أن الممارسة السياسية مسألة معقدة وذات حِرفية عالية، وتتطلب أداءً متقناً، وحسب ذلك فإن السياسة ليست لكل الناس، كما أنها تتطلب تثقيفاً خاصاً يساعد السياسي على ممارساته السياسية وأدواته، سواءً أكانت على شكل قوانين أم نصوصٍ أم قراراتٍ أم خدعٍ أم حيل تعبّر عن الدهاء، كما أنه يجعل الحرب ممارسةً سياسيةً في

جوهرها فهي تؤدي الأهداف السياسية التي تعجز عنها الممارسات الناعمة فتقوم بإقصاء الخصوم من ساحة اللعب السياسي، ومرةً أخرى تتطلب الحرب مستوىً عالياً من الثقافةِ السياسيةِ، كما أن انفراد السياسي في إدارةَ المجتمع السياسي والدولة يتطلب براعةً فائقةً وجرأةً منقطعةَ النظير، وإدراكاً بأفضلية القيمة السياسية على غيرها من القيم الأخلاقية والفلسفية والدينية، وهذا طبعاً وفق رأي ميكافيللي، وهو الذي كان يرى بأن السياسة هي فن الممكن، وليست فن الواجب، وهو ما يتطلب من السياسي المهارات اللازمة للبقاء أولاً وللسيطرة ثانياً، فمن يتولى أن يجعل نفسه أميراً فإنه يضع نفسه موضع الخطر، ومع ذلك فكل الصعاب في عالم السياسة يمكن أن تُذلّل، مهما بدت صعوبتها وساد الشك في نجاحها.

ثبت المصادر والمراجع:

1- ميكيافيللي. (2004). الأمير، ترجمة: أكرم مؤمن، مكتبة ابن سينا، القاهرة.

2- ميكيافيلي، نيقولو. (1982). مطارحات ميكافيلي، تعريب: خيري حماد، دار الافاق الجديدة، بيروت.

3- توشار، جان. (2010). تاريخ الافكار السياسية، ترجمة: ناجي الدراوشة، دار التكوين، دمشق.

4- سباين، جورج. (د.ت). تطور الفكر السياسي، ج 3، ترجمة: راشد الراوي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة.

5- سكينر، كوينتن. (2014). ميكافيللي- مقدمة قصيرة جداً، ترجمة: رحاب صلاح الدين، مؤسسة هنداوي، القاهرة.

6- شتراوس، ليو. (2005). نيقولا ماكيافيللي: تاريخ الفلسفة السياسية، الجزء الأول، تحرير: ليو شتراوس وجوزيف كروبسي، ترجمة: محمود سيد أحمد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

Sources and references:

1. Machiavelli. (2004).*The Prince*, translated by: Akram Moamen, Ibn Sina Library, Cairo. (In Arabic)

2. Machiavelli, N. (1982). *Machiavellian Discourses (The Discourses on Livy)*, translated by: Khairy Hammad, Dar Al Afaq, Beirut. (In Arabic)

3. Sabine, G, H. (No Date). *A History of Political Theory*, part3, translated by: Rashed Al-Barawi, the Egyptian General Book Organization, Cairo, undated. (In Arabic)

4. Skinner, Q. (2014). *Machiavelli- A Very Short Introduction*, translated by: Rehab Salah Al-Din, Hindawi Foundation, Cairo. (In Arabic)

5. Strauss, L. Cropsey, J. (Ed). (2005). History of Political Philosophy, part1, translated by Mahmoud Sayed Ahmed, The Supreme Council of Culture, Cairo. (In Arabic)

6. Touchard, J. (2010). *History of political ideas*, part 2, translated by: Najy Drawsheh, Dar Takwin, Damascus. (In Arabic)